مصر ليست أمي... دي مرات أبويا..

الطبعة الرابعة

أفتوكا لايزو*

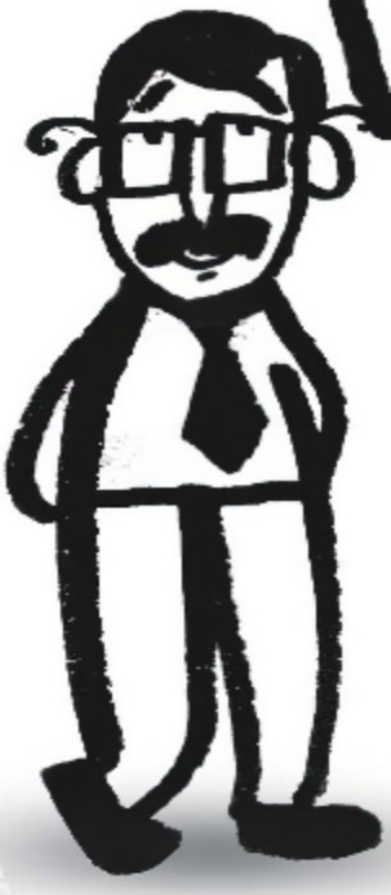

* أفتوكا لايزو: أي أفتوك lies (كذبًا).

أسامة غريب

دار الشروق

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة إلى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم إلى الجروب

انضم إلى القناة

أفتوكا لايزو

الكاتب: أسامة غريب

اهداء..

إلى الأستاذة صافي ناز كاظم
كبرياؤها وقدرتها على الاستغناء يفوقان التصور
وهي لا تصالح السفلة ولو منحوها الزمرد
كما أنها لا تقول ما لا تفعل

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مقدمة..

عندما قابلت الشيخ بنزهير في مونتريال للمرة الأولى، لفت انتباهي إليه شيئان: الأول خفة دمه وحبه للكوميديا والضحك والفرفشة، والثاني شغفه وغرامه بالطعام بصورة تفوق أي تصور.
كان بنزهير قد وصل إلى نيويورك لإحياء ليالي شهر رمضان مع الجالية المسلمة بالمدينة، ويبدو أن ما تذوقه أثناء الشهر الفضيل من طعام قد راقه وأنساه أن يعود قبل انتهاء صلاحية التذكرة! وهكذا قبع الرجل بين الأصدقاء متنقلًا بين نيويورك ونيو جيرسي، وعلى ضفاف موائدهم العامرة قضى أسعد الأوقات. كان في البداية يبيت لدى أي أحد يتصادف وجوده في بيته بالمساء، ثم ساعده أولاد الحلال فاستأجر غرفة واستقر بشكل نهائي. ومضت سنوات تعلم فيها بعض اللغة الإنجليزية وصار كلامه «أنجلو أراب» شبيهًا ببعض أصحاب العمائم القدامى ممن كانوا يحفظون كلمات اللغة الإنجليزية بتكرارها بصوت عال قائلين: القط كات والفأر رات! ثم مد نشاطه فتجول في ولايات عديدة وزار كندا وقضى فترة من الزمن بمدينة مونتريال، وهناك التقيت به في إحدى السهرات مختليًا بطبق فتة باللحمة الضاني في ركن قصي من صالة الطعام، وقد فاجأني في اللقاء الأول بأنه زعلان مني وعاتب عليّ بشدة، فلما استفسرت منه عن السبب قال: لأنني انتظرت منذ وصولي إلى مونتريال أن «تفيدني» وطال انتظاري دون جدوى. قلت له مدهوشًا: أفيدك في ماذا؟ ما هي بالضبط الفائدة التي توقعتها مني ولم تجدها؟ فضحك بشدة وأخذ يقهقه قائلًا: كنت أعلم أنك لن تفهمني بسهولة مع أن كلامي واضح. قلت له وضّح أكثر يا شيخ بنزهير. قال: «تفيدني» يا أستاذ مشتقة من verb to feed ومعناها بالعربية يُطعم أو يزغّط أو يدفع الْمَم في الأفواه، و«أتوقع منك أن تفيدني» معناها أتوقع أن تطعمني وتذيقني الْمَم وأنتظر دعوتك لي على العشاء حتى أقبلها فورًا، وأضاف: لقد سمعت أنك رجل كريم وأن نارك تحت القدور لا تنطفئ. أدهشني جرأته في طلب العزومة وضحكت بصوت عال قائلًا: ناري لا تنطفئ؟ هل تظنني حاتما الطائي في طبعته الكندية أخرج في طرقات مونتريال وسط الجليد باحثًا عمن يكون لم يتناول عشاءه بعد؟ قال: بل أكرم من حاتم الطائي. فقلت وقد قررت أن ألاعبه على طريقته وأجاريه في لغته العجيبة: أفتوك لايزو يا شيخ بنزهير! فقال: يعني إيه؟ قلت: ألا تزعم أنك تعرف لغات وتستطيع فك شفرة العفريت؟ قال: غلب حماري يا سيدي. قلت له: أفتوك لايزو يعني أفتوك كذبًا ونصفها الثاني مشتق من كلمة Lies وتعني أكاذيب بالإنجليزية.. «أفتوكا لايزو» هو مصطلح يعني ضحكوا عليك وباعوا لك التروماي وملأوا خيالك بالوهم.. فهمت يا أستاذ بنزهير؟
تلقف بنزهير المصطلح بسعادة بالغة وأخذ يردده في فرحة، وصار من يومها لا يكف عن استخدامه بسبب وبدون سبب، وبمرور الوقت نسي الناس اسم الشيخ بنزهير وصارت كلمة السر الدالة على الرجل هي «أفتوكا لايزو» أو الشيخ أفتوكا!
وقد تزوج الشيخ أفتوكا وحصل على أوراق الإقامة وصار يقضي أيامه متنقلًا بين الولايات الأمريكية والمقاطعات الكندية، وكلما لقيته في أمريكا أو في كندا كان يجري نحوي مندفعًا فاتحًا ذراعيه ليحتضنني في ود وهو يصرخ بأعلى صوته: أفتوكا لايزو، ويشير نحوي وهو يقول للأصدقاء: هذا هو صاحب المصطلح ومالك حقوقه الحصرية، لكنه تركه لي بنظام BOT وسأعيده إليه بعد ٢٥ سنة.

وعلى الرغم من أن هذا المصطلح العابث قد خرج بشكل عفوي في سهرة بريئة مع الأصدقاء، وعلى الرغم من أنني تركت كندا وأمريكا منذ سنوات ولم أعد ألتقي بالشيخ بنزهير إلا أن صوته ما زال يرن في أذني وهو يقول إن جميع من في مصر قد أفتوك لايزو.
بسبب الشيخ بنزهير صرت أرى هذا المصطلح وثيق الصلة بأسباب تخلفنا وهوان شأننا وضياع حقوقنا، لأن حكوماتنا المتصلة إذا ما أمعنت التفكير في كل وعود أعضائها ستكتشف أنهم جميعًا قد أفتوك لايزو، وأعضاء مجالس الأنس.. المنتخبون منهم والمعينون لا يفتونك إلا لايزو. وشيوخ الفضائيات والأرضيات والحوائط لا يفعلون سوى أن يفتونا لايزوومثلهم الصحف والمجلات، والحزب العاكم والأحزاب المساعدة التي تقوم بالتقاط بقايا الطعام من بين فكي التمساح، كذلك رجال الأعمال السفلية والعلوية.. حتى الفنانون لا تعكس أفلامهم وأغنياتهم سوى أكاذيب معبأة في شرائط.
وبالمناسبة.. لا أنسى سهرة دعيت إليها لدى سيدة أعمال مثقفة ومضيافة كانت تضم نخبة من نجوم الفن والأدب والصحافة وأساتذة الجامعة، وقد تصادف أنني في هذا اليوم كنت قد نشرت مقالًا عن «المواطنة» ستجدونه بالكتاب بين أيديكم ـ وفيه تناولت حكاية فتاة مصرية أرادت أن تدخل مطعمًا على كورنيش النيل بصحبة بعض صديقاتها للاحتفال بعيد ميلادها، لكن مدير المطعم منعها في غلظة من الدخول، وعلل سبب المنع بأن ملابسها محتشمة أكثر من اللازم!!.. جن جنون الفتاة بعد تعرضها لهذا الموقف المهين، وأرسلت حكايتها للصحف تطلب فضح المطعم العنصري الفئوي الذي يمنع دخول المحجبات. أخبرتني الفتاة بأن أحدًا لم يجرؤ على النشر لأنهم يتواطؤون مع صاحب المطعم ويخشون إغضابه. قمت بنشر حكايتها بصحيفة المصري اليوم التي برهنت على ليبرالية حقيقية واحترام حقيقي للقارئ.
في تلك السهرة دار الحديث والدردشة حول المقال الذي كتبته بخصوص هذه الفتاة.. وعلى كثرة عدد الحضور الذين كانوا في حدود ١٥ رجلًا وامرأة لم أجد من بينهم شخصًا ـ يوحّد الله ـ يقبل موقفي المساند للفتاة وحقها الطبيعي في أن ترتدي ملابس محتشمة وأن تذهب للغداء في مطعم!
قال ممثل بارز ومحبوب: ما دامت تريد أن تتحجب أو تتنيّل.. ما شأنها بالمطاعم النضيفة!! وقال صحفي مخضرم: إن الحجاب قد انتشر كالوباء وأصبح يشكل حالة شديدة البؤس لا يمكن الدفاع عنها.
وقالت سيدة فاضلة: (باعتبار أن الأخريات قد خرجن وهي التي فِضْلت) ما الذي حدث لهذا البلد؟ كنا زمان نرتدي الميني جيب وكانت الأخلاق أفضل بمائة مرة.
وقال واحد من أساطين كُتاب السيناريو: ليس لهذه الفتاة أية حقوق، ومن يتشعلق بالحريات والحقوق تكأة لنشر الطالبانية والظلام فإنه يشجع على الإرهاب ويحض على قتل الأبرياء وهذا لا يمكن أن نتعاطف معه (هكذا). وقال الأستاذ الجامعي: إن هذا التيار يتحرش بالمجتمع وعندما نريد أن تكون لنا أماكننا ومطاعمنا الخاصة يزاحموننا فيها وكأنما لا تكفيهم بقية البلد!
كان الكلام موجهًا إلى شخصي باعتباري الذي يساعد على نشر الوباء والذي يحض على الإرهاب وتنطلي عليه دموع التماسيح الطالبانية. التفتُ حولي أتلمس شخصًا واحدًا لديه بعض الإنصاف أو يحمل رؤية إنسانية للبشر وتعاطفًا مع أبسط حقوق الإنسان في العموم.. فلم أجد.
كلهم قالوا كلامًا فارغًا بعيدًا كل البعد عن الموضوع... الأخت التي تحدثت عن الأخلاق في الستينيات وكيف كانت أفضل.. أنا أؤيدها في رأيها تمامًا وأزيد عليها بأن الأخلاق قد انهارت بالرغم

من كل مظاهر التدين الزائف، لكن ما علاقة هذا بموضوعنا؟.. نحن نتحدث عن إنسانة أهينت لأن لبسها المحتشم لم يعجب أصحاب المطعم.. القضية بسيطة وواضحة.
والأخ الذي يطلب ممن تريد أن تتحجب أو تتنيل أن تجلس في بيتها.. كيف سمح له ضميره الإنساني أن يقولها وهو الفنان الذي يحبه الجمهور ويتصورونه مثقفًا ومناضلًا وهم لا يدرون موقفه العنصري منهم.
والسيناريست الذي تطارده جذوره الصعيدية ويتطلع لإثبات أنه رجل مودرن وسط القاهريين، نزع عن الفتاة الحق في الغداء بمطعم، ورأى في هذا محاولة غزو طالباني يجب التصدي لها.
وأستاذ الجامعة الفاضل ماذا لديه يقدمه لطلابه عدا غثيانه ونفسه المائعة من أهل بلده المصريين.
كل الذي عنى السادة الأفاضل هو أن ينفثوا مشاعرهم الضائقة بمن يختلف عنهم في أسلوب الحياة. لم يهتم أحد منهم بحقوق الإنسان التي يتحدثون عنها بآلية وميكانيكية تشبه الببغاء طول الوقت، وهي لا تعني لديهم سوى حقوق أصدقائهم وبس!
قلت لهم منهيًا الحديث: أنتم جميعًا فاشيست ولا أمل فيكم.
لم أشأ أن أدخل في جدل عقيم حول صورتهم لدى الرأي العام الذي لا يعرف عنهم كل هذه الوحشية والقسوة ويتصورهم حملة مشاعل النور.
ولم أشأ أن أخبرهم أنني لا أدافع عن الحجاب ولا أدافع حتى عن الاحتشام، لكن ما يعنيني هو حق البشر في ألا يُظلموا ويُفتأت على حقوقهم لمجرد أن ملابسهم لا تعجبك.
ولم أشأ أن أسعدهم بأنني شخصيًا لست مغرمًا بالحجاب ولا يشغلني أن تتحجب المرأة أو تسفر، ولا أتدخل في خيارات الناس الشخصية.. إنما يعنيني صدقهم والتزامهم بالأصول وليرتدوا ما شاؤوا.
خرجت من هذه السهرة وأنا في نكد عظيم لأن هؤلاء الناس لا يُظهرون آراءهم الحقيقية ولا يعلنون عنها، ويحصلون على حب واحترام لا يستحقونه، وهم في موقفهم هذا تكفيريون يستبيحون كرامة وربما دم من يختلف معهم، ولا يرون له حقوقًا كما لو كان حشرة.
وأحزنني أيها القارئ الكريم أنهم في السينما وفي التليفزيون والصحافة وفي الجامعة وعلى مدى سنوات طويلة قد غرروا بك وأطعموك البلوظة، وأفتوك في كل ما سألتهم... لايزو.
أسامة غريب
القاهرة ٢١نوفمبر ٢٠٠٨

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كابورياتي

بنـت الحـرام عضتني في إيدي..
تقولشـي عدوّتهـا!!
نجمة إبراهيم في «ريا وسكينة»
أزمة مرحلة «عم الحاج»

إلى سنوات قريبة مضت، كان النداء الذي أسمعه إذا ما استوقفني أحدهم بالشارع ليستدل على عنوان أو ما شابه هو: لو سمحت يا كابتن. ثم بعد ذلك تسلل على استحياء نداء آخر صرت أتلقاه بين الفينة والفينة بعد أن أصبحت «أفندي» ببدلة هو: من فضلك يا أستاذ.. وظل الأمر يتأرجح ما بين يا كابتن ويا أستاذ، طبقًا لزاوية الرائي وتقديره لحالتي.

حتى كانت ليلة شتوية منذ ثلاث سنوات، وبينما كنت أغسل السيارة في محطة خدمة، إذا بعامل المحطة يشكرني بعد أن نفحته بقشيشًا محترمًا قائلًا: شكرًا يا حاج!. تسمرت في مكاني للحظات، ثم أخذت أتلفت حولي قبل أن أتأكد أنه يكلمني أنا. ثم حدثت نفسي قائلًا: ربما كان لا يقصد أو لا يعني ما يقول، أو ربما أراد أن يجاملني ويمنحني لقبًا قبل أوانه على سبيل التكريم، مثلما نقول للشاويش يا حضرة الصول مثلًا.. غير أن هذا التفسير لم يقنعني ولم يوقف في رأسي الشواكيش التي أخذت تدق متسائلة: هل بدا عليّ التدهور واضحًا إلى هذا الحد؟ هل تراني تهاونت في التأنق الذي كنت أحرص عليه باستمرار؟ هل نالت مني الأيام والسنون حتى خطت بي دون أن أدري إلى حدود منطقة «ياحاج»؟.. لقد كنت أتصور أن الرجل في أربعينيات عمره لا يزال على مسافة فراسخ من هذه المرحلة، لكن يبدو أنني كنت مخطئًا. على أي الأحوال كان عليّ أن أتعامل مع المرحلة الجديدة بواقعية، وأن أنظر إلى نصف الكوب الممتلئ بماء ملوث سواء من الحنفية أو من زجاجة مياه معدنية!.. حمدت الله أن الأمراض التي ترتبط عادة بمرحلة «يا حاج» مثل الروماتيزم ووجع المفاصل وآلام الرقبة والظهر لم تصلني بعد، وعرفت من الفحص الطبي لضغط الدم والسكر وخلافه، أنه باستثناء اليوريك أسيد المرتفع وقرحة المعدة التاريخية، فالأمور ما زالت تحت السيطرة.. وهكذا حدَّثت نفسي بأن لكل فترة جمالها ولكل مرحلة مزاياها واقتنعت بأن أبتسم وأعيش.

لكن يبدو أن الزمن أراد أن يضاعف جراحي، فذات يوم من العام الماضي وكنت عند الجزار أشتري لحمة العيد، إذا بالرجل يناولني اللحم بابتسامة سعيدة وهو يوصلني إلى الباب قائلًا: بالهنا والشفا يا عم الحاج!.

خرجت من عند الجزار في حالة ذهول ولا تريد أذناي أن تصدقا ما سمعتاه للتو.. لقد نعتني اللعين بـ «عم الحاج» ولا يعني هذا سوى مزيد من التدهور. إنني لم أفق بعد من تداعيات مرحلة «يا حاج» فإذا بي أجد نفسي قد دخلت مرحلة «عم الحاج».. يالقسوة الأيام! وفي غمرة شعوري بالأسى مرت ببالي أبيات أبو فراس الحمداني التي كتبها إلى سيف الدولة وتقول: «وقد كنت أرضى الهجر والشمل جامع.. وفي كل يوم لقية وخِطاب. فكيف وفيما بيننا ملك قيصر.. وللبحر حولي ذخرة وحباب. أمن بعد بذل النفس فيما تريده.. أُثاب بمر العتب حين أثاب!». حقيقة لم أدر ما العلاقة بين أبيات أبي فراس وبين حالتي، لكنها على أي الأحوال قدمت لي بعض العزاء!. وجدتني أسير في الشارع متثاقلًا، محطم الخطوات، كهارب ليس يدري من أين أو أين يمضي. كانت مشكلتي أنني أعرف أن

مرحلة «عم الحاج» تختلف اختلافًا بينًا عن مرحلة «يا حاج» وهو اختلاف في النوع وفي الدرجة أيضًا، ولا شك في أنني أصبحت الآن رجلًا بركة لا يؤبه له ولا تخشاه القوارير أو حتى تتحسب لوجوده!

أصبحت فيما تلا ذلك ميالًا إلى العزلة، وبدأت أشعر بالوهن يدب في أوصالي، وزارتني آلام المفاصل والظهر والرقبة، وعافت نفسي الطعام، وطالت جلستي بالمنزل وتحديقي بالسقف. كما ضبطت نفسي أشعر بالحنين إلى الماضي، وأجمع أبنائي لأحكي لهم عن وفاة سيد درويش ليلة عودة سعد زغلول من منفاه، وأتفنن في سرد التفاصيل كما لو كنت حاضرًا معهم، كما أصبحت أجلس أمام «روتانا زمان» ألتمس أفلام الزمن الجميل أيام عزيزة أمير ورتيبة وإنصاف رشدي، وقمت بشراء بيريه للرأس مثل توفيق الحكيم. ليس هذا فقط، لكن أصبحت أميل للتحفظ بعد أن كنت أحب الهزار والدعابة، وأصبحت أؤثر الصمت بعد أن كنت أدخل قافية للعفاريت الزرق! وصار كلامي رصينًا يليق بطبيعة المرحلة، وقاطعت مجالس الأصدقاء التي كانت تمتلئ بالمرح والفكاهة.. حتى مباريات الكرة التي كنت أشارك بها كل أسبوع في النادي، أقلعت عنها بعد أن عددتها من قبيل التصابي الذي يجرح وقار الشيوخ.

لكن منذ أيام حدث أن تعطلت بي السيارة وتوقفت بالصدفة بجوار أحد المخابز، وعندما ترجلت منها لقيتني رغمًا عني أقف في طابور العيش.. وبينما أجاهد للخروج من الطابور اقتربت مني صبية حسناء كالغزال، ومن بين ابتسامتها الحلوة قالت لي: ممكن باتنين جنيه عيش معاك والنبي يا كابتن؟ نظرت إليها في ذهول لأتأكد، وسمعتني أقول للغزال: إيه؟ قول تاني كدة. مين؟ تقصدني أنا؟.

من بعدها عدت إلى الملاعب مرة أخرى واستعدت لياقتي للحياة من جديد، ولا أنوي أن أسمح لأي وغد أن ينال من معنوياتي حتى لو قال لي: يا عم الحاج!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الكباب هوّ اللي خلى العُمر غالي

لم أصدق أذنيّ عندما دلفت إلى المنزل أحمل لفة بها طعام العشاء الذي أحضرته للأسرة. قال ابني الكبير بعد أن فتحها: يووووه كباب تاني.. دي حاجة تزهّق، مش معقول كدة. جمدت في مكاني غير مصدق ما أسمعه. كنا زمان نقرأ في المدرسة قصة الأرنب الغضبان الذي ثار على أمه قائلًا: كل يوم خس وجزر، أنا خارج لأبحث لنفسي عن فطور. كانت القصة في كتاب المطالعة تهدف إلى تعليم الأولاد عدم البطر، وتعويدهم على تناول ما يقدم لهم في البيت دون تذمر. وبصراحة كنا نتعاطف مع الأرنب الذي ضاق ذرعًا بالخس والجزر وتاقت نفسه لأكلة حرشة بها بعض الزفر. لكن آخر ما كنت أتصور هو أن أرى ابني غاضبًا لأن أباه القاسي يحضر الكباب من وقت لآخر بشكل أثار انزعاجه!.
طافت بخيالي أفكار كثيرة وتذكرت قصة الأيام للدكتور طه حسين وبها فصل يحكي فيه لابنته الصغيرة عن حياته وطفولته والشقاء الذي عاناه في بيت فقير، وكان مما قاله لها: «يا ابنتي.. أنت لا تعرفين العسل الأسود، وخير لك ألا تعرفيه!». كان الرجل يقصد أن يقول للصغيرة أنه لم يُعرّفها على العسل الأسود الذي اكتوت به أحشاؤه من طول ما أكله كل يوم في الطفولة، وأنه سعى جاهدًا ليوفر لها حياة أفضل من التي عاشها. وددت أن أقول لابني أشياء مثل التي قالها طه حسين لابنته.. فكرت أن أقول له: يا ولدي أنت لا تعرف الفول النابت وخير لك ألا تعرفه، يا ولدي ربما تكون قد عرفت شكل البصارة عندما رأيتها معي في بوفيه مفتوح بفندق خمسة نجوم، لكنك لم تعرفها كطبق وحيد يظهر كثيرًا على المائدة.. أقصد على الطبلية، أنا أعرف أنك تحب سندوتشات الفول والطعمية، لكن هذا الحب مردّه الاختيار الحر، ذلك أن أصنافًا أخرى تكون موجودة دائمًا، أما أنا فكان سندوتش الفول في شنطة المدرسة هو وعدي ومكتوبي. يا ولدي هل تدري كم من المعارك خُضت، وكم من الوحوش صارعت، وكم من البشر بادلوني الطعان فأثخنتهم بالجراح وأثخنوني من أجل أن أحمل الكباب إلى صحنك؟ هل تعرف أنني عبرت بوابات النار من أجل أن أجعل أيامك خالية من الفول النابت؟. لقد كنت وأصحابي أيام الدراسة نكتب القصائد حين نمر بجوار الحاتي ونشم رائحة الشواء، وكان صديق لنا يردد عن يقين أن الكباب «هوّ اللي خلّا العمر غالي» على وزن «هواك هو اللي خلّا العمر غالي» التي قالتها أم كلثوم في أغنية «أقول لك إيه عن الشوق يا حبيبي»، بمعنى أن حياة بها كباب وكفتة هي الحياة التي تستحق أن يدافع المرء عنها ويسعى لإطالتها، وأن وطنًا يمنح أبناءه كيلو مشكّل كل أسبوع هو الوطن الذي نفديه بالروح والدم!. وكان صديق آخر يبادله المعارضة الشعرية فيخوض في الأغنية ذاتها قائلا: «الكباب نسّى الزمان طبعه»، بمعنى أنّ الكباب له القدرة على أن يرقق القلب القاسي لدرجة أن يجعل الزمان المعروف بتقلباته ينسى طبعه ويمنحنا الأمان!. وما زلت أتذكر أن أحد أفراد الشلة عندما نجح في الثانوية العامة فإن والده كافأه برغيف كفتة! ومعروف كذلك أن المرشحين في الانتخابات في سعيهم لنيل ثقة الناخبين لا يجدون سبيلًا - إلى جانب التزوير - خيرًا من علبة جاهزة تضم ربع كباب وسلطة طحينة ورغيفين. ولعلك تلومني يا ولدي إذ تراني أتألم عندما تداهمني نوبات النقرس الحادة وتعتبر الكباب مسؤولًا عما يحدث لي، وأنا أعترف أنني ربما كنت مخطئًا عندما اندفعت في سكة المشاوي لدرجة أن امتلأ دمي باليوريك أسيد، لكن عذري أنها كانت حلمًا ولم أصدق أنه تحقق فأردت أن أعيشه حتى الثمالة قبل أن أصحو من النوم، فضلا عن أن معظم المصريين يصابون بالنقرس بسبب الفول، وأنا أفضل أن يكون الكباب هو السبب.. لذلك لا تلوم

الكباب لأنه لا يستحق منك هذا!. ولعلك يا ولدي قد قرأت «عمارة يعقوبيان» ورأيت كيف كشف علاء الأسواني عن أن «كمال الفولي» التايكون الكبير كان يجلس كل مساء عند الكبابجي بفندق شيراتون الجزيرة يعقد صفقاته ويدير عملياته. لقد كان من الممكن للرجل أن يجلب إلى قصره أعظم الطهاة، لكنه بخبرته قد علم أن الحنان المتصاعد مع الدخان من مدخنة الحاتي يوفر له رومانسية لن يجدها بالبيت أو بالمكتب، وأن الجو العام هناك يساعده على التركيز من أجل نهب مصر! ولا أنكر أنني تعاطفت مع كمال الفولي رغم مساوئه لأنه لم يجلس مع رفقاء السوء في جلسة دخان أزرق يدخنون البانجو والحشيش، وإنما فضل الجلوس مع أصدقائه المجرمين عند الحاتي!

أفقت من خواطري على باب الشقة يُفتح وابني الصغير يدخل سريعًا معلنًا جوعه الشديد، ثم خيبة أمله التي عبر عنها هو الآخر: ييه... يادي الملل، كباب تاني. عندها أُسقط في يدي وابتلعت كل ما كنت أريد أن أقوله، فقط ظللت أردد في سري: يا ولاد الكلب، يا ولاد الكلب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سيدات مرحات.. جدًا

الفنان هاني شنودة له مكانة خاصة في نفسي. أحب فيه الإنسان المثقف والفنان المبدع والصديق الوفي.
لهذا ما كاد يخبرني أنه قادم إلى كندا لإحياء بعض الحفلات مع فرقته حتى طرت فرحًا.
في هذه الفترة كنت أعيش بمونتريال، ولم أكن قد التقيت هاني شنودة منذ فترة طويلة.. لهذا فقد أسعدني لقاؤه في منزل صديقنا عادل إسكندر بضاحية «لافال» على أطراف المدينة.
في هذه الليلة ضحكنا مع هاني كما لم نضحك من قبل، وكانت فرصة لأن نطمئن على صحته بعد أن كان قد ألمّت به وعكة صحية أقلقتنا عليه. أخبرني هاني عن فرقته الجديدة وقوامها مجموعة من الفتيات والشباب الواعدين.. ولهاني شنودة تجربة مع المواهب الشابة التي كان بعينه الخبيرة يلتقطها ويدربها، ثم بعد أن يصنع منهم نجومًا يتركونه إما للزواج أو استجابة للغواية ممن يقطفون على الجاهز!
أخبرني هاني أن بصحبته هذه المرة فتاتين يمكن أن تصبحا من نجوم المرحلة القادمة ومعه شاب موهوب، ويود أن يعرّفني عليهم. طلبت من هاني أن يكون ضيفي في اليوم التالي على العشاء هو وفرقته، فقبل الدعوة مُرحبًا.
قبل الموعد المحدد اتصل بي هاني تليفونيًا يستأذن في السماح بحضور فردين آخرين نسي أن يخبرني بشأنهما هما أُم كلٍ من الفتاتين أعضاء الفرقة، حيث لم توافق أي من الأمين على سفر ابنتها بمفردها خارج مصر للمرة الأولى وأصرت على أن تأتي معها لترعاها وتمنعها من الزلل! ولم ينس هاني شنودة أن يشكو من صعوبة أن يكون المرء فنانًا في مصر، حيث تأتي الفتاة وأحيانًا الشاب يريد أن يغني وبصحبته أمه وخالته لحمايته من الوحوش!... المهم استأذن مني هاني في أن نضيف إلى المائدة الضيفتين الجديدتين. طبعًا رحبت وقلت له أن بإمكانه أن يحضر معه من يشاء. لكني في الوقت نفسه شعرت بالحيرة ووجدت أنه يتعين عليّ أن أغير مكان الدعوة، حيث إن المطاعم في مونتريال هي بالضرورة مطعم وبار في الوقت نفسه.. صحيح أن بإمكان المرء أن يأكل ويشرب بيبسي وينصرف، لكني لم أجد من اللائق أن أدعو سيدتين محترمتين قدمتا من مصر لرعاية ابنتيهما بما يدل على الطابع المحافظ لكل منهما.. لم أجد مناسبًا أن أجلس بهما في مكان يقدم المشروبات الغربية، فقمت بإلغاء الحجز في المطعم الذي حجزت به، وشرعت أبحث عن مكان جديد حتى عثرت على مطعم يقدم المأكولات الشرقية، والبار الملحق به يقع بعيدًا في آخر الرواق ولا يمكن ملاحظته للجالسين في الموائد الأمامية.
في الموعد تمامًا أقبل هاني بصحبة صديقنا عادل وزوجته نانسي ومعه أعضاء الفرقة وامرأتان في منتصف العمر أدركت على الفور من هيئتهما أن كلا منهما هي أم واحدة من نجمتي الفرقة. سلمت عليهم جميعًا واستقبلتهم بالترحاب اللائق بضيوف من مصر التي طال غيابي عنها.
أقبل النادل بعد قليل يأخذ الطلبات، وقام كل فرد باختيار الطبق الذي يرغبه ونوع السلاطة والشوربة، ثم بادرنا النادل بالسؤال: ماذا أحضر لكم كشراب؟ لدينا نبيذ من أفخر الأنواع وهو مسجل باسم المطعم أود أن تجربوه. فسارعتُ أقطع عليه الطريق قائلًا: لا.. لا نريد مشروبات روحية.. هات لنا بيبسي وسِفِن وتشكيلة عصائر.. ثم نظرت إلى هاني الذي رمقني بنظرة استحسان. لكن لدهشتي

الشديدة فوجئت بأم إحدى الفتاتين تسأل الجرسون: ممكن أطلب حاجة تانية؟ قال لها: اطلبي ما شئتي. قالت: هل يوجد عندكم (Screw driver on the rocks) فأومأ الرجل بالإيجاب. أخذتني المفاجأة فسألت الجرسون: ما هذا الذي طلبته السيدة؟ قال: لقد طلبت ويسكي بالثلج. قلت له: إنها لم تقل ويسكي بالثلج. أجاب: سكرو درايفر هو الاسم الدارج للويسكي، وروكس لا تعني الصخور، إنما تعني مكعبات الثلج.

نقلت عيني بين السيدتين وبين هاني شنودة وأنا غير مصدق ثم سألت السيدة الثانية: وانت يا حاجّة تشربي إيه؟ قالت أنا سآخذ «باكاردي» بدون ثلج مع كولا. قلت للنادل وأنا سيغمي عليّ من شدة الضحك: هل فهمت ما قالته لك عمتك؟ قال: طبعًا فهمت.. هي ستشرب روم ممزوجًا بالكولا!.. وبعدها طبعًا لم يدهشني أن الفتاتين قد شربتا برميل نبيذ في وجود الملاك الحارس لكل منهما!.

ما زلت حتى اليوم ورغم مرور سنين على هذه الحكاية كلما لقيت هاني شنودة أغرق معه في الضحك وأتذكر كم كنت ساذجًا إلى حد العبط عندما ألغيت حجز المطعم الأول وأجهدت نفسي في البحث عن مكان محافظ يليق بوقار سيدتين إحداهما من شبرا والأخرى من بولاق قدمتا إلى القطب الشمالي من أجل حراسة الفتاتين، فإذا بهما تقلبان المائدة وتحدثان مفاجأة من العيار الثقيل فتطلب إحداهما «سكرو درايفر أون ذا روكس» وتطلب الأخرى «باكاردي ويذاوت روكس»!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كابورياتي ومعالي كيس الرمل

لا أذهب إلى الإسكندرية إلا وتكون زيارة صديقي «الريس كابورياتي» هي أولى الواجبات التي أحرص عليها قبل أن أفعل أي شيء آخر. ترجع صداقتنا إلى أكثر من عشرين سنة مضت عندما قابلته في حلقة السمك بالمكس، وصحبني إلى مطعم السمك الذي يديره بالجوار. مهابته وسط الصيادين وتجار السمك ليست محل شك. هو بالنسبة لهم بمثابة الدليل والمرجع. الجميع يستشيره ويأخذ برأيه في كل الأمور. كان يصر كلما ذهبت إليه على دعوتي إلى أكلة سمك فاخرة، وكذلك دعوتي إلى لقائه اليومي بأهله وعشيرته، حيث كان يقوم بالاستماع إلى مشاكلهم وفض المنازعات بينهم. وعلى تواضع حظه من التعلىم، فقد أوتي حكمة عظيمة، وكان يدهشني ذكاؤه وقدرته على إيجاد حل لكل مشكلة، حتى أنني لأتصور أن رجلًا كهذا يصلح بدون مبالغة لقيادة مركز لإدارة الأزمات أفضل من كل الموجود بالهيئات والمؤسسات العامة. ولا أخفيكم أنني أعتقد بحق أن البروفيسور كابورياتي ـ كما أحب أن أناديه ـ يمكنه أن يكون رئيسًا للوزراء على قدر عال من الكفاءة بأكثر مما يتصور أحد. وقد شهدت ذات يوم في مطعمه الذي يؤمه عِلية القوم احتدام النقاش بينه وبين أحد أفنديات القاهرة والذي يعمل مديرًا لمكتب أحد الوزراء عندما ذكر الأفندي أن مخدومه الوزير يتعب كثيرًا ويبذل جهدًا فوق الطاقة من أجل مصر.. يومها شاهدت كابورياتي يضحك من أعماقه لمدة ربع ساعة متصلة ويقع على الأرض ثم ينهض ويواصل الضحك، ثم ينادي أحد صبيانه «علي جندوفلي» ويقول للرجل مشيرًا إلى صبيه: إن جندوفلي يصلح لأن يستوزر ويحقق صالح الناس أفضل من وزيرك الذي يتعب من أجلنا.. ستسألني كيف، أقول لك: جندوفلي يحب الناس فلن يؤذيهم، وهو صادق بطبعه فلن يكذب عليهم، وهو لن يحج أبدًا على حساب شعب مصر لأنه لا يقبل السّحت، ولن يجرح مشاعرهم أو يعيّرهم بفقرهم، ولأنه شهم وابن بلد فلن يغلق الشوارع ويحبسهم عند مروره، ولن يغافل الناس ويبيع ممتلكاتهم، ولن يهددهم برفع الدعم، ولن يحمي الحرامية ويمنع تقديمهم للعدالة..، هذا عن الأشياء التي لن يفعلها أبدًا، أما الأشياء التي سيفعلها فأطمئنك.. لن يفعل شيئا، حسبه أن يمتنع عن «الأذية»، وهذا لعلمك أكبر مما يحلم به الناس!

الحقيقة أنني يومها أخذت بفصاحة كابورياتي واتساق منطقه وبُعد نظره، رغم فانتازية الحوار وكاريكاتوريته.

في زيارتي هذه المرة لقيت مطالب الأهالي قد زادت ورأيتهم يحملون إليه طلبات مكتوبة اعتقادًا منهم بأنه يقدمها للوزراء والمسؤولين من خلال معارفه، بعضها يطلب التعيين في وظيفة، أو المساعدة في تنكيس بيت أو استعجال عربة الكسح، وكانت أغرب الطلبات من شاب يلتمس من كابورياتي أن يتدخل ويطلب من رجال الشرطة أن يبتعدوا عن مكان العملية ويضربوه في أي موضع آخر!

كانت دعوته لي هذه المرة في بيته الذي لا يدعو إليه سوى المقربين من الأصدقاء، ولمحت في الصالة كيس رمل مما يتدرب عليه الملاكمون في الأندية، وحول الكيس أوراق ملصقة تحيط به من كل جانب. لم يفتني أن أسأله عن ماهية كيس الرمل والأوراق الملصقة به. ضحك في مودة وقال: هذه طلبات الناس التي يقدمونها لي على أمل أن أقدمها بدوري إلى بعض الوزراء. ولما كان هذا البعض لا يحل ولا يربط ولا يرجى من ورائه أية فائدة، ومفهوم أن استوزاره تم من أجل غرض واحد. سألته: أي غرض هذا يا بروف؟ قال: لا يغيب عن فطنتك أن الأشياء الطيبة التي يسمونها إنجازات

يجب أن ينسب الفضل فيها إلى السيد الرئيس. قلت له: تمام، فأضاف: أما الكوارث والنكبات فلا بد أن تجد أبًا شرعيًا يقبل أن «يشيل الليلة» وهذا بالضبط هو دور بعض الوزراء أحيانًا ودور رئيس الوزراء في أغلب الأحيان، بمعنى أن يستقبل نقمة الناقمين وغضب الغاضبين وسخط الساخطين وأن يتلقى الضربات واللعنات ويمتصها حتى لا تصل إلى فوق، ولا يهم بعد ذلك كيف يكون سلوك الوزير إزاء غضب الناس.. بعضهم يتفهم ويسامح وينعم في المقابل بالثروة والجاه، والبعض الآخر يرد على الغضب بإجراءات انتقامية في حق الناس فيتضاعف الحنق الشعبي ضده، (وهو المطلوب) وهذا يكون بقاؤه في الوزارة مضمونًا لمدة طويلة نظرًا لكفاءته في المهمة. قلت له: ياه يا ريس كابورياتي.. ما هذه التحليلات العميقة، لكني مع هذا لم أفهم لماذا تعلق كيس الرمل في بيتك على هذا النحو؟ أجاب: لأن الناس كما رأيت بعينك يستحلفونني ويأخذون عليّ العهد أن أقوم بتوصيل طلباتهم، وأنا لا أستطيع أن أحنث في القسم ولا أن أخذل أصحابي وأهلي!! في الوقت نفسه فإني أقوم بما يقدرني عليه ربنا وأحاول من خلال الحبايب أن أساعد الناس قدر الطاقة. قلت وأنا غير مصدق: أنت مدهش يا كابورياتي، أنت رجل عجيب حقًا، وأنا لا بد أن أكتب عنك حتى يتعرف القراء على صديقي الجميل: البروفيسور كابورياتي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عازف الجيتار.. منجّد أفرنجي

قرأت مؤخرًا خبرًا عن الحكم بحبس الممثل طارق النهري في القضية التي تم اتهامه فيها بالاتجار بتأشيرات السفر، والتي بدأت أحداثها عندما عرض أحد المتعهدين على المطرب مصطفى كامل أن يقوم بإحياء عدة حفلات في ألمانيا.

ثم ما كان من رفض السفارة الألمانية منح التأشيرة لمعظم أفراد الفرقة، فلما أراد المطرب أن يستفسر عن سبب الرفض عرف أن السفارة قد منحت أفراد فرقته جميعًا التأشيرات المطلوبة، وفوجئ بأن أسماء الذين حصلوا على التأشيرة هي لأناس لا يعرفهم ولا يمتون لفرقته بأية صلة!.. بعدها اتهم المتعهد الممثل طارق النهري بأنه يقوم بتسفير الشباب الراغب في الوصول لأوروبا على أنهم أعضاء فرق موسيقية نظير مبالغ مالية كبيرة. وكان طارق النهري قد صدر ضده حكم بالإدانة أيضًا في قضية مماثلة تم فيها استغلال اسم المطربة نادية مصطفى لذات الغرض.

نفس هذه الأحداث تقريبًا رأيتها بعيني وكنت شاهدًا على فصولها البايخة في مونتريال منذ عدة سنوات.. وقتها كان المتعهد يقف بالمطار ينظر إلى ساعته في قلق والطائرة توشك على الوصول حاملة المونولوجست المشهور بإلقاء النكات بصحبة فرقته الموسيقية. وكانت تذاكر الحفلات المقامة في مونتريال وتورونتو وأوتاوا قد نفذت بالكامل، والمتعهد يُمني نفسه بالأرباح المنتظرة.

كانت الأمور تسير على ما يرام بعد هبوط الطائرة إلى مطار دورفال، والركاب بما فيهم المونولوجست وفريقه يخرجون بانتظام ويسيرون في الممر المفضي إلى أكشاك الجوازات. وكان شكلهم كموسيقيين واضحًا للجميع حيث يرتدون زيًا موحدًا ويحملون آلاتهم الموسيقية. وقف أعضاء الفريق في الطابور في صف واحد واقتربوا من موظف الجوازات، ولم يعد يفصلهم عن الخروج للشارع حيث ينتظرهم المتعهد سوى خطوات، عندما جاءت مكالمة تليفونية من فاعل خير أخبر سلطات المطار أن فريق العازفين الخاص بالفنان ليسوا سوى مجموعة من الصنايعية والموظفين الذين دفعوا دم قلبهم للحصول على فيزا إلى كندا وتحقيق حلمهم بالهجرة. بسرعة تحركت سلطات المطار وقامت في هدوء باصطحاب المغني وأعضاء الفرقة إلى غرفة جانبية. في التحقيق كان المونولوجست ثائرًا وأعلن أنه فنان مصري معروف وقد حصل على التأشيرة بصورة مشروعة وطلب الاستشهاد بالسفارة المصرية وأعضائها الذين لا شك يعرفونه. لم يكن المحقق في حاجة إلى تأكيد، فالمشكلة لم تكن في المونولوجست، لكنها كانت في فرقته الموسيقية التي وردت بشأنها المكالمة الغامضة من فاعل الخير. سأل المحقق الفنان إذا كان يعرف هؤلاء العازفين. ارتبك الرجل لكنه سرعان ما تدارك الأمر بعد أن أجرى الحسبة في رأسه وقرر أن يبيعهم وينكر معرفته بهم. وطبيعي أنه لم يكن يستطيع أن يعترف للمحقق أنه اتفق مع المتعهد على اقتسام إيراد الحفلات واقتسام حصيلة بيع التأشيرات لهؤلاء المساكين فقال للمحقق: هذه أول مرة أراهم فيها. سأله المحقق: وكيف ستؤدي حفلاتك بدون فرقة؟ فذكر الحقيقة قائلًا: إن المتعهد سيقوم بإحضار عازفين من الداخل والأمر لا يحتاج إلى اصطحاب فرقة من القاهرة! كان العازفون يقفون مذهولين وفي يد كل منهم آلته التي سلموها له، فهذا معه الكمان وذاك يمسك بالعود وآخر يمتشق الأكورديون ورابع يحتضن الفلوت.. هذا بخلاف من يحملون الطبلة والدُف والرق. نظر إليهم المحقق في إشفاق وأحسست أنه يحمل بعض التعاطف للموقف الإنساني الغريب، وكأنما أراد أن يمنحهم فرصة أخيرة، فطلب من كل

واحد أن يقوم بالعزف سولو على آلته التي يحملها حتى يتأكد من كونهم موسيقيين بحق وحقيق. هنا كان المشهد الذي لن أنساه ما حييت. ساد الارتباك وبدأ العازفون المزيفون في إلقاء الاتهامات على بعضهم البعض وكادوا يتشابكون بالأيدي، لكن بعضهم أقدم في جسارة على محاولة يائسة فرأينا الرجل الذي يحمل الجيتار وكان بالمصادفة يعمل في مصر «منجدًا إفرنجيًا»، رأيناه يمسك بآلته ويبدأ في العزف. وللأمانة فقد اجتهد وهو يحاول على الجيتار أن يتمثل «نفش» بالة من القطن من التي يقوم بتنجيدها في مصر، لكن المشكلة أن الصوت الذي خرج كان كفيلًا بإلقائه في السجن، وكذلك زميله عازف العود الذي لم يعرف كيفية مسك الريشة، أما عازف الكمان فقد حاول بمنتهى العصبية أن يعزف أي شيء فقطع الأوتار وأتلف الكمان!.. أما الطبالون فقد شرعوا في الأداء، لكن المحقق أسكتهم بعدما لاحظ عددهم الكبير وأدرك أنه لا يتناسب أبدًا مع حجم الفرقة، وقد اعترفوا في التحقيق أنهم اختاروا الطبلة والرق لسهولة اجتياز الاختبار إذا ما حدث! وعلى الرغم من كوميدية المشهد وطرافته، أعترف بأنني فشلت في أن أضحك.

في هذه الأثناء كان فاعل الخير صاحب المكالمة المسمومة يقف على الرصيف في الخارج يضحك ملء شدقيه بعد أن حقق انتقامه من المتعهد والمونولوجست، وقد كان شريكًا لهما منذ البداية، لكنهما غدرا به وأرادا أن يلهطا الغنيمة وحدهما.. فكان ما كان!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

البكاء بين يدي جمالات القرد

في المرة الأولى التي رأيتها فيها لم أتمالك نفسي من الضحك. كان المشهد غاية في الغرابة.. صبي يقود عربة تريسيكل وفي داخل الصندوق تقبع امرأة كانت تشرئب بعنقها تتطلع إلى الشارع.
كنت قد انتقلت للسكنى بهذا الحي حديثًا، ولهذا فقد أفهمني ذوو الأقدمية أن هذا المنظر عادى وأن راكبة التريسيكل هي أشهر امرأة بالمنطقة. عندما استفسرت عمن تكون قالوا لي: إنها جمالات القرد!
هتفت مفزوعًا: جمالات مين؟ أجابوا جمالات القرد.. هي بالأساس دلّالة تبيع الملابس بالتقسيط، كما تتاجر أيضًا في الحلويات وخاصة العسلية، وتستخدم التريسيكل في نقل البضاعة، واعتادت أن تضع نفسها داخله ثم تملي على السائق التلميذ خط السير. قلت: لا بأس.. أكل العيش أصبح يحتاج لشغل القرود فعلا. قالوا: نعم ولكن البأس كل البأس في أن الست جمالات هي في نفس الوقت ناظرة مدرسة، وأنها تستخدم المدرسين والتلاميذ في الترويج لبضائعها، كما أنها تذهب بعربة التريسيكل إلى المدرسة في الصباح حاملة معها أصابع العسلية وأكياس الشيبسي تبيعها لحسابها في المدرسة، علاوة على هذا هي تقلي طعمية وبطاطس وتقوم بعمل سندوتشات وتبيعها في الفُسحة للتلاميذ، والغريب أن أحد الأساتذة يتولى إمساك دفاتر حسابات أبلة جمالات ومتابعة المخزون والمنصرف، وهي لا تتورع عن عمل جرد مفاجئ عليه بين وقت وآخر! قلت: لا شك أنكم تهزلون، كيف يمكن أن تكون ناظرة مدرسة ودلّالة في نفس الوقت، وكيف تتخذ من المدرسة مسرحًا لتجارتها العجيبة، وكيف تستغل التلاميذ في عملية البيع.. ألا يوجد رؤساء ومفتشون، وهل هذه المدرسة تتبع الإدارة التعلىمية لوالد الست جمالات.. الأستاذ القرد؟ وبالمناسبة هل هذا هو اسمها الحقيقي؟ ضحك القوم وأخبروني بأن هذا هو اسم الشهرة الذي أطلقه عليها زبائنها الذين ربطوا بين سحنتها وبين القردة العليا، واقتنعوا أن نظرية النشوء والارتقاء لداروين قد تعطلت في مرحلتها قبل الأخيرة فيما يخص جمالات. أما عن المفتشين والرؤساء فمن الذي يستطيع أن يتصدى لها وهي أمينة المرأة بالحزب عن الحي وصديقة القيادات وتستطيع أن تنفي أكبر شنب يفكر في التصدي لها واعتراض قوافل تجارتها أو لمس التريسيكل! وبمناسبة التريسيكل.. فقد سألت العارفين: ألا تستطيع بكل ما تحصده من مال أن تركب سيارة مثل الـ«بني آدمين»؟ قالوا لي إنها تملك عدة سيارات وكلها تاكسيات تجوب شوارع المدينة كما تملك أكثر من توك توك بالمنطقة، لكنها لا تجد راحتها إلا على التريسيكل.
سمعت الكثير من سيرة الأخت جمالات، وعلى قدر ما كان باعثًا على الضحك من غرابته، كان يثير الأسى على هذا البلد المنفلت والمندفع نحو الهاوية، إذ إن الست الناظرة كانت تفرض إتاوات شهرية على المدرسين مقابل الدروس الخصوصية ومجموعات التقوية التي يعطونها، ولم تكن تمنح إعفاء للمدرسين الذين لا يريدون إعطاء دروس، مما حدا بهم إلى التوحش مع التلاميذ من أجل جمع شهرية القرد. لم تكن كذلك ترق أو تلين لأي مصاب طارئ يلم بأحد المدرسين، والكل يذكر كيف أرغمت مدرسًا كسرت ساقه على الحضور للمدرسة يوميًا ورفضت منحه إجازة حتى يفصل القومسيون الطبي في أمره، مما جعل زملاءه يحملونه يوميًا إلى المدرسة، والأغرب أنها تقاضت منه الإتاوة الشهرية عن نفس الشهر الذي قضاه في الجبس ولم ترحم دموعه وتوسلاته!
كم هي مؤلمة حياة الناس في هذا الوطن.. إن المجتمعات الديموقراطية قادرة على تلافي أضرار الشخصيات السيكوباتية أمثال جمالات القرد وتحجيمها إلى الحد الأدنى،لأنه مهما بلغ الشر

والعدوانية بالشخص، فإن سلطاته لا تكون مطلقة، ومراجعته ومحاسبته تكون دائمًا ممكنة. لكن في ظل الاستبداد بالسلطة وغياب القانون فإن السيكوباتيين يكونون دائمًا الأقدر على تقدم الصفوف، والحصول على مواقع تتيح لهم تحقيق مكاسب فاحشة على حساب الناس مع القدرة على قهر البشر والتمتع بإذلالهم، وأنا أؤمن بأن كثيرًا من المسؤولين الذين ألحقوا الأذى بالمصريين كانوا على شاكلة الست جمالات القرد، بل كانوا مُثلًا عليا لها، وهم لا شك قد ألهموها ومنحوها أفكارًا جديدة تتعلق بالاحتكار والانفراد بالسوق ومراكمة الثروة واستغلال النفوذ، واعتبار الوظيفة مغنمًا والمرؤوسين مطايا، وممارسة التجارة مع الوظيفة والتجارة بالوظيفة.

إن جمالات القرد لا تفترق كثيرًا عن نجوم المرحلة.. فلان الوزير أو عِلّان النائب أو ترتان رئيس التحرير، فكل «يبرطع» في منطقة نفوذه وداخل حدود الإقطاعية التي وضع يده عليها، ومثلما يبكي المصريون من الأخ السيكوباتي الذي لا يستطيع أحد أن يلوي ذراعه، وزميله الملاكم السادي الذي يكره القضاة ولا يفكر إلا في إيذائهم، فإن المدرسين والتلاميذ يبكون من جبروت الناظرة الدلّالة التي تستعد لانتخابات المحليات وهي البارعة في التزوير وفي تقفيل اللجان وإلقاء الرعب في قلوب الخصوم.

ومن لا يصدقني ويتصور أن جمالات شخصية خيالية عليه أن يأتي إلى ناصية شارعنا في الصباح الباكر ليرى التريسيكل قادمًا من بعيد، ومن داخل الصندوق تظهر رأس جمالات القرد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سامانتا القبيسي وعدنان ألونزو

أسماء البشر هي عالم غريب وممتع طالما تأملته وسرحت في تفاصيله. ومع السفر ومخالطة البشر في بلاد الله اكتشفت أن أسماء الناس في كل مكان تتشابه، ذلك أن الإنسان هو الإنسان ودوافعه في اختيار الأسماء هي هي تقريبًا.. أن يضفي على ذريّته صفات الحُسن والقوة والشرف. وليس جديدًا أن عائلات بأسماء النجار والحداد والسايس والصائغ موجودة بكل اللغات، كذلك اسم مثل «نصر» بتنويعاته المختلفة ناصر ومنتصر ومنصور نجد نظيرًا له في الأسماء الأجنبية فيكتور وفيكتوريا وفيكتورينو. وليست الرغبة في التبرّك بأسماء الأنبياء والقديسين وأولياء الله الصالحين قاصرة على شعب دون شعب.. في الغرب يسمون كريستيان وكريستين وكريستوفر وخريستو كتنويعات على اسم كرايست (السيد المسيح)، كذلك ماري ومريم وماريا وماريكا على اسم السيدة العذراء، كما يسمون جون وجوني وجونسون ويوهان ويوهانسون وكلها مشتقة من اسم يوحنا.. وفي عالمنا العربي تشيع أسماء محمد وأحمد ومحمود كما تشيع أسماء الصحابة وآل البيت وأشهرها حسين وحسن وعلى وزينب وخديجة وعائشة.

ومن الأشياء الجديرة بالملاحظة أن أسماء القديسين تشكل أكثر من خمسين بالمائة من أسماء الشوارع بعواصم الغرب العلماني! كما أن لقب قديس قد أطلق دون وجه حق على بعض القتلة والسفاحين ممن أوغلوا في دماء العرب في فترة الحروب الصليبية على سبيل المكافأة! وبهذه المناسبة أود أن أسأل الذين أطلقوا اسم «ألبرت الأول» على أحد الميادين في منطقة سموحة بالإسكندرية، كذلك اسم «إدموند فريموندو» على شارع بنفس المنطقة، وذلك خشية أن يكون الرجلان لا سمح الله من الأعداء ونحن لا ندري! وإذا اتضح أنهما من الحبايب فلماذا نكتفي بألبرت الأول فقط ولا نخلد ذرية ألبرت كلها، وكذلك آل فريموندو الطيبين!

هذا وقد كشفت الأيام لي عجائب في دنيا الأسماء، فعندما كنت أقضي فترة التجنيد التقيت بأكثر من زميل يحمل اسم «عطيتو» وكانوا كلهم صعايدة يتسمون بالصلابة والرجولة، وبعد فترة التجنيد لم أصادف الاسم في أي مكان، كما افتقدت جدعنة أصحابه! وأذكر أثناء العدوان الإسرائيلي على لبنان في صيف ٢٠٠٦ أن المتحدث الإسرائيلي الذي كان يلقي البيانات كان فتى صغيرًا اسمه «أفيخاي أدرعي».. الولد كان شكله لطيفًا، لهذا فقد استهولت أن يكون اسمه «أفيخاي»، ورأيته يستحق أن يكون تامر أو هيثم أو على الأقل لؤي، لكن ظروف النشأة في إسرائيل جعلت منه «أفيخاي».. وربما من حُسن حظ إسرائيل أن «أفيخاي» لا يتهرب من التجنيد على العكس من تامر وهيثم!

وعندما كنت أعيش في كندا، كان ابني الصغير يأتي إلى البيت بعد المدرسة وفي صحبته نصف الفصل تقريبًا، ولدى رؤيتي لهم للمرة الأولى سألته في دهشة: أليس في فصلكم كنديون على الإطلاق؟ فرد في دهشة أشد: كلهم كنديون يا بابا! سبب السؤال أن الأولاد والبنات كانوا خليطًا من الزنوج والهنود والآسيويين واللاتينيين والعرب. وكانوا يحبون المجيء إلى بيتنا حيث اكتشفوا أن هذا البيت على غير العادة في مونتريال يقدم للضيوف طعامًا وشرابًا بدون مناسبة! وكنت أحب أن أجلس معهم وأتأمل العالم الذي أتى منه كل منهم قبل أن تستقبلهم كندا. لكن أغرب ما وجدته لديهم هو أسماؤهم، بعضهم حمل أسماء طبيعية عندما كان الأب والأم من نفس البلد، والبعض الآخر كان اسمه مزيجًا بين الأم والأب، والنتيجة بالنسبة لي كانت مثيرة للضحك فعلى سبيل المثال.. سامانتا القبيسي..

لم أتخيل يومًا أن أسمع اسمًا كهذا، لكن في كندا كل شيء ممكن.. كانت طفلة جميلة من أب مصري مهاجر وأم كندية. كذلك هناك بدرية جوناثان، طفلة حلوة الملامح، الأم جزائرية وقد أصرت على تسمية ابنتها على اسم أمها، والأب الأيرلندي لم يعارض.. كنت أفهم بدرية حين تحدثني بالفرنسية ولا أفسر جملة واحدة من حديثها.. العربي! ومن الملاحظ أن اعتبارات الدين والعرق قد تلاشت إلى حد كبير في المجتمع هناك وصار أي أحد يتزوج من أي أحد! وهذه كانت ولا تزال إحدى مشكلات المهاجرين المسلمين الذين تركت بعض هذه الزيجات جراحًا غائرة في نفوسهم عندما تركت البنت البيت وتزوجت أو عاشت مع من أنست إليه! كذلك كان هناك صديقي الصغير الذي يهوى الغناء عدنان ألونزو.. طفل رائع، أمه فلسطينية وأبوه مكسيكي، كنت أحبه وأردد معه أغنيات فيروز التي يسمعها في بيتهم. ولا يمكن أن أنسى أبدًا صديقي السمين زيليان أيوب، وهو طفل صيني الملامح أمه سنغافورية وأبوه من أصل يمني، كان يحب الطعام المصري ويأكل بشراهة، وكانت والدته تأتي لاصطحابه فيأبى الذهاب معها إلا بعد أن تعده بأن تسمح له أن يأتي في الغد ليأكل كفتة ومحشي!... ترى كيف هم الآن أصدقائي الصغار زيليان أيوب وسامانتا القبيسي وعدنان ألونزو؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

البهجة في صباح.. بايخ

في أول يونيو الماضي تلقيت مكالمة من شخص مهذب قدم نفسه بأنه مُعد بقناة النيل للمنوعات. أثنى على شخصي الضعيف وأخبرني أنه أعجب بكتابي «مصر ليست أمي.. دي مرات أبويا» أيما إعجاب، ولهذا فإن برنامجه يتشرف باستضافتي لمناقشة الكتاب. قلت له: سأكون صريحًا معك، برنامجكم كما أخبرتني يذاع على الهواء الساعة السابعة صباحًا، ومن المستحيل في مثل هذه الساعة أن تحصل مني على جملة مفيدة، عدا أني أعتقد أن هذا الجهد سيكون بلا طائل لأن أحدًا تقريبًا لن يشاهده، فقناتكم ولا مؤاخذة لا تملك عناصر جاذبة في مواجهة القنوات الخاصة وبالذات برنامج صباح دريم الذي يذاع في نفس الوقت. قال الشاب: لقد تطورت القناة بشكل كبير وأعدك بأن الحلقة ستكون متميزة وستحظى بنسبة مشاهدة عالية. قلت له: بما أننا اتفقنا على الصراحة سأزيدك بأن تجاربي مع البرامج التليفزيونية التي تكرمت باستضافتي للحديث عن الكتاب لم تكن كلها مرضية، فمن بين أكثر من ٢٠ لقاء أدهشني أن خمسة منهم فقط قد قرأوا الكتاب، أما الباقي فكانوا يسألونني أسئلة غريبة، وكنت من خجلي أضطر لمجاراتهم وأخفي امتعاضي من الخفة والاستسهال. وأكملت: اعذرني لن أستطيع. فقال: سأقرأ الكتاب وأمامنا وقت كاف قبل التسجيل لأكون قد أعددت أسئلة جيدة، والبرنامج لعلمك ينقسم إلى قسمين؛ جزء سنقوم بتسجيله عندك في البيت والجزء الآخر سيكون على الهواء بالاستوديو. بعد طول إلحاح استسلمت ووافقت. في اليوم الموعود للتسجيل حضر فريق من البرنامج يضم عشرة أشخاص إلى بيتي، وانتشروا في الشقة وبدأوا يعدلون من وضع المقاعد ويتخذون زوايا للتصوير، ودارت الكاميرا، وللحق كانوا مجموعة من الشباب في غاية الروعة والتهذيب، وانتهت نصف المهمة على خير. مر شهر يونيو وشهر يوليو دون أن أسمع منهم فحمدت ربنا أنهم نسوني. لكن في شهر أغسطس تلقيت مكالمة من المُعِد الشاب وكان قد أصبح صديقًا بفعل العِشرة. قال: استعد يا أستاذ سنقوم بالتصوير هذا الأسبوع. قلت له: وأين كنتم طوال الشهرين الماضيين؟ قال: شوية لخبطة وانتهت وسنتصل بك قريبًا. مر شهر أغسطس وانتهى الصيف، ودخل سبتمبر ومعه رمضان، وانقضى سبتمبر ودخلنا في أكتوبر ونسيتهم تمامًا. وفجأة تلقيت مكالمة من المُعِد الذي صاح متهللًا: خلاص يا أستاذ حلقتنا يوم السبت القادم. قلت له: سيبني في حالي يا ابني وخلّيني أربّي العيال. قال: والله العظيم كل شيء جاهز. قلت له لن أحضر مهما فعلت. قال: أنا أطلب منك هذا لأجل خاطري لأني وعدتهم أنك ستحضر وهناك مُداخلة تليفونية مهمة اتفقنا عليها وأثق أنها ستسعدك. قلت له: مداخلة مع من؟ قال: مع الأستاذ بلال فضل وقد أبدى ترحيبًا كبيرًا. قلت له: أنا سأكلم بلال وسأبلغه اعتذاري. قال: حضرتك لا تعرف أهمية هذه الحلقة بالنسبة لمستقبلي، علشان خاطري.. أرجوك. رغم ضيقي الشديد وجدت نفسي في النهاية أضعف وأوافق كارهًا. ما كاد ينتزع الموافقة حتى قال لي: الفريق الذي سيسجل معك في البيت سيحضر إليك غدا في المساء. قلت له: نعم يا حبيبي؟ أما سجلتم معي جزء البيت من قبل؟. قال: لقد مضت شهور ولا نعرف أين مكان الشريط!!. كان اليأس قد نال مني فقلت له: افعل ما تشاء. حضر الشباب للمرة الثانية وكررنا نفس التمثيلية وقاموا بالتصوير وانصرفوا على أن نلتقي صباح اليوم التالي على الهواء. كنت عندهم في الميعاد وهناك نظرت لوجهي في المرآة فلم يعجبني ما رأيت.. حاولت أن أرسم ابتسامة وأن أصرف الامتعاض الواضح ففشلت. جلست في غرفة الانتظار التي كانت تغص بالضيوف، وشاهدت الحلقة

المملة كاملة، ضيف ورا ضيف ورا ضيف. سألتهم: أنا دوري النهاردة؟ قالوا: أنت مِسك الختام. بعد قليل دخلت الاستوديو. قالوا: سنبدأ بعد ثوانٍ. قلت: ألن تبدأوا بالفقرة التي سجلناها بالبيت: قالوا: معلش مافيش وقت سنكتفي بالهواء!!. كدت أبكي كمدًا، وبدأ المذيع الشاب: مصر ليست أمك.. لماذا؟ قبل أن أفتح فمي كانت زميلته الرقيقة قد أجابت على السؤال بدلًا مني واستمرت: نعلم أن مصر بها بعض المشكلات، لكن النماذج الإيجابية موجودة، ويكفي أن لدينا الدكتور زويل و.. و.. بعد أن فرغت من المونولوج الطويل قلت لها عامدًا وضاربًا كرسي في الكلوب: نعم أنا أحب الدكتور زويل العالم الأمريكي العظيم. قال المذيع: الدكتور زويل مصري ويفخر بمصريته. قلت له وقد أخذ الغضب يزول وبدأت أنتشي: أنا أقصد أن الدكتور زويل حقق تفوقه العلمي ونجاحه بفضل فراره من مصر ولو كان قد بقي لما استطاع حتى أن يحصل على جائزة اتحاد الإذاعة والتليفزيون! ثم أتبعت إجابتي بضحكة مجلجلة. امتقع وجه المذيع وتلعثمت المذيعة ووضح لي أنهما يستمعان في سماعة الأذن إلى توبيخ وتعليمات فورية بإنهاء الحلقة. فقالوا: نشكر الضيف ونرجو أن تكونوا... إلخ.

خرجت إلى الشارع وضحكاتي تشق الفضاء وللمرة الأولى أشعر بالبهجة في هذا الصباح... البايخ!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شومبونجو

ولم تزل أمامنا صفاته
غباؤه
وطبعه وضيع
ونصف ما يقال عن أخلاقه
مزور
وكل ما يقال عن ذكائه تلميع
وآية على غبائه بأنه
غدا موزرًا في مرة مخنثًا
وتارة
مشيخًا فضيلة الخليع

عبد الرحمن يوسف

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أفضل من البقرة

في المرة الأولى التي خاطبني فيها القنصل المصري قائلًا: يا أسامة بك.. تسمرت مكاني للحظات ثم لم أتمالك نفسي من إطلاق ضحكة مكتومة، أعقبها أنني انطلقت إلى الحمّام مستأذنًا حتى أستطيع أن أضحك من قلبي على هذا الرجل الطيب الذي رأى فيّ ما لم أره في نفسي أبدًا!. لم تكن دهشتي راجعة إلى سوء تقديري لقيمتي أو إحساسي بالضآلة. بالعكس فقد كنت أحوز مركزا مرموقًا يجعل الجميع يتسارعون للزلفى وطلب الود. ولكن كان السبب هو الأفكار التي عشت مؤمنًا بها عن العدل والإخاء والمساواة، حتى أنني ذات مرة وكنت في زيارة لأختي، وكانت قد أحضرت شغّالة ريفية صغيرة تساعدها في البيت.. تقدمت مني البنت وسألتني في استكانة: تشرب إيه يا سيدي؟ فقلت لها جادًا: أنا لست سيدك ولا أحد في هذه الدنيا سيدك، ولا يجب أن تسمحي لأحد أن يحط من قدرك. بعد هذه الخطبة أصبحت البنت تخاطب الناس جميعًا بـ يا سيدي ما عداي وبدأت تعاملني بندية تقترب من الاستهانة!

كنت قد وصلت إلى البلد العربي لتسلّم عملي به، وكان هذا أول احتكاك لي بالسادة الدبلوماسيين المصريين بالخارج، وأدهشني أنهم جميعًا كانوا يعتبرون أنفسهم بكوات، وينادون بعضهم البعض هكذا على الدوام، مثلهم في هذا مثل ضباط الشرطة ورجال القضاء والنيابة الذين يتسلمون اللقب مع جواب التعيين. وربما كان السبب في هذا أنهم استهولوا أن يستأثر باللقب الأثرياء من التجار ورجال المال والأعمال والكثير منهم مشكوك في مصادر ثروته.

ولما كان السادة الدبلوماسيون لا يأمنون للمغامرين من أمثالي الذين قد يتهورون ويستخدمون في مخاطبتهم لفظ أستاذ.. هذا اللفظ الكريه الذي يمقتونه ويزدرونه ويرون أنه لا يليق بأعضاء الهيئة الدبلوماسية، فقد كانوا يبادرون بمنح المتهور نفسه لقب بك كأنه «سهم المؤلفة قلوبهم» يمنحونه لمن كان حديثًا في الكار حتى يستقر الإيمان في قلبه بأهميتهم واستحقاقهم لأن يكونوا بكوات دون لبس. وفي هذا السياق فقد حصلت على اللقب. لكنني مع ذلك ظللت فترة من الزمن مرتبكًا وشاعرًا بالحرج وأنا أتخيل نفسي أحكي لأصدقائي من الصعاليك وحرافيش المثقفين حكاية بك هذه!. وقد حدث بالفعل أنني رويت على القهوة هذه الطرفة أثناء إحدى الإجازات بالقاهرة فضحك الأصدقاء وبشروني بأنني لم أعد منهم بعد الآن، لكن أحدهم احتدّ بشدة، واتهمني بأنني استطبت الترف واستسلمت لغواية اللقب الناعم وبعت القضية بمليم! وعلى الرغم من أنني لم أكن قد اشتريت قضيته أبدًا فقد أحزنني ظنه أنني بعتها!

كان الشيء الذي أدهشني أكثر في اقترابي من عالم البعثات المصرية في الخارج سواء سفارات أو قنصليات أو مكاتب تجارية وعمالية وثقافية وسياحية.. ذلك التمييز الفظيع الذي لمسته بين شاغلي الوظائف الدبلوماسية وشاغلي الوظائف الإدارية من العاملين بنفس السفارة، بالرغم من كونهم جميعًا حاصلين على مؤهلات جامعية، لكنهم مع هذا قد انقسموا إلى ما يشبه الضباط وأمناء الشرطة، فصار الدبلوماسيون بكوات، أما شاغلو الوظائف الإدارية فهم.. مجرد أساتذة!. وكان مما أثار امتعاضي الشديد أن هذه الطبقية المقيتة لم تكن تقتصر على موظفي السفارة والقنصلية أو المكتب وحدهم، لكنها كانت تمتد كذلك إلى زوجاتهم، وكم أحزنني أنني رأيت سيدات فضليات يتمتعن باللباقة والحضور والثقافة تبدين كأنهن وصيفات في حضرة سيدة جاهلة ومتغطرسة، كل مؤهلاتها أن السيد بعلها قد

سافر للخارج بواسطة، وصار رئيسًا لزملائه! وكثيرًا ما رأيت بعيني واستمعت بأذني إلى السخرية والمعاملة الفظة التي تتعرض لها زوجة مرؤوس خاصة إذا كانت جميلة وذكية ومثقفة، في الوقت الذي يقف زوجها مبتسمًا في بلاهة، وأحيانًا مؤيدًا لمن تهين زوجته!! وربما لهذا السبب لم أتحمس أبدًا لاصطحاب زوجتي لحضور المناسبات المختلفة التي كنت أُدعى إليها خشية أن تتعرض لسخافة من إحدى الحيزبونات.. الأمر الذي كان سيضطرني إلى إهانتها هي وزوجها واللي مشغلينه!

في ذلك الوقت قرأت حوارًا لصدر الدين أغاخان زعيم الطائفة الإسماعيلية في إحدى المجلات وكان السائل يستنكر عليه وهو الرجل المثقف أن يترك بعض أتباعه يعتقدون بألوهيته، ويتركهم يقدسونه ويتبركون به، دون أن يحاول أن يفهمهم أنه مجرد إنسان لا يفترق عنهم، وأنه ليس مقدسًا ولا محصنًا. كان رد الأغاخان عجيبًا.. قال للصحفي: لعلك تعلم أن كثيرًا من الناس في منطقتنا الجغرافية يعبدون البقر ويقدسونه، وأتصور أنني أفضل قليلًا من البقرة!!

هذا الحوار حسم الأمر عندي وجعلني أفلسف الأمر وأبدأ في تقبّل اللقب دون غضاضة، فشرعت في تعويد نفسي عليه دون أن أضحك عندما أسمع أحدًا يناديني به، وكنت في هذا متأسيًا بالأغاخان، وظللت أذكّر نفسي دائمًا عندما ألمح منها شبهة تمرد بأنني في كل الأحوال.. أفضل من البقرة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صديقي.. والدكتور نابلسي

كنت بصحبة أحد الأصدقاء على الطريق الصحراوي عائدين من إسكندرية، وراديو السيارة يذيع برامجه وأغانيه، عندما بدأت تتوالى مجموعة من الإعلانات كلها ذات طابع واحد: إذا كانت لديك مشكلة قانونية وتريد الرأي الصائب.. اتصل برقم كذا تحصل على الإجابة الفورية من الأستاذ مغاوري. إذا كنت تعانين من مشكلة تتعلق بجمالك وحيوية بشرتك أو تسريحة شعرك، اتصلي بتليفون كذا تجيبك خبيرة الجمال مدام نانا. إذا أردت فتوى دينية في أمر يشغلك اتصل يرد عليك الشيخ بهادر بما يسعد قلبك ويطمئن خاطرك. لمعرفة أجمل الوصفات لأشهى الأكلات اتصلي بالشيف مرجان ليصنع معك أحلى عزومة. إذا كنت تشعر بضيق وتمر بأزمة نفسية، أو كان الخوف يسيطر عليك اتصل بالهاتف النفسي من أي تليفون أرضي أو محمول، يرد عليك الدكتور نابلسي ويخلصك من الهم الذي تحمله ويبعد عنك شبح الاكتئاب.. سعر الدقيقة ١٥٠ قرشا.

عند انتهاء الإعلانات فوجئت بصديقي يمسك بهاتفه المحمول ويطلب نمرة. سألته ماذا تفعل؟ هل ستطلب خبيرة الماكياج أم طريقة عمل الشركسية؟. فقال ضاحكا: أنا أريد أن أجرب الدكتور نابلسي لأرى ماذا يقول للمهمومين الذين تحاصرهم الأحزان مقابل الفيزيتا التي يحصل عليها من شركة التليفونات مخصومة من رصيدي. قلت له: وهل تتوقع أن يقول شيئا ذا قيمة؟ أجاب: دعنا نتسل.. سأتظاهر بأنني تعبان وأحتاج لمشورته وأؤكد لك أننا سنضحك عليه، ثم فتح المايك.. ترررن ترررن آلو الدكتور نابلسي؟ أيوه يا أفندم سلامتك، خير تعبان من إيه؟ صديقي: يا دكتور نابلسي أنا وقعت في طابور العيش ورجلي اتكسرت وحالتي النفسية سيئة. د نابلسي: ألف سلامة يا حبيبي، شدة وتزول بإذن الله. صديقي: ولما رحت أفك الجبس اتزحلقت في قشرة موز ورجلي التانية اتكسرت. د نابلسي: كل ده في ميزان حسناتك إن شاء الله، والحمد لله إن إيديك سليمة. صديقي: أبدًا يا دكتور إيديا الاتنين متجبسين من وقعة الشهر اللي فات. نابلسي: عموما يا ابني المؤمن منصاب وبكرة تبقى زي الفل. صديقي: وكمان حماتي وقعت وماتت وهي بتغسل الهدوم على شاطئ الرشاح. نابلسي: والرشاح دا فين يا ابني؟ صديقي: في الخصوص يا دكتور. نابلسي: والخصوص دي فين. صديقي: أول محطة بعد العموم يا دكتور. نابلسي: إيييه.. دنيا، كلنا لها يا ابني والزعل مايجيش منه.. شد حيلك انت راجل وإن شاء الله تكون آخر الأحزان. صديقي: وأخويا جاله تسمم من أكلة فسيخ في شم النسيم. نابلسي: بكرة يخف ويقوم زي الحصان، سلمها لله. صديقي: والأسعار يا دكتور.. أعمل إيه في الأسعار، المارون جلاسيه فلت عياره وبقى في السما، وزجاجة الكورفوازييه الأصلي أصبحت غالية نار. نابلسي: خلي أملك في الله كبير، بكرة كل شيء يرجع لسعره الأصلي وناكل مارون جلاسيه ونشرب ونفرفش زي زمان. صديقي: ووقية الكمّون في بورصة لندن أصبحت بالشيء الفلاني يا دكتور نابلسي والناس هناك محتاسين ومش عارفين يعملوا كمّونية. نابلسي: صلي ع النبي وماتفكرش ف لندن.. خلينا في مصر، فيه حد هنا مزعلك؟. صديقي: كل شيء حلو هنا يا دكتور ومع ذلك لا أستطيع أن أتخلى عن واجبي نحو إخوتي في الإنسانية.. الحزن يقتلني يا دكتور نتيجة للمذابح اللي ارتكبها التوتسي ضد الهوتو في رواندا. نابلسي: الدنيا مليانة بلاوي يا ابني، أكتر من كدة ويزيح ربنا. صديقي: وكمان يرضيك يا دكتور نابلسي اللي عملوه الخمير الحمر في كمبوديا؟ نابلسي: لا يا ابني اللي عملوه دا شيء ما يرضيش ربنا أبدًا، لكن اطمئن ربك يمهل ولا يهمل. صديقي: يا دكتور نابلسي

أنا عندي أرق والنوم جافاني.. جربت كل الحبوب المنومة ومافيش فايدة. نابلسي: جرب تلعب رياضة يا ابني أو مارس هواية مفيدة.. ارسم، اكتب شعر. صديقي: أنا بالفعل أكتب شعر، تحب أسمعك أشعاري؟ نابلسي: قول يا حبيبي واشجيني. صديقي: موعود معايا بالعذاب موعود.. دخلت بيتكم لقيته كله قرود. نابلسي: الله يابني قول كمان. صديقي: دا مجرد مطلع القصيدة ولما أنتهي منها ستكون أول من يسمعها. يا دكتور أنا حزين جدا وصرت أضع كل همي في الأكل وأصبحت في وزن الفيل. نابلسي: بتاكل إيه يا ابني؟ صديقي: النهاردة على الغدا أكلت صينية مكرونة بالبشاميل مع بطة محمرة. نابلسي: أكلت الصينية كلها والبطة كلها؟ صديقي: أيوه يا دكتور. نابلسي: عمومًا بالهنا والشفا ومطرح ما يسري يمري لكن الحرص مطلوب وحاول في العشا تاكل حاجة خفيفة. صديقي: أنا عندي نُص جمل مشوي موجود في الثلاجة سآكله في العشا. نابلسي: أوكي يا ابني لكن خد بعده سلطانية زبادي مع ملعقة عسل. صديقي: طب كفاية كدة يا دكتور نابلسي علشان أنا كنت باعمل عليك فيلم وباشتغلك وطلعت كروديا وشربتها يا ابن اللذيذة. الدكتور نابلسي وهو يضحك للمرة الأولى: بالعكس يا حبيبي، أنا اللي اشتغلتك وخدت فلوسك يا ابن العبيطة!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أصبح عندي الآن بندقية وفزدقية.. وملبن

كنت أتمشى بالعاصمة التونسية ذات مساء عندما لمحت لافتة لشارع كبير تحمل اسم «الحبيب تامر». ولما كنت لا أعرف من يكون الحبيب تامر فقد ظننت أن «الحبّوب» تامر حسني هو المقصود. لكن عندما سألت أصدقائي التونسيين عرفت أنه أحد المجاهدين الذين قادوا النضال ضد الاحتلال الفرنسي في فترة الثلاثينيات والأربعينيات، وعرفت أيضًا أن التونسيين يحملون له قدرًا كبيرًا من التقدير والاحترام. عندها فكرت أن أذهب إلى قبره وأقرأ الفاتحة لروحه الطاهرة وأقدم له اعتذاري عندما خلطت بينه وبين المطرب تامر حسني الذي يطلق عليه محبوه في المنتديات اسم الحبيب تامر!

في هذا الوقت كان الحبيب تامر (المصري) يمر بظروف صعبة بعد أن تم القبض عليه وتقديمه للمحاكمة نتيجة تزويره لجواز سفر وتهربه من أداء الخدمة العسكرية الأمر الذي أدى إلى الحكم عليه بالسجن لمدة عام وتشريفه في «الكلوب» لقضاء المدة. وكانت الفتيات والسيدات العارفات لقيمته الفنية يذرفن الدمع الهتون (حلوة الهتون دي) لهفًا عليه وإشفاقًا من حياة السجن الخشنة التي لا يحتملها الشاب تامر. دفعتني المفارقة المتعلقة بتشابه الأسماء إلى البحث عن معلومات عن المجاهد الوطني التونسي الحبيب تامر فعرفت أنه ولد بالعاصمة التونسية لعائلة عريقة معتزة بجذورها العربية والإسلامية، وتعلم في المدارس التونسية ثم سافر إلى فرنسا لدراسة الطب وتخصص في الأمراض الصدرية وحصل على الدكتوراة عام ٣٨ وكانت عن مرض السل وذلك لأجل أن يعود لعلاج فقراء بلده الذين ينهشهم ذلك المرض. عرفت أيضًا من خلال البحث أن الحبيب تامر ساهم في تأسيس جمعية شباب أفريقيا التي كانت تأخذ بيد الطلاب العرب القادمين إلى فرنسا للدراسة، ثم عاد إلى الوطن ليبدأ مع رفاقه رحلة النضال ضد المستعمر الفرنسي، فتم القبض عليه وحُكم عليه بالسجن لمدة عشرين سنة، ولم ينقذه من السجن سوى دخول قوات المحور إلى تونس عام ١٩٤٢. أتى الدكتور الحبيب تامر إلى مصر ليلحق برفاقه المناضلين الذين سبقوه وأخذ يكتب بالصحف المصرية ثم وضع كتابًا أرّخ فيه للحركة الوطنية التونسية كان عنوانه «هذه تونس». ورغم غيابه عن أرض الوطن فقد تم انتخابه رئيسا مساعدا للحزب الحر الدستوري التونسي اعترافًا له بنضاله ووطنيته الصادقة. ثم يشاء الله أن يلقى حتفه في حادث تحطم طائرة بينما كان عائدا بعد تمثيل بلاده في مؤتمر بباكستان عام ١٩٤٩.

مضت سنتان منذ زيارتي الأخيرة هذه إلى تونس، وخرج تامر حسني من «الكلوب» بعد أن كفّر عن ذنبه ودفع الثمن. ومع هذا كل مرة أشوفه فيها أبقى نفسي أحكي له عن المجاهد التونسي الدكتور الحبيب تامر وأروي له سيرة حياته. ولا أنكر أنني أتضايق أحيانًا عندما أتذكر أن المناضل الكبير لم يحظ بالحسناوات ودموعهن الساخنة عندما ألقاه الفرنسيون في السجن، ولم تحمل البنات من أجله اللافتات المكتوب عليها.. تامر كلنا بنحبك، ولم ترفرف القبلات المعطرة فوق زنزانته.. يمكن بسبب أن العصر غير العصر، ويمكن لأن المناضل التونسي اعتاد أن يقفل زرايز القميص كلها!

منذ عدة أسابيع أثناء انعقاد منتدى دافوس الاقتصادي بشرم الشيخ أقيم حفل ساهر كبير بمناسبة الحدث، قام بإحيائه تامر حسني. وقرأنا صباح اليوم التالي أن الدكتور أحمد نظيف رئيس الوزراء خاطب تامر أثناء الحفل وقال له: أنت قدوة للشباب ونحن فخورون بك. أردت بعدها أن أتصل

بالدكتور نظيف لأؤكد له أننا نعتبره هو أيضًا قدوة للشباب وأننا فخورون بسيادته لأنه فعل بهذا الوطن أشياء لا يقدر عليها سواه، ويكفي أنه وصل إلى أرفع المناصب السياسية في مصر دون أن يكون مهتمًا بالسياسة في أي وقت حتى بعد أن أصبح رئيسًا للوزراء!

بينما كنت أقرأ تصريحات نظيف عن المطرب تامر وقيمته لهذا الوطن، تذكرت المناضل التونسي وتساءلت كيف كان يصف الدكتور أحمد نظيف هذا الرجل لو أنه سمع به وعرف تضحياته لوطنه وكفاحه ضد الاحتلال؟. وبالمصادفة كانت أم كلثوم تصدح في الراديو ساعتها برائعة نزار قباني الوطنية الشهيرة «أصبح عندي الآن بندقية.. إلى فلسطين خذوني معكم. إلى رُبى حزينة كوجه مجدلية.. إلى القباب الخضر والحجارة النبية». لا أدري لماذا أحسست ساعتها بسخافة الأغنية التي عشت عمري أحبها، شعرت أنها تناسب أناسًا آخرين وأيامًا مختلفة ودنيا غير التي نحياها، وضحكت رغمًا عني عندما تخيلت تامر حسني يغنيها بدلًا من أم كلثوم بعد أن يستبعد تمامًا موضوع البندقية التي تتنافى مع ثقافة السلام وجو شرم الشيخ المخملي وقد تجلب لنا تهمة العداء للسامية، ووجدت من الممكن استبدالها ببندقية من نوع آخر «حلو» يناسب المرحلة فتكون: أصبح عندي الآن بندقية وفزدقية وحُمصية.. وملبن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القراءة للجميع.. والكتابة أيضا

كنت زمان أتصور أن الإنسان لكي يثقف نفسه عليه أن يقرأ كثيرًا وفي كل الفروع، وكنت أظن أنه كلما كانت القراءة عسيرة وتحتاج إلى بذل جهد كبير للفهم والاستيعاب كلما كان المردود في المستقبل كبيرًا، وكنت أرى أن الذي يصنع منك مثقفًا هو قدرتك على احتمال كتابات ليست ممتعة ولا مسلية ولا مبهجة. من أجل هذا فقد عانيت طويلًا مع كتب تحمل قدرًا كبيرًا من الملل والكآبة والإبهام معتقدًا أن العيب لا شك فيّ أنا، وأن جهاز استقبال الثقافة الرفيعة عندي يحتاج إلى تسليك، وأن هذا التسليك لا يتم إلا بقسر نفسي وإرغامها على احتمال ما تكره، في انتظار اليوم الذي أقرأ فيه روايات مملة فلا أشعر بالملل ومقالات غير مفهومة فلا أشعر بالضيق، وقصائد لا تُمتع حتى صاحبها فلا ألعن صاحبها.. هنا يمكنني أن أعلن لنفسي أنني اليوم قد أصبحت مثقفًا!

ولو عادت بي الأيام إلى الوراء لوفرت آلاف الساعات التي قضيتها بصحبة أشياء لا أحبها ظنًا مني أنها جيدة وأنني قاصر عن بلوغ المتعة فيها بسبب جهلي.

طبعًا لا يتناقض ما أقوله مع إيماني بأن الثقافة الرفيعة تحتاج إلى الدأب للارتقاء إلى مستواها والاستمتاع بها، وأن الكتابات الجادة والموسيقى الرفيعة لن تحمل المتعة إلا لإنسان يستحقها، لكن مقصودي هو أن الكتابة والموسيقى والفيلم لن تكون جيدة وهي تحمل مضمونًا ينهك النفس ويجهدها فلا تقوى على استقبال المغزى من فرط التعب!

لقد أصبحت أؤمن أن الكتابة الجيدة هي الكتابة الممتعة التي تسلي وتنعش النفس وتبهج الروح أيا كان الفرع الذي تنتمي إليه.. قصة،رواية، مقالًا، قصيدة، موضوعًا فلسفيًا، اقتصاديًا، اجتماعيًا، سياسيًا. ولهذا أصبحت أستمتع بالقراءة أكثر بكثير من ذي قبل لأن الانتقاء والانتخاب صار هو القاعدة، ولم تعد تؤثر بي حملات الدعاية والعلاقات العامة التي يقوم بها البعض على صفحات الجرائد والمجلات لكُتاب بعينهم وشعراء بعينهم ليسوا أفضل الموجود لكنهم الندماء في جلسات الشراب والأنس والنميمة، والشركاء في البيزنس!

لكني مع قدرتي اليوم على الفرز والاختيار أصبحت في مأزق، بإمكاني طبعًا أن أختار من الكتب ما أحب وأهوى، لكن المشكلة الحقيقية هي في الصحف، إذ إن ٩٠ بالمائة مما أراه منشورًا اليوم لا يستحق سوى صفيحة الزبالة، وتأثيره على القارئ سيئ بكل تأكيد.

فعندما تمسك الصحف وتعرج على صفحات الرأي يهولك العدد الكبير من المقالات في كل صحيفة وكأن المسألة أصبحت موضة. فإذا نحينا جانبًا صحف الحكومة لأنها في الغالب لا تستكتب سوى الأراذل، ونظرنا إلى الصحف المستقلة لرأيناها لا تختلف عن صحف الحكومة في النوع وإنما قد تختلف في الدرجة. نفس السخافة ونفس الجهل الذي ينضح من بين السطور، نفس الاستظراف والمجاملة ومحاولة تحقيق مكاسب شخصية لا يجتهدون حتى في إخفائها. والمرء يحتار عندما ينظر لأسماء من يكتبون.. تسألهم من هذا؟ يقولون لك: هذا صديق لرئيس التحرير من أيام الحارة ويكتب من باب الوفاء! ومن هذا؟ يقولون: هذا الرجل يقوم بعمل طواجن لحمة بالفرن لا مثيل لها وفي الوقت نفسه يهوى الكتابة. ومن هذه؟ يقولون: هذه أرملة تشعر بالوحدة وتجد السلوى في كتابة المقالات فلا بأس أن ننشر لها!. ومن هذا؟ هذا من ضمن الخمسة بالمائة معوقين الذين يفرض القانون تعيينهم! ومن هذا؟ هذا من أبناء الشهداء وقد كان والده من أبطال حرب البسوس. ومن هذه؟ هذه مطلقة تعول

طفلين ويجب مساندتها. ومن هذا؟ هذا أحسن واحد يرقص بلدي في حفلات الكبار ويطلبونه بالاسم في مارينا. ومن هذا؟ هذا هو المعبّر عن فكر صاحب الجريدة والمترجم الأمين لرؤاه وافتكاساته. ومن هذا؟ هذا شرطي مفصول لسوء سلوكه.. آويناه وعلمناه صنعة بدلًا من أن يحذو حذو محسن السكري! ومن هذه؟ هذه الحسناء يسعى الرجال في أثرها، ونحن نحصّنها بالكتابة حتى نبعدها عن سكة الغواية! ومن هذا؟ هذا مندوب القلم المخصوص في الجريدة، يعمل بالمباحث لكنه صاحب فكر! ومن هذا؟ هذا مذيع بالتليفزيون.. هو ثقيل الدم حقًا لكنه يستضيفنا في برنامجه من وقت لآخر. ومن هذه؟ هذه أيضًا مذيعة، لكنها واصلة.. نحن نعلم حجم سخافتها لكننا باستكتابها نتقي شرها. ومن هذا؟ هذا ابن عم مدير التحرير.. عنده مطعم فول وطعمية لكنه يحب أن يرى اسمه مطبوعا في جورنال. ومن هذا؟ هذا رجل أعمال يضع حرف دال قبل اسمه.. نحن نعلم أنه ساقط إعدادية، لكنه يكتب بفلوسه!

فإذا كان هذا هو الحال في الصحف المستقلة وبعضها أحبه وأحرص على قراءته كل يوم، فكيف الحال في صحف كالأخبار والأهرام والجمهورية؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أسئلة شهر رمضان وإجاباتها النموذجية

في شهر رمضان وفي أحد بلدان الخليج كنت أستمع إلى الراديو، عندما بدأ برنامج ديني واستمعت إلى الشيخ يرد على أسئلة الجمهور. أنا بطبعي لا أتحمس كثيرًا لفكرة طرح الأسئلة على الشيوخ والقساوسة وأرى أن السائل في كثير من الأحيان يكون أصفى قلبًا وأنقى سريرة وأكثر ورعًا وتقوى من المسؤول الذي يأكل بقلاوة على حساب الناس الطيبين عندما يستفتونه فيما لا يستحق الفتوى.
كان السؤال يقول: هل يجوز للفتاة الخليجية أن تتزوج من رجل من خارج الديار؟ وكانت الإجابة المفجعة تقول: نعم يجوز.. ولكن. وجدت نفسي مبهوتًا ولم أشأ أن أستمع إلى أي شيء آخر بعد أن قال الرجل: يجوز ولكن، وأغلقت الراديو في غضب. لم تكن كلمة (ولكن) هي التي أغضبتني، ما دفع الدماء حارة إلى نافوخي هي كلمة نعم يجوز. أغلقت الراديو وأنا أسب وألعن السائل التافه الجاهل الذي سمح لنفسه أن يسأل الشيخ عن جواز زواج المسلم بالمسلمة! وأخذت أدعو الله أن ينتقم من الشيخ العنصري الملعون الذي تلقى السؤال ببساطة وأجاب عليه ببساطة أشد دون أن ينهر السائل ويرده عن طرح السؤال الغبي والمعبأ بالعنصرية التي تنسف الأسس التي قام عليها الإسلام ذاته. وجدت نفسي أحكي لكل من أقابله أن مواطنًا مسلمًا سأل شيخًا مسلمًا هل يجوز لرجل مسلم أن يتزوج من فتاة مسلمة، وأن الشيخ أجابه بأن الأمر جائز!
كان الشيخ يعبّر في إجابته عن المزاج السائد في دويلته والذي يرى أن الخليجي له الأفضلية داخل بلده وهذا أمر قد يكون لا غبار عليه، لكن الغبار والتراب والزفت أن تمتد هذه الأفضلية إلى ما شرعه الله وكان واضحًا فيه دون لبس بأنه لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى.. والمصيبة أن السائل لم يكن يسأل الشيخ عن المفاضلة بين العربي والأعجمي وإنما بين العربي والعربي!! ولم يكن يسأل عن الأفضلية في تزويج البنات وهل الأقربون أولى أم أن الأباعد أفضل للحصول على نسل سليم، وإنما كان يسأل عن حكم الشرع في زواج مسلمة من عرب النفط بمسلم من عرب الماء!
عزّز السؤال السابق وإجابته العنصرية من نفوري من الأسئلة التي تكثر بشدة خصوصًا في شهر رمضان ولا تحمل سوى العبث المحض. منذ عشرات السنين وأنا أستمع وأقرأ بالصحف كلما أقبل الشهر الكريم عن رأي الدين فيمن يبتلع ورقة! ورغم أن الناس في العادة لا تبتلع الورق في «شعبان» أو في «ذو القعدة» فإن هاجس بلع الورق يهاجمهم عندما يهل شهر رمضان. هذا والشيخ لا يغضب من السؤال ولا يحاول أن يعلم الناس أن يرتفعوا إلى مستوى الشهر الكريم ويكفوا عن الأسئلة الخائبة. ولعل هذا هو ما يشجع السائل التالي على أن يسأل مولانا عن حكم من يبتلع ريشة! وما دام مولانا يجيب وهو بادي السعادة بعلمه الذي ينفع الناس فما الذي يمنع الحضور من السؤال عمن يبتلع ريقه وهل يبطل صيامه أم لا؟
والغريب أن الشيوخ يسعدون أيما سعادة بهذه الأسئلة الهايفة ويشجعون الناس عليها لأنها صارت بيزنس يكسبون منه الملايين، وبدلًا من أن يستفيدوا من قوة الدين في نفوس الناس لحضهم على العلم والعمل ورفض الظلم، فإنهم يشجعون على التفاهة ويساهمون في صنع المواطن العبيط، وهذا بالتأكيد يعفيهم من حرج مواجهة أسئلة محترمة تليق بإنسان محترم مثل: ما حكم من يترك الصخور تقع على بيوت الآمنين فتدفنهم أحياء دون أن يوفر لهم مساكن لا تعرضهم للخطر، وما الحكم فيمن يتقاعس عن إنقاذ الناس وهي تصرخ طلبًا للغوث من تحت الأنقاض؟ ومثل: ما رأي الدين فيمن يمنح

أراضي مصر للمجرمين بالمجان؟ وما قول الشرع فيمن يأخذون الأراضي ثم يحصلون بضمانها على مليارات الجنيهات قروضًا من البنوك، ويبيعون المدن التي بنيت بأموال شعب مصر على أرض المصريين ويقبضون ثمنها، ثم يتسلّون بمضاجعة النساء قبل أن ينحروهن في النهاية. ومثل: ما حكم تصدير الغاز لإسرائيل؟ وهو السؤال الذي تم توجيهه فعلًا قبل رمضان للشيخ الكبّارة فلم يجد سوى أن يقول: أنا غير متخصص والأمر يحتاج إلى فنيين يفهمون في مثل هذه المسائل، وهو الأمر الذي يدفعنا إلى المطالبة بإنشاء معاهد دينية تخصُص مازوت! عم الشيخ لا يفهم في المسائل الفنية.. هو يريد أسئلة من عينة حكم ناكح الحمار في نهار رمضان، وحكم من أولج في دجاجة وأمسك منيّه، وحكم من يتحسس نعجة غاب عنها تيسها!

في عصور الانحطاط يفسد الجميع، والمشتغلون بالدين ليسوا استثناء من هذا، فلعل الديموقراطية المرتجاة إذا ما انتزعناها في يوم من الأيام تعيد لبعض رجال الدين لسانهم الذي لم يعد ينطق إلا كفرًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فروق ثقافية

شاهدت بالسينما مؤخرًا فيلمًا اجتماعيًا طريفًا اسمه (Married Life) أو «حياة زوجية»، يحكي عن زوج يجلس مع صديقه في جلسة بوح، فيحكي له أنه على علاقة بسيدة يحبها بشدة ويعتزم الزواج بها، وأنه ينوي ترك زوجته التي لم تستطع أن تمنحه السعادة التي يحلم بها، لكن المشكلة التي تؤرقه هي خوفه على زوجته من الصدمة وتأكده من عدم قدرتها على العيش بدونه. بعد أن يستمع الصديق الأعزب إلى المشكلة يطلب من صديقه الدونجوان المتزوج أن يعرّفه إلى صديقته التي ينوي الزواج بها حتى يرى إن كانت تستحق أن يهدم البيت المستقر من أجلها. وبالفعل يتعرف الصديق على هذه السيدة فتأسره بحسنها ويجد نفسه واقعًا في غرامها وساعيًا بكل الطرق لإفساد علاقة صديقه معها ليظفر هو بها. وبينما الأحداث تدور على هذا النحو يكتشف الصديق الأعزب بمحض الصدفة أن زوجة صديقه هي الأخرى واقعة في علاقة حب مع أحد الجيران، ثم تعترف له الزوجة وصديقها بأنهما متحابان منذ فترة ويعتزمان الزواج لولا أن الزوجة لا تدري كيف تصارح زوجها بالحقيقة وتخشى أنه لن يحتمل أن تتركه لأنه لا يستطيع أن يحيا بدونها!!

هنا يجد الصديق الأعزب أن مشكلة صديقه قد حُلت. يكفي أن يخبر زوجته بأن زوجها هو الآخر في علاقة حب حتى يستريح الجميع ويتزوج كل واحد بمن يحب.. ما عداه هو. لهذا فقد قرر أن يخفي الحقيقة عن الزوجة وأن يعمل على تعزيز مخاوفها بشأن زوجها الذي قد يقتل نفسه إذا تركته! وفي الوقت نفسه يقنع الحسناء بأنها ستقوم بزلزلة بيت آمن وستؤدي إلى تعاسة زوجة وفية إذا مضت فيما هي عاقدة العزم عليه وتزوجت بالرجل بعد أن يطلّق زوجته. وبالفعل يفوز هو بالحسناء ويتزوجها بعد أن انتزعها من صديقه، ولا يجد الزوج سوى أن يعود لزوجته، وكذلك يفعل عشيقها. وينتهي الفيلم بمشهد شديد الوضوح يجمع بين الزوج وزوجته والصديق العريس وزوجته والجار وزوجته، يحتفلون في منزل أحدهم في سهرة على العشاء على أضواء الشموع بعد أن استقرت الأحوال ولكل واحد منهم أليفه الذي يسكن إليه وقد زالت الأفكار الجامحة، وتنزل تترات النهاية وكل زوج يراقص زوجته في سعادة، في حين لم تحُل التعقيدات السابقة دون استئناف الصداقة والود بين الزوج والصديق والجار الذين سعى كل منهم للظفر بامرأة رفيقه!

لم أتناول الفيلم بسبب أنه تحفة فنية أو لأنه رفيع المستوى، وإنما بسبب ما أثاره في نفسي من تعجب على الفروق الثقافية بين المجتمعات بعضها وبعض. فلو أن هذه الأحداث حدثت عندنا وهي بالتأكيد تحدث كل يوم، إلا أن استجابة الأطراف وردود أفعالهم لا بد ستكون مختلفة. في الفيلم تزوج الصديق من حبيبة صديقه ولم يجد أي غضاضة في هذا رغم معرفته بالمدى البعيد الذي قطعاه في هذه العلاقة.. ما يعنيه هو الحاضر وليس الماضي. لكن عندنا في مجتمعنا خريطة العلاقات لها شكل آخر، وأهمية الماضي تفوق الحاضر مئات المرات، الرجل لا يهمه كثيرًا أن الفتاة تحبه هو اليوم، لكنه مشغول طول الوقت بمن كانت تحب أمس. فلو فرضنا أن شابًا «ماشي» مع فتاة والجميع يعلم بعلاقتهما، فمن شبه المستحيل أن يفكر صديقه في الاقتران بها، وإلا فإنه سيصير «معيرة» الشلة كلها التي ستنظر إليه باعتباره رجلا «خرونج»، وافق أن يتزوج بواحدة «سكند هاند» كانت «ماشية» مع صاحبه. وفي حالة ما إذا سحقته مشاعره وتغلب على تردده وتزوجها، فإنه حتمًا سيقطع علاقته بصديقه لأن رؤية هذا الصديق لن تحمل له سوى الألم والشك والمرارة. وعلى

النقيض في الفيلم الذي يعكس شكل العلاقات في المجتمعات الغربية، فإن فوز الرجل بالفتاة واقتناصها من رجل آخر هو شيء يدعو للزهو، وعندما يتزوجها فإنه سيتأبط ذراعها ويدخل بها كل مكان في تيه وخيلاء، وسيجلس بها مع حبيبها السابق ليؤكد انتصاره، في حين سيكون «البوي فريند» السابق هو الذي يشعر بالحنق نتيجة الهزيمة وسيحتاج إلى التحلي بالروح الرياضية ليظهر لهما حسن نيته، وفي الغالب سيتجاوز الأمر خاصة لو كان يعيش سعادة عاطفية هو الآخر، ولن تشعر المرأة في وجود الحبيب السابق بأن عينها مكسورة أو أنها يجب أن تتوارى خجلًا مما فعلته في السابق. على عكس «البوي فريند» المصري الذي سيكون في أقصى درجات الفخر إذا ما واجه فتاته السابقة مع زوجها، صديقه القديم، لأنه سيكون مسكونًا بالشعور بأنه قد قام بغزوة ناجحة ثم ترك الصديق المغفل يأخذ فضلته! وسيكون الزوج في أقصي درجات العصبية وغالبًا لن يقوى على رفع عينه في عين الصديق السابق، وستكون الفتاة طبعًا في غاية الخجل والكسوف وستتمنى لو انشقت الأرض وابتلعتها حتى لو كانت علاقتها السابقة هي علاقة خطوبة أو زواج ولا تدفع لأي خجل، لكنها.. الفروق الثقافية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الوزير المصري والوزير الشومبونجي

لم أصدق الخبر الذي طيرته وكالات الأنباء عن تحرير الرهائن الذين تم اختطافهم داخل الصحراء المصرية أثناء رحلة السفاري، ولم أشارك الألمان والطلاينة والرومان وقبلهم المصريين طبعًا فرحتهم بالنهاية السعيدة وعودة المختطفين إلى ديارهم، وذلك لسبب بسيط للغاية هو أنني قد سبق لي أن عشت هذه المشاعر من قبل، وخفق قلبي بالسعادة قبل أسبوع من الآن عندما أعلن الوزير الفنان أحمد أبو الغيط وهو يقف بجوار كوندوليزا رايس في المؤتمر الصحفي بنيويورك أن جميع الرهائن تم تحريرهم وأنهم جميعًا بخير وبصحة جيدة. في هذا اليوم أحسست بفرحة غامرة لم يقلل منها النفي القاطع الذي أصدرته ألمانيا وإيطاليا لهذا الخبر المضروب «طبقًا لتوصيفهم»، ولم يشوش على سعادتي النفي المصري أيضًا للخبر باعتباره عاريا تمامًا ولا يرتدي حتى لباسًا داخليًا. فرحتي لم تتأثر لأن ثقتي بالوزير أحمد أبو الغيط لا حدود لها، ولو اجتمعت الدنيا كلها على تكذيبه ما صدقتهم. وكنت أضحك طوال الأيام الماضية عندما أقرأ كل يوم أنباء كاذبة عن رصد عناصر الخاطفين على الحدود السودانية، وفي اليوم التالي أقرأ عن دخول الخاطفين والرهائن إلى الأراضي الليبية، وبعدها يقولون أن الجميع قد انتقلوا إلى تشاد، ويتخلل هذه الأخبار فاصل من الهمهمات عن مفاوضات بشأن الفدية والدولارات وقرب تحرير الرهائن.. كل هذا وهم لا يعلمون أن الطليان قد عادوا لبلادهم وربما يأكلون سباجيتي في روما، وأن الألمان قد عادوا لبلادهم وربما يأكلون جوتمورجن بالكريمة في ميونخ، وأن السائحة الرومانية لا شك قد عادت إلى بوخارست وربما كانت تتناول فخفخينا قرب قلعة دراكولا. هذا وقد آلمني أشد الألم ما قرأته للأستاذ وائل عبد الفتاح في عموده بصحيفة الدستور عندما وصف «أبو الغيط» بأنه وزير «شومبونجي» في محاولة منه للتشكيك في الخبر، وفي ظني أن التاريخ سيثبت لكل المشككين أن الرهائن تم تحريرهم يوم أعلن أبو الغيط ذلك، وأن تأجيل إعلان الخبر حتى يوم الاثنين ٢٩ سبتمبر قد تم لأسباب فنية!

نفس إساءة الفهم والنية السيئة التي تعامل بها الأشرار مع السيد أبو الغيط وتصريحه عادوا وتعاملوا بها مع الوزير الفنان أمين أباظة وزير الزراعة الذي كان قد أعلن منذ فترة عن اتفاق مصر مع أوغندا على زراعة ٢ مليون فدان ستقوم مصر باستلامها وزراعتها قمحًا، وقد أفاضت الصحف في الحديث عن التعاون المصري الأوغندي وعن أفريقيا التي آن الأوان أن نعود إلى حضنها الدافئ بعد أن جربنا أحضانًا باردة كثيرة. وقتها أحسست أن الأحلام ما زالت ممكنة ما دام الوزير على كرسيه، ووجدتني أسرح بفكري مع الرغيف الأوغندي الذي ستخبزه الأفران في بلادي، واحترت كيف أستقبله وهو خارج من الفرن مهفهف؟ هل أجعل موزة ضاني تنتظره؟ هل أحشوه كفتة أم أملأه جمبري أم أغمس به خُبّيزة؟ وحلمت بنهاية عصر الطوابير ورأيت مليارات الأجولة من الدقيق تتحول إلى مكرونة ولازانيا وبتي فور وبتي بانِ، غير العاشورة والبليلة وما يستجد. ولكن لأنه لا يطيب للغربان الناعقة أن تتركني في حالي فقد فُجعت بخبر على لسان مسؤول رفيع في الحكومة الأوغندية ينفي جملة وتفصيلًا حكاية الاثنين مليون فدان ومشروع القمح والتعاون المشترك، وقال إن زيارة وزير الزراعة مع وزير الخارجية إلى أوغندا كانت زيارة مجاملة ولم تتطرق إلى أي كلام عن الزراعة أو القمح أو حتى الدرة العويجة!! طبعًا كان يمكن لأي أحد في مكاني أن يستسهل ويتشكك في تصريح الوزير المصري ويسرح مع السارحين الذين تحدثوا حديثًا سخيفًا ذكروا فيه

أسماء غريبة مثل أبو لمعة الأصلي والخواجة بيجو، لكن لأنني لست أي أحد فما زلت عند إيماني بأن الفدادين الأوغندي ستكون من نصيبنا، وسنكون كرماء للنهاية فلن نحرم الشامتين من رغيف كمبالا المُحسّن.

ويبدو أن للأشرار نصيبًا وافرًا في حديثنا اليوم، فقد تناولوا بسوء تصريح الوزير الفنان فاروق حسني بعد حريق المسرح القومي عندما تحدث سيادته عن كوبري الأزهر وكيف أنه السبب في كل البلاوي التي تحدث لوزارة الثقافة وحمّل الكوبري مسؤولية الحريق. وأقول لكل من تندروا على التصريح: اتقوا الله وكونوا منصفين. أنا شخصيًا أشارك وزير الثقافة رأيه في كوبري الأزهر الذي تسبب في حرائق كثيرة لم يكن أولها حريق المسرح القومي، فنفس هذا الكوبري سبق أن أحرق صينية المكرونة في فرن أم أحمد سالمة الصيف الماضي، وهو أيضًا الذي لسع طرف الجاكيتة عند سعفان المكوجي، كما تسبب برعونته في طلاق مسعدة وزغلول.

يجب أن نكف عن البطر الذي يذهب بالنعمة ونحمد الله على وزرائنا، ونكف عن السخرية من وزراء جمهورية شومبونجو الذين لا يعرفون النتش والفشر والنخع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القرد المصري والقرد الشومبونجي

شاهدت إعلانًا تليفزيونيًا شديد السماجة عن إحدى شركات المحمول التي قامت بتجديد شبكة إرسالها واستغنت عن الشبكة القديمة، ثم باعتها لبلد إفريقي مفترض هو جمهورية شومبونجو. ويقدم الإعلان سفير دولة شومبونجو وهو يشترط لإتمام عملية الشراء أن يحصل فوق البيعة على القرد المتكلم! تتضح شطارة القرد المصري وفهلوته عندما يجلس في الطائرة مع السفير في طريقهما للوطن الجديد عندما يوضح للرجل قواعد التعامل منذ البداية وتتلخص في الحكمة الخالدة: عشّيني تلاقيني. وبعد الوصول إلى جمهورية شومبونجو نلاحظ الفرق بين القرد المصري الذي لا يكف عن الكلام وبين القرد الشومبونجي الصامت.

وقد كشف الإعلان من حيث لم يقصد أسبابًا كثيرة للخيبة التي ترفرف على حياتنا منذ ٣٠ سنة، وأوضح دون أن يدري لماذا فشلت كل محاولات التغيير التي اضطلع بها نفر من المصريين دون أن يكون لها تأثير. كذلك بيّن الإعلان لماذا احتمل المصريون كل أصناف العذاب التي لاقوها على أيدي حكوماتهم الفاشلة الفاسدة دون أن يثوروا أو يغضبوا. كنت أتساءل دومًا وأردد سؤال الدكتور جلال أمين: ماذا حدث للمصريين؟ وما الذي جعلهم بكل هذه البلادة.. لا يدفعهم الجوع إلى محاولة الحصول على حقهم في الطعام عنوة، ولا يدعوهم تدني مستوى التعليم والصحة والخدمات إلى الثورة على جبل الفساد المعشش فوقهم ومحاولة هدمه والإطاحة به؟ ولماذا ثاروا في السابق عندما كانت أحوالهم أفضل مما هي عليه الآن، وكيف خرجوا عام ٦٨ في مظاهرات عارمة بعد الأحكام الهزلية في قضية الطيران، وكيف خرجوا في مظاهرات ٧٢ يطالبون السادات بالحرب، وكيف لم يقبلوا الزيادة الطفيفة في الأسعار عام ٧٧ وكادوا يحرقون البلد فوق رؤوس حكامها لأن الأرز زاد سعره تعريفة! ما الذي يجعلهم اليوم يرون ماء الحياة ينسحب من أجساد أولادهم ولا يحركون ساكنًا، وكيف تقع على رؤوسهم الصخور الجبلية فتدك بيوتهم، وكيف يعانون من ذل البطالة ويتحولون إلى شعب من المتسولين ينتظرون موائد الرحمن، كما ينتظرون أن يحن عليهم لص يقوم بسرقتهم ليل نهار فيمنحهم شققًا أمام كاميرات التليفزيون، أو يتعطف عليهم قاتل فينشئ من أجلهم بنك العفاف.. كيف يحدث لهم كل ذلك ولا يتحركون؟

الإجابة عرفتها فقط من إعلان القرد المتكلم. الكلام هو ضالة المصري يطلبها أنّى وُجدت. لا تحرمه من حق الكلام وافعل به ما شئت. سرطن طعامه وشرابه، لوّث ماءه ودواءه، خرّب تعليمه، حطم كبرياءه، أطلق عليه الكلاب المسعورة، اهدم بيته فوق رأسه، أحرقه في القطارات، أغرقه في المراكب، أشعل النار في مسارحه ومبانيه، اسفح دمه على الأسفلت، اسرق فلوسه، سد باب الأمل أمام أولاده. افعل أي شيء وكل شيء لكن لا تحرمه من الحق في النباح.

لقد ثار الطلبة ضد عبد الناصر وثاروا ضد السادات، وخرج العمال في ١٨ و١٩ يناير ٧٧ وطالبوا بإصلاح الحال المايل لأن حرية النباح التي تقوم بتنفيس الغضب وتسريبه، تلك التي ينعم بها المصريون اليوم لم تكن موجودة آنذاك، لهذا لم يجدوا داعيًا لاحتمال الظلم أو قبول أسبابه. أما اليوم وفي وجود الصحف المستقلة والقنوات الفضائية فإنها أصبحت تقوم بالفعل ذاته وصارت تعمل على امتصاص الغضب واستيعاب الوعي ثم تسريبه في القنوات والبالوعات المفتوحة. والأهم من

التليفزيون والصحافة هو الاختراع الجهنمي الرهيب: التليفون المحمول ورسائله القصيرة التي تصل في نفس لحظة إرسالها وتحمل أحدث النكت على الحكام وآخر أخبار الشائعات والفضائح.
ويبدو أن النبوءة أو المخطط الذي تحدث عنه «زبيجنيو بريجينسكي» مستشار الأمن القومي الأمريكي في عهد كارتر عندما تحدث منذ سنوات في جمع من كبار رجال الأعمال وقال إن عالم القرن الواحد والعشرين لا يتسع لكل هؤلاء البشر الطامحين إلى العمل، وأن الملايين سوف يتم إخراجهم بهدوء من سوق العمل وسيتم تقديم أشياء أخرى بديلة لهم وهي «رضعات تسالي» تنسيهم البؤس والشقاء، وبشّر «بريجينسكي» بأن الأطباق اللاقطة ستنتشر على ضفاف نهر الأمازون حتى ينام الناس في أكواخهم على صوت سيلين ديون.
ومن الواضح أن المصريين قد وجدوا سعادتهم مع الدش وقنواته ومع النغمات والرنات، وأصبح غاية مناهم هو تحديث الموبايل بين فترة وأخرى في ظل إلحاح شركات المحمول على المواطن بأن يعيش أجمل ما في اللحظة حتى لو كان يعيش على جرف صخري قد يهوي به في أي وقت ويضيّع جمال اللحظة!.. غير مهم. المهم هو أن يكون المحمول في جيبه والنغمات والرنات أنيسه ووونيسه في الظلام وتحت الصخور، ومهما كان الموت يقترب حثيثًا فإن بإمكان المصري أن يتحدث في المحمول ويطلب النجدة التي لن تأتي.. غير مهم مجيء النجدة ورفع الأحجار، المهم أنه مات وفي حضنه الدش وفي جيبه المحمول.. وعاشت مصر وطنًا للنغمات والرنّات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فوق جهل الجاهلينا

كثيرًا ما يحدث أن أكون بأحد المطاعم وأطلب بيبسي مع الأكل فيأتي إليّ الجرسون بكوب كبير مُلئ بالثلج وقد صب فوقه المشروب. عندئذ أصاب بإحباط وأضطر إلى تنبيهه إلى أنني لا أريد ثلجًا. في الغالب يندهش الجرسون ثم يبتلع دهشته سريعًا ويذهب لإحضار مشروب آخر.
لكن هذه المرة لم يبتلع أخونا دهشته، بل رمقني في غضب وقال متأففًا: ولماذا لم تطلب بيبسي بدون ثلج منذ البداية؟ صدمني رده، فقلت: وهل علب البيبسي تأتي إليكم ومعها ثلجها أم أنكم أنتم الذين تضيفون إليها الثلج؟ همّ بالانصراف ومعه سِحْنته الغاضبة لكني استوقفتهما وكلي إصرار أن أحصل على إجابة شافية على السؤال الذي وجهته، وكان تهديدي له صريحًا بأنه إذا انصرف دون أن يجيبني على سؤالي فسوف أشكوه لإدارة المطعم ولن أهدأ حتى يرفدوه. فوجئ بتصلبي فبدأ يفرد سحنته المنكمشة وقد خشي أن أكون أكثر منه غباوة وأن أجهل عليه كما قال عمرو بن كلثوم في معلقته الشهيرة: ألا لا يجهلن أحد علينا.. فنجهل فوق جهل الجاهلينا. قال الجرسون: إن البيبسي لا يأتي ومعه الثلج، لكننا نضيفه قبل تقديمه. قلت له: حلو.. هذا يدخلنا إلى قضية أصل الأشياء.. الأصل في المشروبات كلها أنها بدون ثلج ثم يوضع الثلج لمن يريده، فهل هناك مشكلة في أن تسألني عما إذا كنت أريد ثلجًا أم لا؟ هل هناك مشكلة في أن تأتي به بدون ثلج وتترك لي أن أطلب الثلج إذا أردت؟ وهل يتم إهدار المشروب إذا أحضرته بدون ثلج ثم أحضرت الثلج لاحقًا لزبون يريده، أم يتم إهداره إذا وضعت الثلج لزبون لا يريده؟ أريد إجابة لو سمحت. قال: معك حق لكننا اعتدنا أن معظم الزبائن تتقبله بالثلج ولم يصادفنا من يتذمر مثل سيادتك. قلت له: إنني لم أتذمر.. لقد كنتُ في غاية الخجل وأنا أطلب منك في صوت خفيض أن تأتيني بكوب آخر خال من الثلج، لكنك لم تترفق بي ولم تكن كريمًا فتخفض لي جناحيك، بل رفعتهما لأعلى ورفرفت بهما فوق رأسي وواجهتني بحقيقة أني كائن أنوي نادر يتناول المشروبات عكس الناس كلها بدون ثلج!. طبعًا باستطاعتي دائمًا أن أطلب المشروب بدون ثلج منذ البداية، لكني أعاند نفسي كل مرة وأدخل معها رهانا بأنني قد أصادف في هذه الدنيا أناسًا ينحازون للمنطق البسيط الذي يميز الإنسان عن غيره.. وكل مرة أخسر الرهان!
بعد أن انصرف الجرسون سرحت في تأملاتي وتساءلت: هل يجب أن أنتظر الإنصاف في حياة أخرى أجد فيها أناسًا منطقيين لا يدهشهم الكلام بالعقل؟ سيقول قائل: أتترك كل القضايا المُلحة في هذا الوطن المنكوب وفي هذه الدنيا المليئة بالمظالم والكوارث ولا يدهشك سوى هذا الموضوع التافه؟ ولهذا السائل أقول: أستطيع أن أفهم الكوارث الطبيعية وتلك التي يلحقها البشر ببعضهم البعض، وأستطيع أن أعرف دوافع الظَّلَمة والطغاة، لكني لا أستطيع أن أفهم سر تجبر إنسان غلبان لا هو ظالم ولا طاغية مثل بائع الكشري الذي جاور دكانه مدرستي الثانوية، وكانت بيني وبينه موقعة لا أنساها أبدًا رغم مرور ثلاثين سنة عليها وقد قفزت إلى ذهني الآن. ناولني الرجل طبق الكشري بعد أن ملأه بالشطة دون أن يسألني! وعلى الرغم من عدم رفضي للشطة بل وحبي لها، إلا أن تصرفه أدهشني فسألته ضاحكًا بنيّة سليمة: من الذي أخبرك أنني أريد الكشري بشطة؟ ولا أستطيع أن أنسى نظرته المخيفة ولا صوته وهو يضرب كفًا بكف من هذا الزبون المزعج وهو يقول: نعم يا خويا، من الذي أخبرني أنك تريد شطة؟ أنا كده.. مزاجي كده، اللي عاجبه ياكل واللي مش عاجبه يغور في ستين داهية!! ألجمتني سفالته وغياب أي منطق في كلامه للحظات، لكني استعدت

نفسي سريعًا وقلت له وعيناي في عينيه: عارف.. كل غباوة سِحْنتك والعفاريت المدهونة زفت التي أراها مرتسمة على وجهك لن تنسيني سؤالي: من أخبرك أنني أريد شطة؟ وهنا خرجت من فمه الإجابة الغبية التالية: ليه ما قلتش من الأول إنك مش عاوز شطة؟ قلت له منفجرًا: الشطة يجب أن تكون اختيارية يا بني آدم، ووضعك لزجاجة منها على كل مائدة جعلني أتصور أنك تفهم هذا. سحب الرجل الطبق وهو يرغي ويزبد وينفخ نارًا في الهواء وأحضر لي طبقًا آخر خاليا من الشطة وضعه أمامي. ويمكنني الآن أن أستحضر حالة الذهول التي بدا عليها وهو يحملق فيّ فاغرًا فاه كالأهطل وأنا أتناول زجاجة الشطة وأغرق بها الطبق ثم أبدأ في تناوله في تلذذ! كما لا أنسى أن هذا الهطل سرعان ما استحال إلى غضب عارم.. وكيف أنسى وغرزتان في الرأس ما زالت آثارهما باقية وما زلت أتحسسهما كلما صادفت إنسانًا غبيًا وقادرًا على أن يجهل فوق جهل الجاهلينا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رجال وكسكسي

أدّيك تقول ما خدتش
و إن خدت ما تدينيش
وتشوفني تقول ما شفتش
بقى انت.. ما شُفتنيش؟!

مأمون الشناوي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حسن وك وعرضه الكريم

الناس في قرية برج البرلس يعملون بالصيد. لهذا فقد اعتادوا أن يستفيدوا من حصة الدقيق التي تصرف لهم ببطاقة التموين، فيقومون بعمل خبز بيتي يبقى صالحًا طيلة فترة تواجدهم بالبحر. محافظ كفر الشيخ قام بإلغاء حصة الدقيق غير مدرك أن الصياد لا يستطيع الاعتماد على عيش المخابز الذي يؤكل يومًا بيوم. ثارت ثائرة المواطنين وقاموا بقطع الطريق الدولي الساحلي كتعبير عن الاحتجاج على القرار الجائر، فاصطدمت بهم قوات الأمن وتم القبض على العشرات من المواطنين. قامت وسائل الإعلام بتغطية أحداث الشغب، وتم الاتصال بمحافظ كفر الشيخ من جانب بعض الفضائيات، وفوجئ المشاهدون في كل أنحاء العالم بالمحافظ ينفعل على مقدم أحد البرامج ويصف وظيفة المحافظ بأنها «شغلانة وسخة». توالت ردود الأفعال على تصريح المحافظ الذي صدم الناس في البيوت، وقام الكُتاب والصحفيون بانتقاد المحافظ ومهاجمته بضراوة على تصريحه الفج، وكتب الأستاذ أحمد رجب يطالب المحافظ بأن يترك شغلانته الوسخة ويبحث عن عمل نظيف، وكتب غيره أن كل إناء ينضح بما فيه.. وغير هذا كثير تم نشره بالصحف تعقيبًا على تصريح المحافظ.

وعلى الرغم من ضبط المحافظ متلبسًا بالقول البذيء على الهواء وأمام الملايين، إلا أنني بيني وبين نفسي شعرت بالتعاطف مع الرجل ورأيت للأمر وجهًا آخر لا يبين للناس. وقد حاولت أن ألتمس من ينظر للأمر من زاويتي ويطل عليه من شبّاكي، ويعذر المحافظ الذي يعيش أزمة، فلم أظفر بأي صديق يفي بالغرض.

لكن بالأمس وبينما كنت عائدًا إلى البيت، مررت على دكان الفرارجي لأشتري جوز أرانب. حييت صاحب المحل وصديقي في الوقت نفسه الحاج حسن وك وك، فرد التحية بدون حماس. لاحظت تكدره فسألته: مالك يا حاج وك وك؟ فقال: الواد ريشة صبي المحل ترك الشغل اليوم وذهب إلى سمسار سفر وعده أن يأخذه في مركب إلى إيطاليا. قلت له: ربنا يوفقه يا معلم. فقال في حدة: يوفقه إزاي.. إن هذه المراكب تغرق في عرض البحر ولا تصل إلى الشاطئ أبدًا، ثم إنني كنت أعتمد عليه في كل شيء وخصوصًا تزغيط الوز والبط، ومن الصعب أن أجد من يستطيع أن يتعامل مع الطيور بنفس الاحتراف، لقد كان يزنق الوزة بين رجليه ويرفع رقبتها لأعلى فاتحًا فاها على اتساعه، ثم يقوم بهدوء بإسقاط الذرة والفول والعيش المبلول، ثم أردف في حسرة: من الذي يستطيع أن يعوضني عن خسارة ريشة؟ أخذت أطيب خاطره وطمأنته أن الله سيعوضه خيرًا من ريشة. عند انصرافي وجدته مترددًا كأنما يريد أن يفاتحني في موضوع لكن الحرج يمنعه. شجعته: قل يا وك وك نحن أصدقاء ولا حواجز بيننا، فتشجع وقال: أنا أعرف أنك تكتب في الصحف، لهذا لي عندك طلب. قلت له: تحت أمرك. قال: من المؤكد أنك بحكم عملك قد شاهدت أحداث البرلس واستمعت إلى تصريح المحافظ الذي اعترف للناس بأنه يعمل بشغلانة وسخة؟ قلت: نعم شاهدت، لكني متعاطف مع المحافظ ولن أسمح لك بكلمة واحدة ضده. ففوجئت به تتهلل أساريره ويكاد يقفز من الفرحة قائلًا: الله عليك يا أستاذ، كنت أعلم أنك ستفهمني. قلت: يؤسفني أنني لا أفهمك. قال: أنا أيضًا متعاطف مع سيادة المحافظ وأشعر أنه في أزمة، وأنا نفسي مررت بكل هذا عندما كنت أتاجر في الصنف زمان.. تعرف يا أستاذ ما الذي دفعني للتوبة والبدء من جديد؟ لم ينتظر ردي وأكمل: عندما كان أولادي يعودون من المدرسة دامعين بعد معايرة الأولاد لهم بسبب مهنة أبيهم، وأتصور أن المحافظ وقد أدرك نوعية

العمل الذي وضعوه فيه دون أن يختاره أصبح يحس بحرج موقف أبنائه وسط زملائهم في المدرسة بعد أن يعرفوا صنعة الوالد. قلت له: تفتكر يا وك وك إن المسألة كده؟ قال: ألم تسمع تصريح المحافظ بنفسك.. لقد أحسست أنه يرسل رسالة استغاثة على الهواء لكل أهل المروءة، وقد قمت بفك الشفرة وعرفت أنه مثل كل المسؤولين في بلادنا يمكن أن يُقال ولا يمكن أن يستقيل، وفهمت من صوت الرجل أنه يتمنى أن يترك هذه الوظيفة التي اعترف بأنها وسخة، وأنه يتوق لعمل شريف لا يخجل منه هو وأولاده. قلت له: وما المطلوب مني بالضبط؟ قال: أن تكتب يا أستاذ وتقول للرجل أنه إذا تشجع وأخذ قرارًا بالاستقالة فلا يخشى على لقمة العيش، فوظيفته عندي مكان ريشة. قلت وأنا ذاهل: عاوز المحافظ يزغّط الوز عندك يا وك وك؟ قال: أنا عارف إنها ليست وظيفة مرموقة، لكن الرجل كما فهمت لا يبحث عن الفشخرة.. إنه يحلم بلقمة عيش نظيفة من عمل شريف، وأنا آمل أن الله سيرزقني في وجود هذا الرجل الشريف بلقمتي ولقمته وسيعوضني بأخلاقه ونزاهته عن وساخة الواد ريشة!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يا ولدي هذا عمك رشاد كسكسي

الحاج رشاد هو أحد أصدقائي القدامى. يعجبني فيه الإنسان العصامي الطموح الذي جرب حظه في كل شيء ولم يخجل أبدًا من العمل الشريف.
اشتغل رشاد في كل شيء وتاجر في أي شيء. بدأ حياته بائع جرائد ثم باع بخت وعسلية، وفي مرحلة أخرى سرح بعربة بطاطا في الشتاء ثم قلبها آيس كريم في الصيف، ولما سمع عن المدينة الحرة سافر بورسعيد واحترف تجارة الشنطة حتى تمت تصفية المدينة ولم تعد حرة. اشتغل عجلاتي ومكوجي وترزي، باع روبابيكيا وباع كشري وفول وطعمية، ثم انتهى به المطاف بائع كسكسي على ناصية درب الجميزة بالحسينية. اكتسب شهرة مدوية لحلاوة أطباقه، وأصبحت الناس تعرف اسم رشاد كسكسي كعنوان للجودة. ورغم كونه أحد خبراء الصنعة المعدودين في البلد، فإنه لم يجد حلًا لكون الكسكسي سلعة سريعة التلف ويسهل «شمّه» خصوصًا في الصيف، فيضطر إلى إلقائه في الزبالة لأن الزبائن لا يشترون الكسكسي المشموم.
زارني الحاج رشاد الأسبوع الماضي وهو في حالة من السعادة والتفاؤل لم أره عليها من زمان وقال لي أن الدكتور مفيد شهاب ـ الله يعمر بيته ـ هو سر هذه الفرحة، ذلك أنه فتح للناس بابًا للرزق بعد البيان الذي ألقاه في مجلس الشعب مؤخرًا. سألته: أي بيان يا حاج رشاد فهم كُثر؟ قال: الرد الذي أفحم به النواب الذين سألوه عن تصدير الغاز لإسرائيل بسعر التراب. قلت له: فكرني يا عم رشاد ماذا قال لهم لأني لا أتابع هذه الأشياء. قال في فرحة: أخبرهم أن مصر لا تقوم بتصدير الغاز إلى إسرائيل على الإطلاق، فلما استولت عليهم الدهشة أوضح لهم أن الحكومة المصرية هي صحيح التي قامت ببناء الأنبوب، لكن الذي يقوم بتصدير الغاز هي شركة خاصة، وتقوم بتصديره إلى شركة إسرائيلية خاصة أيضًا.. يعني بالعربي مصر بريئة من بيع الغاز ببلاش وإسرائيل كذلك بريئة ولا تقبل الحرام على عيالها. قلت للحاج رشاد كسكسي: أنا ما زلت لا أفهم شيئًا. فقال في عصبية: الأمر واضح وضوح الشمس.. حكومة مصر التي تقوم بمشروعات البنية التحتية العملاقة هي التي قامت ببناء الأنبوب الذي يخترق سيناء ويدخل إلى أرض فلسطين وقد أتاحته لأبناء مصر ليرتزقوا من استخدامه. ومثلما تقوم الحكومة بشق الطرق وبناء الكباري دون أن تكون مسؤولة عن رعونة السائقين وسوء استخدامهم للطريق عندما ينحرفون ويسقطون من فوق الكباري، كذلك ليست مسؤولة عن سوء استعمال نفر من أبناء مصر للأنبوب واستخدامه لضخ الغاز إلى إسرائيل. فلما لمح رشاد الدهشة على وجهي أضاف: يا سيدي أحب أن أوضح لك شيئًا.. الأنبوب مجرد وسيط محايد، حلاله حلال وحرامه حرام، مثل التليفزيون يمكن استخدامه في إذاعة أفلام خليعة كما يمكن من خلاله تقديم دروس دينية. قلت له: وبعدين. قال: أنا أنوي استخدام الأنبوب في الحلال. قلت له: يا سلام! قال: لا تسخر مني، لقد سمعت أن هناك مجموعة مستثمرين كانت تنوي أن تستخدم خط الأنابيب لضخ «كونياك» للجهة الأخرى، ولكن بعد استيلاء حماس على السلطة في غزة لم يعد هذا مناسبًا، الأمر الذي أحدث فراغًا حول الأنبوب استغلته الشركة الخاصة لتصدر من خلاله الغاز إلى إسرائيل.
ومضى رشاد في حماس: منذ مدة وأنا «لابِد في الدُّرة» أقف على الجهة المصرية من الأنبوب أتابع ما يحدث وأرقب في صمت ضخ الغاز حتى تحين اللحظة الفاصلة التي تفرغ فيها شحنة الغاز، وأنوي أن أنتهز فرصة انشغال الشركة المصدرة للغاز بتجهيز شحنة جديدة، حتى أقوم خلسة بضخ

كميات كبيرة من السوبيا والعرقسوس قمت بتوقيع عقود تصديرها في صمت استنادًا إلى تصريح الدكتور مفيد شهاب الذي عرفت منه أن الأنبوب ملك كل المصريين، ويمكن لهم جميعًا استخدامه في سعيهم لتزويج البنات وتحويش قرشين للعيال. قلت له: مشروع عظيم يا رشاد، ولكن ماذا عن الكسكسي هل ستهجره؟ قال: أبدًا.. أنا أنوي التوسع وتصدير الكسكسي باستخدام الأنبوب العجيب.. ليس هذا فقط، أنا أنوي في شهر رمضان أن أقوم بضخ خُشاف في الأنبوب لأبناء الأرض المحتلة، وستعود الأيام الحلوة يا صاحبي، وأردف: وهناك هدف آخر أسمى من كل ما سبق.. عندما تفكر إسرائيل في حصار غزة وتجويعها مرة ثانية، من الممكن أن نقوم بشحن وجبات غذائية كومبو مع البيبسي والشيبسي لإفشال الحصار، وإن كان هذا يستلزم تعديلًا بسيطًا في زاوية ميل الأنبوب وزيادة مستوى «الزفلطة» التي تتيح سرعة النقل. قلت له: ربنا معاك يا رشاد. ادع للدكتور مفيد شهاب الذي أوضح الحقائق للناس وأظهر لهم حقيقة الحكومة التي تبني للناس مشروعات الخير ويفوتها الإعلان عنها!

في النهاية لا يسعني سوى تقديم نموذج الحاج رشاد كقدوة لأبنائي وزملائهم الذين كانوا يعتقدون أن مصر ضاعت على يد الدكتور شهاب وزملائه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

موسم تكاثر الأنطاع

بمناسبة الأحداث الأخيرة في لبنان، أود أن أوضح للقارئ صورة للخريطة السياسية هناك حتى لا يقع ضحية للفيلق الإسرائيلي في الصحافة المصرية والعربية، ويصدق أن حزب الله قد قام بانقلاب على السلطة الشرعية، وكل هذا الهراء الذي يطلقه الجهلاء من المحللين الأرزقية.

لقد استمتعنا على شاشات الفضائيات بالطلعة البهية لمجموعة من القتلة وأمراء الحرب الأهلية الذين شارك كل منهم في سفك الدماء العربية طيلة حياته، ثم خرج علينا يندد بحزب الله وسلاحه الذي فقد الشرعية بعد استعماله في الداخل!!.. لكننا للحق افتقدنا وجهًا كنا بحاجة إليه في العرض لتكتمل المسرحية الدموية هو وجه «إيلي حبيقة» بطل مجزرة صبرا وشاتيلا الذي غيّبه عنا الموت بعد تفخيخ سيارته عام ٢٠٠٢. لكن الحمد لله كان شريكه في المجزرة سمير جعجع حاضرًا بقوة ورأيناه يشجب ويدين، وهو الذي حُكم عليه بالإعدام لتفجيره كنيسة سيدة النجاة واتهامه باغتيال رئيس الحكومة رشيد كرامي وطوني فرنجية ابن رئيس الجمهورية الأسبق ثم خُفف الحكم للسجن المؤبد.. ويخرج من السجن مؤخرًا ليقود حزب القوات اللبنانية.

رأينا أيضًا أمين الجميل نجم حزب الكتائب الذي استعان بالإسرائيليين على أبناء وطنه وارتكب مذابح في جبل لبنان بحق الدروز في حماية الصهاينة. كذلك أطل علينا وليد بك جنبلاط الذي تحالف مع الجميع وغدر بالجميع، ودوره في الحرب الأهلية لا ينساه المسيحيون حيث قام بحملة تطهير عرقي ضد الموارنة وطردهم من قراهم في جبل لبنان.

لن أتحدث عن تيار المستقبل برئاسة سعد الحريري.. سأترك الحديث لهارون زئيفي رئيس المخابرات الإسرائيلية السابق الذي قال إنه نبّه الإسرائيليين بأنهم لا يستطيعون الاعتماد على ميليشيات الحريري في التصدي لحزب الله. وقال زئيفي إن كلامه قد تحقق بعد أن استسلمت ميليشيات سعد الحريري رغم التدريب والتسليح الإسرائيلي قبل أن تبدأ المواجهة!. وعن الواشي الذي أبلغ إسرائيل بمكان عماد مغنية القيادي في حزب الله الذي اغتالته إسرائيل في دمشق وهل هو حقًا وليد جنبلاط، أجاب قائد المخابرات الإسرائيلية السابق: لا تعليق!!

هؤلاء هم نجوم ما يسمى بـ١٤ آذار ومعهم الرجل الطيب فؤاد السنيورة الذي يأخذ التعليمات من كوندوليزا رايس كل صباح ويقال أنها هي التي ورطته في القرارات التي اتخذها بإقالة رئيس أمن مطار بيروت وتفكيك شبكة اتصالات حزب الله، وهي القرارات التي أدت للفتنة. فما مدلول هذه القرارات ولماذا كان يتعين على حزب الله أن يرفضها مهما كان الثمن؟.. الحكاية هي أن التحرش بالمقاومة لم يتوقف منذ انتهاء حرب يوليو ٢٠٠٦ بالانتصار وصد العدوان الإسرائيلي. لم يهدأ أصدقاء إسرائيل السالف ذكرهم، وهم للغرابة أعداء لبعضهم البعض ولا يجمعهم سوى الغرام بإسرائيل وكراهية القائد حسن نصر الله. لم يكفوا عن المطالبة بنزع سلاح حزب الله بحجة أن الجيش اللبناني وحده هو من يجب أن يحوز أسلحة. وهي حجة متهافتة لأن حزب الله أعلن دائمًا أن الجيش الوطني إذا تم تزويده بالأسلحة والطائرات ووسائل الدفاع الجوي وأصبح قادرًا على التصدي لإسرائيل فإنهم سيتخلون عن أسلحتهم طوعًا، إنما في ظل ضعف الجيش فإن تسليم أسلحة حزب الله يعني احتلال لبنان صبيحة اليوم التالي، وذبح رجال المقاومة أجمعين. ولقد كان حزب الله محقًا تمامًا في رفضه تفكيك شبكة اتصالاته وكاميراته في المطار لأنه لا يستطيع أن يترك المطار مرتعًا لرجال

الموساد يقومون من خلاله بإدخال أسلحة كما يشاؤون لعملائهم في الداخل كما يقومون بالتجسس على المقاومة وتعقب قادتها واغتيالهم. لكن القرارات الغبية صدرت، وأوكلوا إلى الجيش مهمة التنفيذ وهم يعلمون أن حزب الله لا يمكن أن يسمح بتنفيذها، الأمر الذي يعني مواجهة حتمية بين الجيش ورجال المقاومة!. لكن حزب الله تصرف بحكمة ولم يرسل قواته تتصدى للجيش، ولكن قامت كوادره المدنية بقطع طريق المطار وإقامة الحواجز. والمأساة تكمن في أن الحكومة التي تصدر أوامرها للجيش هي حكومة صديقة لإسرائيل وموالية لأمريكا وليس لها عدو سوى المقاومة. ولهذا فإن من يتحدث عن الشرعية وخروج حزب الله عن الشرعية إما أنه جاهل أو إسرائيلي الهوى، فالجيش اللبناني نفسه لم ينفذ تعليمات الحكومة الشرعية!. بل تنبه للمؤامرة فتعاون مع رجال المقاومة على جمع أسلحة رجال سعد الحريري ووليد جنبلاط الذين استسلموا وخذلوا قادتهم وأسياد قادتهم في تل أبيب.

ولكن على الرغم من وضوح الصورة فإن السادة الأنطاع في وسائل الإعلام ـ الذين يتكاثرون مثل الأرانب ـ لن يكفوا عن ترديد وجهة نظر العدو ولن يتوانوا عن إدانة حزب الله وسيظلون يكررون كلام سمير جعجع ووليد جنبلاط وأمين الجميل وفؤاد السنيورة وسعد الحريري وإبريل شارون ومناحم بيجن وجولدا مائير.. وقناة العربية!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حاجات محشية.. حاجات

قرأنا بالصحف منذ عدة أسابيع خبرًا طريفًا ملخصه أن أحد السادة النواب المعارضين وقد كان مدعوًا ضمن آخرين على الإفطار مع السيد الرئيس، صرح بعد خروجه إلى الصحافة بأنه قد تناول على مائدة الرئيس أصنافًا جميلة للغاية، ومن بينها حاجات محشية حاجات، غير أشياء أخرى غير محشية، وصرح للصحفيين بأنه متفائل بمستقبل البلد تحت قيادة السيد الرئيس، ويثق أن سيادته وحده يملك الحل لكل مشاكل مصر!!

مصدر الدهشة في هذا التصريح أنه صادر عن نائب يعارض سياسات السيد الرئيس وحزبه، ويسعى هو وجماعته للوصول للحكم بدلًا من السيد الرئيس وحزبه. فكيف به يغير عقيدته السياسية ويتنكر لمواقفه المعارضة ويمنح الرئيس ثقته وتأييده، دون أن يكون قد طرأ على سياسات الرئيس وحزبه الوطني أي تغيير يستدعي هذا التحول في موقف النائب المعارض؟ نحن نعلم أن بعض المواقف قد تتغير تحت ضغط الإغراء والإغواء والتلويح بالمغانم، كما قد تتغير أيضًا تحت سيف الوعيد والتهديد بالعقاب. لكن الموقف السالف لم يتضمن لا وعدًا ولا وعيدًا، ولم يكن به إغواء أو تهديد، ولا يمكن بطبيعة الحال أن تكون الحاجات المحشية حاجات التي تناولها الرجل تقف وراء هذا التغيير. فما هي يا ترى العوامل التي قد تكون أثرت على نفسية الرجل وحالته الذهنية والعصبية في ذلك الوقت وجعلته يأخذ هذا الموقف الذي قد يكون هو شخصيًا قد ندم عليه وتراجع عنه بعد أن عاد إلى بيته وصار في معية أصحابه؟

مثال آخر.. أحيانًا نقرأ لأحد الكتاب رأيًا يتضمن هجومًا حادًا على مواقف أحد المسؤولين وسياساته، ثم في اليوم التالي مباشرة نقرأ لنفس الكاتب ما يمثل انسحابًا منظمًا وتراجعًا ناعمًا عن كل ما ذكره في عموده العنيف بالأمس.. ولا يكون السبب رشوة تلقاها من المسؤول أو تهديدًا أخافه، وإنما مجرد مكالمة تليفونية لطيفة.. فقط مكالمة تليفونية كان السيد المسؤول فيها رقيقًا، ودودًا متبسطًا جعلت الكاتب يخجل من نفسه ويتراجع عن انتقاد المسؤول المهذب!

وفي اعتقادي أن عدم ترسيخ قيم التعددية في النفوس، والخلط بين العام والخاص، فضلًا عن توقع الأسوأ دائمًا من ذوي السلطة، هو السبب في حالة الخجل التي يعزى إليها التراجع عن المواقف لمجرد تلقي معاملة حسنة.

غير أن الخطير في الأمر أن هذه الحالة موجودة أيضًا لدى الحكام من ملوك ورؤساء في عالمنا العربي، وإليها (إلى جانب عوامل أخرى) يعود الإخفاق والفشل في السياسة الخارجية وضياع الحقوق والتنازلات التي يقدمونها على حسابنا. ويمكنك إذا تطلعت مثلًا إلى (أبو مازن) وهو يلتقي وزيرة الخارجية الأمريكية أن ترى ملامح الغبطة والسعادة على وجهه لأنها تسلم عليه في حرارة وتتحدث معه بلطف، بينما وسائل إعلامها تقوم بامتداحه وتصفه بالصديق المعتدل، ويمكنك كذلك أن تتصور نوع المفاوضات التي تجري في ظل هذا التأثير ونتائجها الكارثية، خاصة إذا لم يقتصر الأمر على وزيرة الخارجية، وتضمن أيضًا لقاء الرئيس الأمريكي في المكتب البيضاوي، والتقاط الصور معه أثناء حوار ضاحك! وأظن أن مفاوضات السادات في كامب دافيد وما سبقها لم تبتعد كثيرًا عن هذا المثال.. فقد عامله الأمريكان معاملة شديدة الود، واختاروه واحدًا من أشيك عشرة رجال في العالم وأغدقوا عليه من صفات العبقرية وأسموه نبي السلام، لدرجة أنه تصور أن صداقة

حقيقية قد أصبحت تربط بينه وبين قادتهم ومسؤولي الإعلام لديهم. ولعله خشي من مغبة التمسك بالحقوق في المفاوضات، وعرف أن الصلابة في المواقف قد يترتب عليها تراجع كل هذا الحنان الاستراتيجي وخروج اسمه من قائمة الرجال الشيك!.. ويعزز من هذا الظن أن وزير خارجيته قد استقال في ذروة المفاوضات بعدما لم يحتمل حجم التنازلات المطلوبة، وبقي السادات يفاوض وحده دون رجال الخارجية المحترفين الذين كانوا بصحبته.. ثم كان ما كان.

وفي نفس الإطار طبعًا يجري الحديث منذ ربع قرن عن الرئيس مبارك على لسان الزعماء الغربيين وفي وسائل إعلامهم باعتباره رمز الاعتدال ومنبع الحكمة.

الذي أقصده من هذا الحديث أن البيئة السياسية والاجتماعية لدينا لا تساعد على الصلابة في المواقف المبدئية، لأن الناس ما زالوا يتهيبون من المناصب ولا يحسنون الظن بشاغليها، ولديهم ميراث طويل من الظلم والتمييز الذي تعرضوا له على يد السلطة التي لم تأت أبدًا باختيارهم، وقد أفقدهم هذا كثيرًا من عوامل الثقة بالنفس وبالمجتمع الذي لا يعتقدون في كونه ظهيرًا يُعتمد عليه إذا ما احتاجوا لعونه في مقاومة الضغوط. لذلك فمن السهل أن يشعروا بالتحرج والخجل مما لا يستوجب أي حرج أو خجل (ولا أتحدث عن الرشوة وشراء الضمير فهذا حديث آخر) ومن السهل أن تلين الإرادة وتضعف الصلابة عند سماع كلمة طيبة ممن لا نتوقع منهم أي خير، وتكون نتيجة طبيعية أن نخلط بين أداء الشخص لدوره العام وبين صفاته الشخصية وحياته الخاصة، فنمتدح الوزير الجاهل لمجرد أنه يتحدث معنا بذوق وأدب، ونهلل للمحافظ الفاسد إذا دعانا لافتتاح مشروع، ونغفر للرئيس ما تقدم من ذنبه وما تأخر إذا أكلنا على مائدته.. حاجات محشية حاجات!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عن النفسنة.. أتحدث

كنت أجلس مع أحد الأصدقاء نتجاذب أطراف الحديث عندما قال لي: كنا بالأمس في سيرتك. قلت له: خير. قال: مررت بجمع من الكُتاب والصحفيين كانوا يجلسون بالقهوة الشهيرة بوسط البلد، فسحبت كرسيًا وجلست معهم ووجدت الحوار محتدمًا فيما بينهم، وبالمصادفة كنت أنت محور الحديث. قلت مستغربًا: من كانوا؟ قال: فلان وفلان.. وأخذ يعدد أسماءهم. قلت له: جميل والله.. كلهم أسماء معروفة، وإن كنت لم أتشرف بمعرفة معظمهم شخصيا.. لكن فيم كان احتدام الحديث؟ قال: كان الكاتب الصحفي المشهور فلان يمسك بصحيفة المصري اليوم ويقرأ لهم مقالًا لك عنوانه: «أزمة مرحلة عم الحاج» كان يقرأ وهو يرفس في الأرض من فرط الانبساط ويطلق ضحكات عالية أثارت دهشة الموائد المجاورة، ومن الواضح أن إعجابه بمقالك كان فائقًا، ويبدو أن موضوع المقال قد مس عنده وترًا.. المهم أن جانبًا من الحوار بعد ذلك كان حولك وحول كتاباتك، والحقيقة أن جانبًا منهم مدح وعلى رأسهم هذا الصحفي، وجانبًا آخر قدح. قلت له: ومن الذي يستطيع يا صديقي أن يرضي كل الناس؟

بعد مضي أسبوع على هذا الحديث كنت مدعوًا في مناسبة اجتماعية لدى صديق، وهناك قابلت الصحفي المعروف الذي شرّفني بقراءة مقالي على الملأ وهو يجلس بالمقهى وسط أصدقائه. وللأمانة وجدت نفسي أشعر نحوه بامتنان رغم كونه كاتبًا محدود القيمة، وقلت لنفسي إن خلقه الرفيع يمكن أن يكون جسرًا للمودة فيما بيننا عوضًا عن كتاباته الضعيفة.

تقدمت منه لأسلم عليه وتولى أحد الأصدقاء تقديم كل منا للآخر، فقال مشيرًا إليه: الأستاذ فلان، فرددت بسرعة: طبعًا.. غني عن التعريف ثم صافحته بحرارة، وأكمل صديقنا التقديم فأشار إليّ ونطق باسمي فوجدت الصحفي المعروف تلمع عيناه لثانية واحدة ثم تنطفئان بسرعة وهو يغمغم بعبارة ترحيب باردة. قال له الصديق المشترك وقد أدهشته جليطة الرجل: ألا تعرف فلانا (يقصدني أنا).. إنه يكتب بانتظام في الصحافة، فنظر إليّ بتفحص وسألني: أين تكتب؟ فقلت له وأنا غير مصدق: بصحيفة كذا. فمال على أحد المقاعد وجلس منجعصًا بشدة حتى حاذت مؤخرته ذراع المقعد وأخذ صوته يخنف وهو يسألني: يعني فيم تكتب بالضبط؟. قلت وأنا أنظر في عينيه: أكتب في ركن المرأة والطفل، فلاحظت أنه ارتبك ولم يدر ما يقول، فأكملت: وأنوي في الفترة القادمة أن أتخصص في المطبخ وأكتب عن المحاشي وبالذات ورق العنب.. ثم أعطيته ظهري وابتعدت.

عندما خلوت إلى نفسي بعد ذلك ثارت في داخلي تساؤلات عديدة حول النفس البشرية وعجائبها، وذكرت قول الله: (ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها) وأذهلني سلوك هذا الرجل الذي كان على طبيعته مع أصدقائه بالمقهى وسمح لنفسه أن يبدي إعجابًا بكاتب معين، ثم عندما التقى بذات الشخص بعد أيام أنكر أنه يعرفه أو سبق أن قرأ له أو حتى سمع باسمه. أنا لا أقصد من هذا الحكي أن أمنح نفسي أهمية، ولست نجمًا حتى أفترض أن يعرفني الناس، ولا أفترض فيمن يقرأ لي أن يكون رأيه عني إيجابيًا. من حق قارئي أن يسخط عليّ وأن يمقتني حتى. لكن هذا الشخص بالذات ليس فقط يعرفني، وإنما يعرفني جيدًا، ولا يخفي أمام أصدقائه موقفه الطيب مما أكتب. فلماذا تظاهر بأنه يسمع بي للمرة الأولى؟ وما الفائدة التي جناها عندما ارتدى قناع اللورد كرومر وتظاهر بأنه لا يقرأ

للنكرات من أمثالي؟ هل تراه انتشى وانشكحت نفسه من الداخل وهو يحاول أن يواري إحساسه الدفين بالضآلة وعدم الاستحقاق؟. إنني أتمنى من كل قلبي أن أكون قد أسهمت في علاجه!

على النقيض من هذا الموقف المريض، كانت المفاجأة التي صادفتها بصحيفة «الدستور» يوم الخميس ١٤ فبراير الماضي عندما قامت الصحيفة باستطلاع رأي مائة شخصية عامة من الأدباء والكتاب وأهل الرأي عمن يحبون ويكون قد ترك أثرًا لديهم.. فوجئت بالكاتبة العظيمة ذات الموهبة والاستقامة الفكرية والنفسية الأستاذة صافي ناز كاظم تجيب: فلان.. مؤلف كتاب «مصر ليست أمي.. دي مرات أبويا».. وذلك على الرغم من أنها لا تعرفني وأنا لا أعرفها إلا بحسباني قارئا لإبداعها الراقي. حتى إن الصديق الكاتب بلال فضل عندما سألني: هل قرأت ما كتبته عنك صافي ناز كاظم؟ قلت له: والله يا بلال أنا في غاية الخجل من نفحة الكرم التي قدمتها لي كاتبة مبدعة لا تعرفني، ورغم هذا تحدثت عني بهذه المودة بعد أن قرأت كتابي، فكان رد بلال الجميل: هي دي عظمة صافي ناز الحقيقية.. الصدق والنفس المحبة للبشر.

إنني وعلى الرغم من نفوري الفطري من الكذابين والذين يبدلون عدة أقنعة في اليوم الواحد، إلا أنني أملك القدرة على تفهم أسباب أن يكذب الذين يجاهدون من أجل البقاء على قيد الحياة.. لكني لا أتعاطف أبدًا مع الذين يفعلون هذا بدون داع عندما يستدعون مخزون العدوانية ويشهرون ـ بشكل استباقي ـ أسلحتهم في وجه رجل لا يحمل سلاحًا لمجرد تصورهم (الواهم) أن وجوده قد يكشف تفاهتهم ووكستهم وخيبتهم.. رغم أنه والله غير مشغول بهم أبدًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كيف يصبح الإنسان خرتيتا؟

قرأت في بعض صحف هذا الأسبوع أن القوات الإسرائيلية كانت بصدد مداهمة مدينة رام الله مقر السلطة الفلسطينية لاعتقال عدد من الشباب الفلسطينيين، وأن قوات الأمن والمخابرات التابعة للسلطة الفلسطينية بقيادة (أبو مازن) قد أفسحت الطريق للقوات الإسرائيلية ولزمت مقراتها طيلة الوقت الذي احتاجته القوات الإسرائيلية لإتمام المهمة.

بعد أن قرأت الخبر وعرفت ما فعلته السلطة الفلسطينية المنوط بها حماية أبناء الشعب الفلسطيني بـ ٢٣ ناشطا من أبناء رام الله تم اعتقالهم على مقربة من مقر إقامة السيد محمود عباس، كان لا بد أن تعتريني الدهشة من تصريح أحمد أبو الغيط وزير الخارجية المصري الذي قال فيه أن اشتراك حماس في الحكومة الفلسطينية أمر غير مستحب!! كيف يكون يا سيادة الوزير اشتراك حماس في الحكم غير مستحب وهم الذين أتوا باختيار الشعب الفلسطيني في انتخابات غير مزورة شهد بنزاهتها العالم كله، وكيف تأتمن السلطة في رام الله وتثق بها بعد كل تواطئها مع الإسرائيليين ضد شعبها؟ أم أن هذا التعاون والسمع والطاعة هو الذي أكسبها ثقة السيد أبو الغيط؟

يبدو أن الأسبوع الماضي كان بالنسبة لأبناء الشعب الفلسطيني هو أسبوع الآلام، وبالنسبة لي كان أسبوعًا للاكتشافات. فبالمصادفة عرفتُ للمرة الأولى كيف يمكن للمرء أن يصبح خرتيتًا دون جهد كبير.. لا يحتاج الأمر لأكثر من ضمير ميت واستعداد للقيام بما يطلبه الأسياد دون مناقشة، ثم الاشتغال بصحيفة مدنّسة لا أحد يشتريها، وتلقّف خبر مسموم من أجهزة العدو يقول أن مفتي غزة قد أصدر فتوى بقتل الجنود المصريين إذا اعترضوا طريق الفلسطينيين أثناء عدوانهم على مصر! ثم تدوير الخبر الكاذب وإشاعته على أوسع نطاق. وعلى الرغم من سخافة الخبر ووضوح كذبه واختلاقه، إلا أن الصحيفة الشريرة ما كادت تمرره إلا وانطلقت الحملة المحمومة من جانب الصحف بكل أطيافها، الطيب منها والخبيث، الموضوعي والأصفر بلون الموت تدين جميعًا العدوان الفلسطيني المزمع على أرض مصر وتتوعد المجرمين الفلسطينيين بأن مصر التي هي مقبرة الغزاة لن تتسامح أبدًا إذا أقدموا على قتل جنود مصر وضباطها طبقًا لفتوى شيخهم النازي!

في حالات الهستيريا الجماعية لا يفيد أبدًا أن نذكر أن فبركة الخبر هي مسألة واضحة وضوح الشمس، وأن مكوناته إسرائيلية بالكامل وليس بشكل جزئي مثل الكويز!. وأيضًا غير مهم القول أن الشيخ عبد الحميد كلّاب إمام أحد مساجد خان يونس ليس مفتيًا لا لغزة ولا لسواها، كذلك لا يفيد أن نذكر أن الرجل أقسم بكل الكتب السماوية أنه لم يقل ولا يمكن أن يقول هذا الهراء، أولًا لأنه غير مؤهل للفتوى وثانيًا لأن مصر بالنسبة له هي الأهل والسند وهي الحمى والملاذ، وأن أجنادها هم خير أجناد الأرض، وهم العون المرتجى على البلاء الإسرائيلي، وأنه طول عمره كان داعيًا للوحدة وليس للفرقة ولا يتصور أن يصدر هذا التخريف عن إنسان عاقل، فما بالنا بشيخ حافظ لكتاب الله وعارف لقدر مصر وتضحياتها في سبيل كل العرب وليس الفلسطينيين فقط.

هذا هو كلام الرجل الذي نسبوا إليه الافتكاسة الملعونة التي تم تأليفها عند مخابرات العدو، عندما تحدى أن يأتيه أحد بدليل أو تسجيل للخطبة التي تضمنت الخبر الكاذب. فهل اعتذر الذين هاجوا وماجوا وصبوا جام وسام غضبهم فوق أم رأس الرجل وشعبه؟ هل طلبوا السماح من الرجل وقالوا له نحن متأسفون على حماقتنا وجهلنا؟ طبعًا لم يفعلوا.. لكن ترى ما الذي يجعل كتابًا وصحفيين

بعضهم حسن النية ينزلقون ويستسلمون للغضب والعصبية ويندفعون لتسديد «النقوط» في حالة من الوطنية الفجة والزائفة، وهم الذين لم نسمع لمعظمهم حسًا عندما قتلت إسرائيل سماح الفتاة المصرية داخل بيتها بواسطة جندي مجرم يقف فوق برج حراسة، ولم نسمع فحيحهم عندما كانت الأباتشي الإسرائيلية تقصف أطفال غزة بالصواريخ الشهر الماضي وتدك بيوت المدنيين فوق رؤوس ساكنيها. أم أن الغضب والحماسة والعنترية لا تظهر إلا على الأشقاء الذين يموتون أمام أعيننا فيكشفون عجزنا وهواننا حتى صرنا نتمنى الموت للأخ الضعيف بديلًا عن نجدته ونصرته!

إن أشد ما يحزن في الأمر هو الإحساس بأن إسرائيل قد نالت منا في العصب وحقنتنا بالسم حتى النخاع، وأن كوادرها لدينا قد كبروا وصاروا قادرين على إيذاء مصر بشدة وحرف انتباهها عن كوارثها اليومية وتوجيهه نحو الأشقاء محملًا بالغل والكراهية. إنهم يريدون لرجل الشارع المسكين الذي يصارع في طابور العيش أن يتصور أن الفلسطينيين هم أعداؤه وليس الذين يحرمونه من اللقمة والكرامة.

هل عرفتم الآن كيف يمكن للمرء أن يصير خرتيتًا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

محافظ الإسكندرية.. هل يقبل التحدي؟

لا أحد يعرف حقيقة أي شيء في هذا البلد. الاضطراب هو الأساس والتشويش هو سيد الموقف. إذا سألت عن مدينة الإسكندرية تجد من يترحم على أيام المحجوب الذي اهتم بالكورنيش وقام بتوسيعه وتجديده، كما قام بتنظيف وتزويق وسط المدينة على نحو يشهد للرجل بحب الجمال. في الوقت نفسه تجد من يلعن تلك الأيام ويتحدث عن فوضى البناء التي ترعرعت في حضن المحجوب الذي دأب على تحقيق إنجازات ملموسة من فلوس التجار ورجال الأعمال، مقابل السماح لهم بدهس القانون، فتركهم يهدمون الفيلات ويبنون مكانها أبراجًا كبيرة مخالفة للذوق والقانون، ضاغطة على المرافق ومرشحة للسقوط والانهيار.

وإذا سألت عن عادل لبيب المحافظ الحالي قال لك البعض: إن سمعته الطيبة تسبقه منذ أن تولى محافظة قنا فجعل منها جنة، ويقول لك البعض الآخر: إن تجربة لبيب في قنا تشبه كثيرًا تجربة المحجوب في إسكندرية.. إنجازات واضحة في تنظيف وتزويق الشوارع الرئيسية، أما مشكلات الإقليم الحقيقية كالفقر والبطالة فظلت كما هي. ويتحدث بعض السكندريين فيقولون: إن مأزق محافظ الإسكندرية الحالي يكمن في أنه عندما تولى المسؤولية وجد الأشياء التي كان مرشحًا للقيام بها قد تمت فعلًا على يد سلفه، مثل تنظيف الكورنيش وتجديد بعض الحدائق وإنارة شوارع وسط البلد المضيئة بالفعل ونزع بلاط الأرصفة وإعادة التبليط كل سنة، وسائر الأعمال التي تجلب إعجاب وتصفيق وسائل الإعلام.

وأتصور أن عادل لبيب لم يجد بدًا من العمل الحقيقي في إسكندرية بعد أن اكتشف أن الشو الإعلامي المرتبط بالإنجازات المظهرية قد تم تأميمه بالكامل ولم يتبق منه شيء.

وقد لاحظت في زياراتي المتكررة للمدينة أن هناك أعمالًا كبيرة تتم في مشروعات حقيقية وليست من أجل المنظرة خاصة بالمياه والصرف الصحي في أحياء شهيرة ظلت تعوم فوق القاذورات منذ عشرات السنين. وكنت قد اكتشفت أن منطقة العجمي التي تعج بالقصور والفيلات الفاخرة ما هي إلا حي عشوائي شديد القذارة، معظم شوارعه عبارة عن حارات ضيقة غير مرصوفة ولا تفترق كثيرًا عن منشية ناصر والدويقة وسائر العشوائيات. واكتشفت أن المحافظين السابقين لم يفكروا أبدًا في القيام بعمل حقيقي في هذا الحي ولم يرغبوا في البدء في مشروعات طويلة الأجل تدفع للانتقاد ولا تمنح شهرة.

وظللت على مدى شهور طويلة ومملة وخانقة أرقب العمل في العجمي، وأتحمل العذاب كلما ذهبت إلى هناك ابتداء من الكيلو ٢١، وهو مكان كنت أرى الشيطان يسكنه وينشر فيه الفوضى والإهمال. لكن مؤخرًا وبعد صبر طويل وجدت أن العمل قد أوشك على الانتهاء وأن الاختناق والعذاب المرتبط بالمشروع قد آذن بالرحيل. وشهدتُ بيارات الصرف الصحي العملاقة تختفي تحت الأرض، والشوارع يتم تعبيدها وأعمدة الإنارة تضيء. ورغم أن هذه الأعمال تتم في كل بلاد الدنيا وفقًا لخطة ودون أن تسبب للناس كل هذا القرف والمعاناة، إلا أنني لا أملك سوى الاعتراف أن انتهاء المشروع قد فاجأني، ذلك أنني لا أتوقع الخير من أي مسؤول في هذا البلد.

لكن وكالعادة فالحلو لا يكتمل أبدًا، وأكبر مثال على هذا هو شارع (أبو يوسف).. هذا الشارع يبدأ عريضًا للغاية وقد تمت سفلتته وإنارته مؤخرًا، لكن بعد أن تتوغل داخل الشارع تجده قرب نهايته قد

أخذ يضيق تدريجيًا حتى يكفي بالكاد لمرور سيارة واحدة، ويحزنك أن تكتشف أن الشارع العريض قد ضاق لأن أصحاب الفيلات قد خرجوا بأسوارهم وضموا الشارع إلى ممالكهم وهم مطمئنون أن البلد ليس له صاحب، وعندما تصل لنهاية الشارع عند قرية الروضة الخضراء تكون قد نسيت كل الجمال الذي رأيته في بداية الشارع ولم يتبق لديك سوى الحسرة. لهذا أجدني مضطرًا إلى مخاطبة السيد المحافظ بعد أن تحداني أحد أصحاب القصور وهو رجل شهير إذا كان أحد في هذا البلد يستطيع أن يرده إلى حدوده ويهدم سوره الذي اغتصب الشارع، وكان مما قاله لي في لهجة متهكمة: «هل تظن أننا خرجنا بأسوارنا هذه واستولينا على الشارع في الخفاء؟.. لقد فعلنا هذا أمام الدنيا كلها، ولو كان هناك من يمكنه أن يفعل لنا شيئًا لفعله من زمان». وعلى الرغم من أنني أميل إلى تصديقه، وأيضًا على الرغم من ضعف توقعاتي من المسؤولين لدينا، فإنني من باب الفضول والله ليس إلا، قد قررت أن أكتب عن تحدي الرجل لسلطة الدولة. وقد كان من الممكن أن أخاطب رئيس الحي في هذا الشأن، لولا أنني أعلم أن هذا الحي لا رئيس له. وفي الأسبوع القادم سأحكي لكم إذا كان هذا الرجل صادقًا في تحديه، أم أنه بالإسكندرية يوجد من يستطيع لجمه وإدخال رأسه داخل الكمامة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قناة «أو تي □ي» ومستويات اللغة العربية

درسنا في كلية الإعلام على يد الإذاعي القدير الأستاذ فاروق شوشة أن اللغة المستخدمة في الإذاعة والتليفزيون ببرامجها ونشراتها وحواراتها وموادها الدرامية لا تخرج عن خمسة مستويات لغوية، أولها فصحى التراث، ويتم استخدامها في البرامج الدينية والتراثية والمسلسلات التاريخية، وثانيها فصحى العصر؛ وهي شبيهة بلغة الصحافة، ويتم استخدامها غالبًا في نشرات الأخبار وأقوال الصحف وفي البرامج الثقافية والسياسية التي تستضيف قامات سامقة في دنيا الفكر والفن والأدب. والمستوى الثالث من مستويات اللغة التي نسمعها ونشاهدها بالراديو والتليفزيون هي عامية المثقفين، ويمكن سماعها من خلال برامج المنوعات والمسابقات والبرامج الحوارية مع المتميزين من الضيوف وعلى لسان معظم المتحدثين الذين تقترب لغتهم من فصحى العصر بفعل ثقافتهم واعتيادهم على القراءة، لكنها ممزوجة بألفاظ عامية ذات أصل ورونق. المستوى الرابع هو عامية المتنورين الذين حصلوا على قسط من التعليم، وهذه يمكن متابعتها في المسلسلات وفي التعليق على المباريات الرياضية وغيرها. خامس هذه المستويات هو عامية غير المتعلمين التي تشبه كلام شعبان عبد الرحيم التلقائي البسيط، وهذه مكانها الوحيد هو الدراما أو الفقرات التي تلتقي بأولاد البلد.

وأستطيع أن أقول أن الريادة الإعلامية التي كانت لنا في وقت من الأوقات كانت في جزء منها بفضل المستويات الأرقى من اللغة الصادرة عن محطاتنا وقنواتنا بشكل يسهل فهمه واستيعابه وقبوله على اتساع الوطن العربي.

لكن مع الزمن لحق قدر من التدهور بحالة السادة الناطقين وأصبح صعبًا على معظم المذيعين استخدام فصحى العصر بدون أخطاء مضحكة.. لكن في النهاية ظلت المستويات الخمسة موجودة ومستخدمة بشكل أو بآخر تبعًا لمقتضيات الحال.

لكننا فوجئنا من فترة قريبة بانطلاق قناة «أو تي في» ومن أول لحظة بدا لنا أن الخيارات اللغوية للقناة الوليدة قد استبعدت عمدًا ثلاثة من المستويات الخمسة التي تحدثنا عنها، واعتمدت المستويين الأخيرين فقط كلغة لكل البرامج والحوارات والمواد المقدمة على الشاشة. لا أنكر خفة الدم التي تميز بعض البرامج، لكني لا أستطيع تجاهل أنني للمرة الأولى في حياتي أسمع نشرة أخبار تقدم بالعامية!!. كان من الممكن أن نتفهم هذا لو كانت القناة تتوجه بإرسالها إلى أصدقاء الأستاذ عبد البديع قمحاوي رحمه الله الذين حرموا من التعليم ولا يفهمون الأخبار لو قرئت بفصحى العصر السهلة الخفيفة، لكن المدهش أن هؤلاء لا مكان لهم على الإطلاق على شاشة أو تي في، فلمن تقدم النشرة العامية إذن؟ إلى الشباب من خريجي الجامعات وهم الجمهور المفترض! إن ما يثير دهشتي هو شعوري بالجهد الكبير الذي يبذله القائمون على القناة من أجل استبعاد أي لفظ به رائحة اللغة العربية حتى لو كان سهلًا ومألوفًا وأكثر قربًا لأذن عموم المصريين، فعلى سبيل المثال عند التنويه عما سيعرض تاليًا لا يقولون: «بعد قليل» لكن يقولون: «كمان شوية» مع أن «بعد قليل» أسهل كثيرًا، لكنه الرفض المطلق للفصحى. كذلك لا أستسيغ كلمة «شوف» الموجودة دائمًا على شاشتهم، لأن كلمة «شاهد» أحلى وأكثر تعبيرًا لأنها تعني المشاهدة والشهادة معًا أي «تفرّج وكن شاهدًا» لكنهم يستبعدونها لحساب «شوف». والأمر العجيب أنني عندما تحريت الأمر قيل لي: إن هذا ما هو إلا إخلاص شديد لمصريتنا! وهو الأمر الذي أذهلني لأن اللغة العربية هي لغة المصريين وليست لغة

الهكسوس، وإذا كان حال العرب اليوم لا يشجع على الانتساب إليهم فإن حالتنا لا تقل «وكسة» عنهم، وإذا كان البعض منا يبغض العرب ويتأفف منهم فما ذنب اللغة الجميلة بأشعارها وآدابها والتي ليس لنا لغة سواها؟ وإذا كان البعض يتصور أن العربية الفصحى هي لغة «المستعمر العربي» التي فرضها على المصريين، فلنا الحق أن نضحك حتى تنفجر أحشاؤنا، لأن عاميتنا الهابطة هي نفس لغة ذلك المستعمر! بعد أن أضفنا إليها لمسة خراب، ولم نذهب بعيدًا عنها لكننا ذهبنا لأسفل! ولعل النظر إلى شعوب أمريكا اللاتينية قد يوضح مقصدي، فهي شعوب تتحدث الإسبانية (لغة من كان مستعمرًا فعلًا) ولا تجد في ذلك مشكلة، بل إن روايات جارثيا ماركيز وإيزابيل الليندي وأشعار بابلو نيرودا مكتوبة بالإسبانية التي لا يعرفون سواها، ولا أظنهم كانوا سيستدعون لغة الأباتشي لإثبات كولومبيتهم أو فنزوليتهم وشيليتهم!

لكن على أية حال نحمد الله أن قناة «أو تي في» ما زالت تستخدم الحرف العربي في الكتابة على الشاشة ولم تستجب بعد للدعوة التي أطلقها منذ ثمانين عامًا سلامة موسى باستخدام الحروف الأجنبية أسوة بما فعل كمال أتاتورك عندما فرض على الأتراك نبذ الحروف العربية واستخدام الأجنبية، وقد كان سلامة موسى مبهورًا بالغرب وصديقًا مقربًا من الاحتلال الإنجليزي، وكان يراه ضروريًا لتحديثنا وإخراجنا من الظلمات إلى النور، بالضبط مثل الممثل محمد الصاوي في فيلم ليلة سقوط بغداد عندما كان في انتظار جيش الاحتلال الأمريكي الذي سيقوم بتنضيفنا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بل نستطيع أن نعايرك!

كتب أحد الصحفيين مقالًا بجريدة الوطن الكويتية بعنوان «لا تعايرني ولا أعايرك» كانت له أصداء كبيرة بين المصريين داخل مصر وخارجها. كانت المناسبة هي قيام الصحافة المصرية بشن حملة ضد قيام بعض ضباط الشرطة الكويتية بتعذيب اثنين من المواطنين المصريين بإغراقهما بماء النار داخل أحد المخافر بالكويت، وهو الأمر الذي لم يعجب الكاتب الكويتي الذي استنكر أن يقوم كتاب الصحافة القومية في مصر بالدفاع عن كرامة المصريين بالخارج وهم الذين لم ينزعجوا أبدًا لانتهاك كرامة المصريين ليل نهار داخل مصر.

لكن المشكلة أنه أثناء تصديه للكُتاب المصريين الذين كتبوا عن الموضوع بحدة قام بفاصل من «الشرشحة» استعرض فيه ألوانا من الهوان الذي يلقاه المواطن المصري على يد حكومته وعلى يد وزارة داخليته، فقام بتذكير المصريين بقضية عماد الكبير وكيف قام الوحوش بافتراسه مع تصوير وقائع الجريمة، وكتب عن طفل شها الذي سقط ميتًا بعد خروجه من مركز شرطة المنصورة، كما استعرض ما حدث للمحامي في شبرا الخيمة وكيف تم الاعتداء عليه بدنيا وجنسيا، وكتب عن وقائع أخرى كثيرة كلها تصب في نفس المجرى. وقد خلص منها جميعًا إلى أن الإنسان المصري لا كرامة له في مصر وأن تسعيرته حين يموت في حادث هو تعويض أهله بمبلغ ٢٠٠٠ جنيه أي أقل من ثمن غسالة! ولم ينس أن ينصح الحكومة المصرية بأنها إذا أرادت صيانة كرامة مواطنيها فعليها أن تمنعهم من السفر والاشتغال في الخارج وأن توفر لهم فرص العيش الكريم في بلدهم الذي أنهكه نواب القروض والرشاوى والعبّارات الغارقة والمخدرات والعمارات المتساقطة على حد قوله.

لم يكذب الأفندي في أي شيء من الوقائع التي ذكرها ولا في تقييمه لسعر الإنسان المصري، بل ربما يكون مبالغا في التقدير، لأن كثيرًا من أهالي الضحايا في الكوارث اليومية لا يحصلون على مبلغ الألفي جنيه الذي ذكره على سبيل التهكم.

لكن الأمر الذي يعيب ما كتبه هو النتيجة العجيبة التي خلص إليها بعد أن ذكّرنا بهواننا على نظامنا الحاكم. لقد توصل الكاتب إلى أن المصريين ليس لهم أن يَشْكوا من الإساءة والظلم أو حتى التعذيب في الخارج ما داموا قد اعتادوا على هذه الممارسات داخل بلدهم! وهذا منطق شديد الشذوذ، كأن الرجل يريد من حكومته أن تطبق المعايير الحكومية المصرية لحقوق الإنسان على المصريين والمعايير الفلبينية على الفلبينيين والأمريكية على الأمريكان، وكأن الكويت ليست دولة ذات سيادة ولها قانون وأعراف ومنظومة لحقوق الإنسان التي تسري على كل البشر على أرضها، وكأن الكويت قد صارت أرض جهنم التي لا يحق للمصري المستجير من رمضاء بلاده أن يلوذ بها!

إن الكاتب يطلب من المصريين ألا يتحدثوا عن وقوف مصر إلى جانب بلاده ومساعدتها في الخروج من رحلة البداوة إلى ما صارت عليه اليوم، ومساندتها في التحرير حتى عاد الكويتيون الذين فروا من بلادهم وقت الغزو.. هو يطلب من المصريين ألا يعيّروه بهذا وإلا عيّرهم هو أيضا بالمساعدات السخية والقروض والهبات التي قدمتها بلاده لمصر على مدى أربعة عقود. بالطبع له كل الحق أن يطلب ألا نعيره وبلاده بما قدمنا لهم.. لكننا لا نسايره في منطقه الأعوج الذي يهددنا بأن يطلق فينا لسانه الطويل ويعيرنا هو الآخر بفقرنا وتسولنا من بلاده. نحن لا نمن على أحد لإدراكنا بأن ما قمنا به هو الواجب والدور الذي يجدر بمصر أن تقوم به، في الوقت الذي لا يحق له أبدًا وقطعيًا وعلى أي

نحو أن يمن علينا أو يتيه بمساعداته، حيث إننا بكل الصدق لم نحصل على أي شيء من النفحات التي قدمتها حكومته إلى حكوماتنا الميمونة، وشعب مصر ليس مدينًا لأحد ولا طرفا في العلاقة بين حُكامنا الذين يبيعون كرامتنا ويقبضون في جيوبهم الثمن وبين حُكامه الذين يدفعون بسخاء ويتصورون أنهم يدينون شعب مصر.. ليعايرهم هم إن شاء لكن نحن لا!

إذن نظرية توازن الرعب في المعايرة كما «بخّها» الكاتب هي محض كلام فارغ، فلا مصر يمكن أن تعاير الكويت أبدًا، ولا الكويت تملك ما تعاير به شعب مصر.

لكن فيما يخصه هو شخصيًا فقد سجل على نفسه عدة نقاط، ونستطيع لو كنا نمتلك مثل ضميره الإنساني المهترئ أن نعايره، لأنه تنكر لشرف الإنسان الحر الذي يأبى أن يدافع عن الجلادين ويبرر إجرامهم لمجرد أنهم من عشيرته، ويهين الضحايا ويأخذ منهم موقفًا متعاليًا لمجرد أنهم من خارج الديرة والربع. لقد ضرب مثلًا في التعصب وهو يحاول أن يتصنع الموضوعية، واستدعى كل رزايا الحكم المصري كمبرر للعدوان على أسيرين وقذفهما بماء النار بواسطة ضباط كويتيين، لم ينس سيادته أن يذكرنا أنهم مجرد تلامذة في مدرسة التعذيب المصري الدولية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هجايص

ليه يا حبيبتي كل ما أبص في عنيكي
ألاقيكي لسّه معيّطة

علي سلامة

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

البرمجة الذهنية في التبول اللاإرادي

ترددت على معرض الكتاب أكثر من مرة خلال الأيام الماضية، فمتعتي بالفرجة على الكتب واقتنائها لا تعادلها سوى السياحة داخل محلات بيع الأفلام في أوروبا وأمريكا. وقد أسفرت هذه العادة عن أن الكتب والأفلام قد ملأت المنزل، فغطت الجدران واستقرت على المناضد والأرائك والأسرّة وسدت الطريق إلى المطبخ، وبالكاد نجحتُ في فتح ممرٍ آمنٍ إلى الحمّام.
كنت أتفقد المعرض هذا الأسبوع لأرى الجديد في السوق ولأطمئن على كتابي الذي صدر منذ أيام.
نسيت أن أخبركم أن هناك طقسًا محببًا أقوم به في كل زيارة لمعرض الكتاب وهو تناول واحد كشري مخصوص من عند «أبو طارق» الذي دأب على حجز جناح له كل عام بالمعرض من أجل عشاقه.. وهم كثر. وأذكر أنني في العام الماضي وبينما كنت أشتبك مع طبق كشري كنت أتأمل في سعادة صورة «أبو طارق» نفسه، تلك التي ينقلها من مكان لمكان ويذهب بها إلى آخر الدنيا، فيجعلها تتصدر الواجهة كعنوان للجودة و«الطعامة».
ولا أنكر فضل هذه الصورة في كتابتي لمقال عنوانه: «كشري أبو طارق ومهلبية هاني سرور» تحدثت فيه عن حب كل من الرجلين لصورته وتفضله على جمهوره بتعلىقها في كل مكان ليراها أنّى التفت.
هذا العام غاب «أبو طارق» للأسف عن المعرض.. بحثت في كل مكان عسى أن يكون قد غير موقعه المفضل، ولكني لم أجده. وبغيابه فقد المعرض جانبًا من نكهته فأحسست بالغربة في المكان، وأخذت أتجول فاقدًا الحماس.
لكن يبدو أن الأقدار قد ترفقت بي فعوضتني عن غياب «أبو طارق» على نحو لم أتوقعه.. لاحظت أن معظم المكتبات والمواقع والأجنحة قد امتلأت بمؤلفات رجل وسيم يرتدي باروكة جميلة، وقد بلغ من شدة حبه لقرائه أن وضع صورته على كل أغلفة كتبه بلا استثناء وكتب عن نفسه أسفل الصورة: الكاتب الكبير والمؤلف القدير والمحاضر العالمي الأستاذ الدكتور فلان الفلاني!!. في البداية دهشت من فكرة أن يكتب المؤلف عن نفسه كل هذه الأوصاف التي احتاجت إلى ثلاثة أسطر على الغلاف، واستنكرت أن يمتدح نفسه بهذه الصورة، غير أنني بعد تفكير ومراجعة وجدت أنه قد يكون على حق، وقد يكون عارفًا لقيمته ككاتب ومدركًا لأهميته كعالم ومحاضر عالمي، لهذا لا يريد أن يسمح للتواضع الكاذب أن يخفي حقيقته عن الجمهور. وقفت أتأمل الأغلفة وأقلب الصفحات فأدركت أنها تحوي «كلام كبير» ودليلي على هذا أنني لم أفهم شيئًا مما قرأت، وأنا بطبعي عندما أقرأ فلا أفهم أقدم حسن النية دائمًا فأفترض في الكاتب العبقرية وفي نفسي الجهل. سرحت مع العناوين الفرعية واضطرب عقلي الصغير وأنا أطالع: (كيف تتصل بالشخصيات البصرية والسمعية واللمسية؟.. البرمجة العلمية وفن الاتصال من بعيد لبعيد.. استراتيجيات العقل الباطن وتحديد المصير الغامض.. تعلم استراتيجية المهارات الذاتية بدون فتحة سقف.. التفوق في مهارات الاتصال اللاإرادي.. قوة التفكير وأسرار النشاط اللامحدود.. التحكم في الانفعالات الأرضية وقياس دقة النتائج.. تداخل المصاعب المتناهية مع المتاعب اللامتناهية.. التأثير التتابعي على سلوكك وأحاسيسك وأعضائك.. البرمجة العصبية في غياب المضمون.. نتائج الإدراك المحسوس بدون آثار جانبية.. تداخل الشعور بالغضب في ظل الأساليب القديمة.. عبور الطريق مع التأثير في الذات بقوة.. نجاح الأشياء في

التعرف على الطاقة البشرية بدون أشياء.. الدفع الرباعي الذاتي الملموس وغير الملموس.. كيف تكسب الأصدقاء للداخل بدون أخطاء.. كيف تغير حياتك وتبني مستقبلك على مستوى اللاوعي... سبعة وسائل للتفوق الداخلي وتحصين الذات.. عشرة وسائل للتفوق الخارجي وتأكيد الذات).. وأشياء أخرى كثيرة كلها على هذا النمط.. أخذت أمسح الريالة التي سالت على ملابسي من فرط الذهول وأصابني الحزن على حالي لأنني لم أفهم أي شيء، وأشفقت على غيري من الجهلاء الذين قد يصور لهم عجزهم عن الفهم أن هذا الكلام مجرد هجايص، وتيقنت أن المشوار أمامي لا يزال طويلًا حتى أقترب من فهم الكلام الواعر الذي يكتبه العلماء الكبار وأنا الذي ذهبت للمعرض فرحانًا بكتابي الجديد ومتخيلًا أنني قدمت للقراء شيئًا له معنى! كما تأكدت أيضًا أنني في داخلي أفتقد فضيلة الاحتشام حيث ضبطت نفسي أضحك وأنا أجيب في سري عن بعض الأسئلة التي طرحها الأستاذ العالمي مثل: كيف تتصل بالشخصيات.. إلخ، فقمت باستحضار المرحوم علاء ولي الدين وهو يقول: اطلب ١٤٠ دليل، وقارنت بين قوة التفكير التي كررها كثيرا وبين قوة السلاحف في الكارتون الشهير، فضلًا عن أشياء أخرى تصورتها وأخجل أن أصارحكم بها حتى أحتفظ بفكرتكم الطيبة عني.

لكن على الرغم من هذا فأنا لست راضيًا عن جهلي، ومصمم على أن أتعلم، ولهذا فقد اشتريت كل كتب المجموعة وعليها صورة الأستاذ على الغلاف بحيث أستطيع أن أصبّح عليه كل يوم، وسأعكف عليها بعد أن أغلق على نفسي الباب في العشر سنين القادمة، ولا أنوي أن أخرج قبل أن أكون قد سبرت أغوار هذا العالم السحري العجيب، وعرفت أسرار البرمجة العضلية في وجود المضمون وفي غيابه، كذلك البرمجة الذهنية في فن التبول اللاإرادي.. المحدود!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الكيلو أربعة ونص والكيلو ثمانية وربع

تراودني أحيانًا أسئلة عجيبة أحاول دفعها دون جدوى، وتظل تضغط عليّ حتى أكتبها وأشرك القراء فيها فأستريح حتى لو لم أحصل على أجوبة شافية.
في كتب الجغرافيا كنا ندرس أن عدد سكان الدولة الفلانية هو كذا مليون نسمة.. وفي تقارير الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء يذكرون أن عدد سكان مصر قد بلغ كذا مليون نسمة. والناس طوال عمرهم يتقبلون هذه المعلومة دون أن يحاول أحد أن يسأل عن كنه هذه النسمة وماذا تكون. ولقد حاولت ذات مرة مع مدرس الجغرافيا أن أفهم معنى كلمة نسمة، فبدلًا من أن يعترف بأنه لا يعرف طردني من الفصل!! وعندما كشفت عن الكلمة في المعجم وجدتها تعني «إنسان»، لكن هذا لم يفدني لأنني كنت أتصوره سلفًا، لكن السؤال هو لماذا لا يقولون ٨٠ مليون إنسان أو فرد أو شخص؟ ولماذا يقتصر استخدام النسمة على عدد السكان فقط، فلا يقال أبدًا أن ضحايا الطائرة التي سقطت أو القطار الذي احترق أو العبّارة التي غرقت هو ١٠٣٤ نسمة مثلًا، ولا يقال كذلك أن عدد الناجحين في الثانوية العامة هو ٢٠٠ ألف نسمة.. باختصار لماذا كانت النسمة مصطلحًا خاصًا بالتعداد، ثم تتحول نفس النسمة في ظروف أخرى إلى إنسان أو شخص أو فرد أو عُنصر (في لغة الأمن)؟ لو كان أحد يعرف فليفدني بالإجابة وله الثواب.
وإذا ابتعدنا عن موضوع النسمة أجدني مشغولًا بتسمية أخرى غريبة نسمعها كل يوم دون أن تستوقف أحدًا وهي «مفتي الديار المصرية».. ما معنى هذه الجملة؟ وما هي الديار المصرية؟، وكم عدد هذه الديار وهل هي مجموع بيوت المصريين؟ وما العمل إذا كانت بعض هذه الديار يسكنها غير المسلمين؟ ولماذا لا نسمع في غير مصر عن حكاية الديار هذه، فنجدهم في السعودية يقولون مفتي المملكة وفي ليبيا يقولون مفتي ليبيا وهكذا.. إني أكاد أشم في هذه التسمية رائحة مملوكية أو عثمانلية، فلماذا حملناها معنا إلى الآن في عصر لم تعد فيه مصر اسمها الديار المصرية. وبهذه المناسبة هل يحق لي أن أتساءل عن وظيفة المفتي بعد أن تم تأميمها لصالح الحزب الوطني وأصبحت الفتاوى مضبوطة على موجته العاتية التي أغرقت مصر. وما الأثر الذي تتركه لدى الناس عن المؤسسة الدينية بعد أن يستمعوا إلى فتوى تسأل عن حكم تصدير الغاز لإسرائيل فيكون الرد أن هذه مسائل فنية تحتاج لمتخصصين في السياسة والاقتصاد!. كم دارًا يا ترى من الديار المصرية فهمت شيئًا من هذه الفتوى التي تهربت من الإجابة ولم تجرؤ أن تقول: إن تزويد العدو بأسباب القوة لا يمكن أن يكون حلالًا أبدًا، ولماذا يا ترى غضب صحفي عجوز بالأهرام من طالب الفتوى واتهمه بأنه يريد تحويل مصر لدولة دينية، مع أنه لم يغضب أبدًا من الفتاوى التي اتهمت من يمتنعون عن الذهاب للإدلاء بأصواتهم في الانتخابات بأنهم آثمون؟!!
سؤال آخر يناوشني بين الفينة والفينة (حلوة الفينة دي) كلما مررت في طريق القاهرة السويس في سكتي إلى مدينة الشروق أو الرحاب. يمر الطريق بعد ألماظة بمنطقة تسمى الكيلو أربعة ونُص.. ولا أمر من هناك إلا وأستعجب من هذه الدقة الغريبة علينا في تسمية المنطقة، وأتساءل لماذا لم نبحبحها ونسميها الكيلو خمسة مثلًا أو الكيلو أربعة فقط دون النصف كيلو الذي حرصنا على إضافته، مع أننا على كل الطرق، الزراعية منها والصحراوية والترابية نجد مثلًا لافتة تقول الإسكندرية ٧٤ كيلو،

وبعدها بعدة كيلومترات نجد لافتة أخرى تقول الإسكندرية ٧٤ كيلو! فلماذا عند الكيلو أربعة ونص بالتحديد تخلينا عن البساط الأحمدي في القياس وتركنا الرأي لخبراء المساحة؟

سؤال رابع يراودني عند مروري من شارع عبد الخالق ثروت في تقاطعه مع سليمان باشا.. هناك لافتة مرورية ضخمة وعجيبة تقول: «استعمالك لآلة التنبيه بدون ضرورة يضعك تحت طائلة القانون، فضلًا عما يسببه من إزعاج للآخرين». أولًا: هذه الجملة الطويلة الركيكة لا يمكن لقائد السيارة أن يكمل قراءتها وهو يتحرك بالسيارة، فهل افترض الذي كتبها أن المرور هناك سيظل متوقفًا إلى الأبد أو بطيئًا جدًا بحيث يتمكن السائقون من قراءتها؟ وإذا كان الطريق شبه متوقف فعلًا هناك طول الوقت، فمن الذي سيستعمل آلة التنبيه ولماذا؟ ثانيًا: الاستعمال بدون ضرورة.. من الذي يحدده؟ أولم يكن من الأسهل وضع علامة ممنوع استعمال «الزمارة» بدون كلام على الإطلاق، أو الاكتفاء بجملة قصيرة تفيد المنع، وبعدها فإن من يجازف بالتزمير لا بد أنه سيكون مضطرًا لمنع حادثة. ثالثًا: ألا يعلم القوم أن هذه المنطقة التجارية هي في قلب وسط البلد، فلا هي منطقة سكنية هادئة ولا هي منطقة مستشفيات ومدارس، بل هي منطقة بيع وشراء ومحلات وفرشات تبيع كل شيء على الرصيف وتحت الرصيف في الشارع.

سؤال خامس.. أم ترانا نكتفي بهذا الآن ونكمل مرة أخرى بعد الحصول على إجابات.. إن كان ثمة إجابات!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المذيع السكافوللي.. والعديد والعديد

من الأشياء المألوفة أنك إذا سألت شخصًا عن أبرز عيوبه، أجابك مستعرضًا مجموعة من الخصال والسجايا التي هي في حقيقتها مزايا وصفات طيبة يفخر أي إنسان بامتلاكها!

هذه الحقيقة الواضحة يعرفها كل الناس ما عدا مذيعي ومذيعات التليفزيون وخاصة بماسبيرو، أولئك الذين احتكروا لأنفسهم سمات خاصة بهم تميزهم عن غيرهم، بعد أن حصلوا حصريًا على توكيل الضجر بالمنطقة.

ومن المؤكد أنكم شاهدتم هذا السؤال يطرح مرارًا على ضيوف التليفزيون من فنانين ولاعبي كرة، وأدباء وكتاب، وصحفيين ومشاهير من كل صنف.. فماذا كانت الإجابة؟

قالت النجمة التي تشبه البسكويت في رقته والمعروفة بحياكة المؤامرات لزميلاتها: عيبي أنني أثق في الآخرين كثيرًا وأفتح قلبي لهم بدون تحفظ. وقال النجم الذي يجيد التسبيل وإرخاء رموشه الناعسة، المشهور وسط زملائه بالنذالة والأنانية: عيبي أنني طيب القلب وأصدق كل ما أسمعه. وقال الصحفي الذي خنق مصر كلها بريائه المفضوح الذي أثار قرف حتى من ينافقهم: عيبي أنني صريح وأقول للأعور يا أعور في عينه. كما قال لاعب الكرة الذي يتمارض عندما يكون الفريق في أشد الحاجة إليه ولا يلعب بحماس إلا إذا قبض مقدمًا: عيبي أنني أحب فريقي أكثر من حبي لنفسي وبسبب هذا الحب أخسر كثيرا. وقال الطبيب التاجر: عيبي هو إنسانيتي الزائدة التي تجعلني أتحمل فوق ما أطيق!

أرأيتم العيوب التي يعترفون بها.. كلها خصال حسنة وليس بها ما يشين أو يُخجل.. ولكن هل يتوقع أحد أن يصم إنسان نفسه بما يشينه أو يحط من قدره أمام الناس؟.. هل تتوقعون من الفنانة الشهيرة أن تقول للجمهور أن عيبها الأساسي هو حب النميمة وتأليف الحكايات الوضيعة عن زملائها وزميلاتها وإلصاق النقائص بهم؟ وهل جال بخاطركم أن يقول المطرب المحبوب أن عيبه الرئيسي هو الحقد الذي يملأ قلبه نحو المطربين الآخرين، وأن عيبه أنه يسعد لمصائبهم ويطرب عندما يواجهون سوء الحظ ويعانون الإخفاق؟ وهل تبلغ بنا الطيبة حد تصور أن يعترف الكاتب المعروف بأن عيبه الأساسي هو موائد القمار التي يقضي معظم وقته يجلس إليها؟ أو أن يقر الصحفي المتصيت أن عيبه الرئيسي أنه كذاب وأناني سواء في حياته الشخصية أو في مقالاته التي يحشوها بالكذب والتدليس؟ أو أن يحكي الطبيب عن عيبه الأبرز وهو الجشع الشديد وحب المال الذي يفوق كل شيء، ويسرد على الجمهور نماذج من الألاعيب الشريرة التي يمارسها على مرضاه حتى يظلوا يعانون المرض طول العمر ويظل نهر فلوسهم يتدفق إلى جيوبه على الدوام.

أعتقد أن المشكلة هي في السؤال نفسه وليست في الإجابات المتوقعة، وأتصور أن كسل مُعدّي ومقدمي البرامج، وتواضع حظهم من الثقافة والموهبة هي ما يجعل أسئلة مثل هذه قد صارت ماركة مسجلة لا يملون من تكرارها بالرغم من انقضاء سنوات طويلة منذ اخترعوها لأول مرة عام ١٩٦٠ لدى افتتاح التليفزيون المصري! ولا أدري كيف يتصور المذيع الساذج أو المذيعة العبيطة أن الأسئلة الخائبة ستفتح له مغاليق قلب الضيف فيبوح بما لا يقال ويفتح خزانة الأسرار، ومن ثم يحصل على حلقة دسمة. ولعل المذيع في وهمه هذا يتصور نفسه قسيس القرية الذي يذهب إليه الخطاة ليعترفوا

بذنوبهم بين يديه فتتطهر نفوسهم ويقتربوا من الخلاص!، وهي في الحقيقة سذاجة تليق بتليفزيون الريادة الذي ابتدع هذه الأسئلة السخيفة ثم صارت سنّة تتبعها القنوات العربية ولا تحيد عنها.
والحقيقة أنني بحكم الخبرة ومن طول العناء أصبحت قادرًا على التمييز بين المذيع السكافوللي والمذيع الجيد من أول وهلة ومن أمور بسيطة للغاية أود أن أخبر القراء ببعضها حتى يصيروا على بينة ولا يتمكن أحد من خداعهم. والأمر بسيط جدًا.. المذيع المتواضع المستوى سواء في الراديو أو التليفزيون ستجده سعيدًا في غياب كل أسباب السعادة! وهو بينما يرفل في بلهنيته يردد دائما الجملة التالية: سنقدم لكم الليلة العديد والعديد من الفقرات، أو برنامجنا يحفل بالعديد والعديد من الأغنيات، أو ندخر لكم العديد والعديد من المفاجآت.. أنا عندما أستمع لجملة بها «العديد والعديد» أفهم على الفور مستوى البرنامج ومستوى المذيع والمعد والمخرج والمحطة كلها. والأمر المؤسف أن مصر الرائدة قد علّمت الكثير من التليفزيونات العربية سواء أرضية أو فضائية هاتين الكلمتين السخيفتين: العديد والعديد. وربما أنه من أسباب إعجابي بقناة الجزيرة الإخبارية أنها من القنوات القليلة التي لا يردد مذيعوها كلمة العديد بمناسبة ومن غير مناسبة، ومن الواضح أنها قد أفلتت من تأثير أصحاب الريادة وخرجت عن الطوق. ولكن قد ينحسر هذا الإعجاب عندما نعرف أن دولة قطر حاضنة قناة الجزيرة تقع بها قاعدة «العديد» الجوية التي تتمركز بها القوات الأمريكية!
ومعنى هذا أن لديهم العديد.. الأصلي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هل صحيح أن النيل.. بدراوي؟

بنفس الاهتمام الذي يتابع به السيد الرئيس كل الكوارث التي تحدث للمصريين.. تابعتُ الأخبار التي نقلتها الصحف هذا الأسبوع عن حالات الوفاة التي حدثت بمستشفى النيل بدراوي، والتي عزتها إدارة المستشفى إلى أسطوانات الأوكسجين غير المطابقة للمواصفات، نافية عن المستشفى أية شبهة إهمال أو تقصير، في الوقت الذي رد مسؤول الشركة التي تقوم بتوريد أسطوانات الأوكسجين بأن المستشفى تداري إهمالها بالبحث عن كبش فداء.

في الحقيقة أنا لا أملك معلومات أكيدة عن أسباب الوفاة أو الإصابات الخطيرة التي حدثت للمواطنين، لكن أية معلومات عن إهمال في المستشفيات لا أجدها غريبة أو مثيرة للدهشة، ولو ثبت أن المستشفى قد تسبب بإهماله في موت المرضى فلن أعتبر هذا خبرًا يستحق النشر، لأن هذا يحدث كل يوم في جميع المستشفيات على أرض مصر. ولو ثبت أن المستشفى بريء من الإهمال وأن شركة أسطوانات الغاز هي المهملة فسيكون الخبر عاديًا أيضًا ويحدث يوميًا في كل المنشآت، بصرف النظر عن طبيعة نشاطها!

لكن لفت انتباهي في هذه الأخبار التي جعلت اسم مستشفى النيل بدراوي يتكرر على صفحات الصحف أمر أدهشني ونظرت إليه للمرة الأولى، ذلك هو اسم المستشفى نفسه. وجدت نفسي أردد الاسم عدة مرات: النيل بدراوي.. النيل بدراوي، ثم هتفت متسائلًا: ما معنى النيل بدراوي؟ هل هي جملة مكونة من مبتدأ وخبر؟ هل بدراوي هو وصف للنيل؟ لقد وصف الشعراء والمحبون نهر النيل بصفات لا أستطيع حصرها لكن أحدًا لم يقل أبدًا أنه بدراوي!. إن نهر النيل هو عشق المصريين وهواهم الأبدي، على شاطئيه نسجت قصص الحب وعلى صفحته تناجى المحبون منذ الأزل، وفي ليله المسكون بالسحر سطعت أجمل الأشعار وأرق القصائد. قالوا إنه النهر الخالد وتغنّى عبد الوهاب بقصيدة تحمل هذا الاسم من شعر محمود حسن إسماعيل وصف فيها النيل بأنه «واهب الخلد للزمان» وغنى عبد الحليم حافظ للنيل: «يا تبر سايل بين شطين يا حلو يا أسمر، لولا سمارك جوا العين ماكان تنوّر» من كلمات سمير محبوب وألحان محمد الموجي، وغنّى أيضًا من كلمات مأمون الشناوي: النيل والليل والشوق والميل.. بعتوا لي وجيت أسأل عنك. اشتقت إليك وحشتني عنيك.. مش عارف أهرب فين منك. كما شَدَت كوكب الشرق أم كلثوم برائعة أحمد شوقي «النيل» ومطلعها: من أي عهد في القرى تتدفقُ.. وبأي كف في المدائن تغدقُ. وبلغ حب شوقي للنهر الخالد مبلغًا دفعه لكتابة أغنية بالعامية لمحمد عبد الوهاب هي النيل نجاشي، وأولها: النيل نجاشي حليوة أسمر، عجب للونه دهب ومرمر. والعظيم بيرم التونسي كتب لأم كلثوم: شمس الأصيل دهبت خوص النخيل يا نيل.. تحفة ومتصورة في صفحتك يا جميل، والشيخ إمام صدح بكلمات نجم: حوالينا قلوب حبّابة ومعانا العشق بديل.. والشمس تصب صبابة والمنبع نهر النيل. ونجيب سرور كتب يوصي ولده: اكره واكره واكره بس حب النيل. ولا ننسى نجاة الصغيرة وكلمات مرسي جميل عزيز: عطشان يا اسمراني محبة، عطشان يا اسمراني.. املا لي القناني محبة، املا لي القناني.. يا نيل يا اسمراني. حتى لطيفة التونسية غنت من ألحان زياد رحباني للشاعر إلياس ناصر غنوة تقول: عشقانة والعشق جميل، عشقانة والوصف قليل.. عشقانة عشق حقيقي، عشقانة سهل طريقي، عشقانة أعطش أكتر أشرب من

شهد النيل. وجارة القمر فيروز شَدَت من كلمات وألحان الأخوين رحباني: مصر عادت شمسك الذهبُ، تحمل الأرض وتغتربُ.. كتب النيل على شطه، قصصًا بالحب تلتهبُ.

هذا هو النيل الذي كان المصريون القدماء يهبونه أجمل بناتهم حتى يظل يتدفق حاملًا خيره ونماءه، وهو نفسه الذي كتبوا عنه في كتاب الموتى أن المتوفى كان يعلن براءته من تلويث النيل. لهذا كله وبسبب أنني شخصيًا من محاسيب النهر الخالد فقد تعجبت أن ينسب النيل إلى اسم شخص، وكأنك تقول لمن يسألك عن النيل أنه على اليمين وانت داخل جنب مستشفى بدراوي! ولو أنهم أنصفوا لأسموا مستشفاهم بدراوي النيل، أي مستشفى بدراوي المجاور للنيل أو الذي يقع على كورنيش النيل. وهذا ما انتبه إليه الخواجة هيلتون عندما أقام فندقه بميدان التحرير بواجهة تطل على النهر فصار اسم الفندق (Nile hilton) أي هيلتون النيل بمعنى هيلتون المطل على النيل تمييزا له عن الفروع الأخرى، ولم يجرؤ أن يقول النيل هيلتون. كذلك الباخرة فرعون النيل التي تقوم برحلات على صفحة النهر نسبت نفسها إليه ولم تتجاسر وتقول النيل فرعون. ربما تكون التسمية العجيبة التي أزعجتني قد حذت حذو شوقي أمير الشعراء عند قوله النيل نجاشي على اسم النجاشي إمبراطور الحبشة، وهي تسمية متجاوزة نغفرها لشوقي ولا نغفرها لسواه.

وبالرغم من كل ما سبق فلا أنفي احتمال أن أكون مخطئًا في تقديري ويكون النيل في غيابي قد صار بدراويًا وأنا لا أدري.

عندما طرحت السؤال على أصدقائي بالقهوة قال أحدهم بلهجة العارف: إن النيل الآن شعراوي، وقال آخر: بل هو شبراوي لكن.. (الشبراوي الكوربة)!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أوتوبيس الفن وتَكتَكَهَ

حملت صحف الأسبوع الماضي خبرًا يقول أن السيد رئيس هيئة قصور الثقافة قد قرر تنحية مديرة إدارة «أوتوبيس الفن الجميل» عن منصبها وإسناده إلى غيرها. أدهشني الخبر ولم أفهم معنى مدير إدارة أوتوبيس الفن الجميل!. سألت أحد أصدقائي ويعمل بشؤون الأفراد منذ ٤٠ سنة ويعرف دهاليز الإدارات الحكومية عما إذا كان بالحكومة إدارات خاصة بالأوتوبيسات التي تهتم بالفنون، والجميل منها بالتحديد، فأمهلني يومين ثم عاد إليّ بالإجابة وقال في ثقة: إن أوتوبيس الفن الجميل هو الذي يوجد به فيديو وشاشة لعرض الأفلام أثناء الرحلة، وهذا ينطبق على شركات كثيرة مثل شرق الدلتا وغربها وشمالها وجنوبها وغيرها من شركات الأوتوبيس التي تُسيّر رحلات داخل مصر، وأضاف صديقي أن كل شركة من هؤلاء تخصص إحدى سياراتها لعرض الأفلام القديمة (أفلام الزمن الجميل) التي أمتعنا بها فنانون مثل ليلى مراد وأنور وجدي وفريد شوقي وهدى سلطان وغيرهم.. وفي هذه الرحلات تقوم المضيفة التي تبيع لك السندوتشات والعصائر بالإكراه بتشغيل الفيلم بعد أن تطمئن إلى أن الركاب أكلوا وشربوا.. ودفعوا!.

لم تعجبني إجابة صديقي ووجدت بها ثغرات كثيرة.. فعلى سبيل المثال من هو المسؤول عن بقية الأوتوبيسات التي تعرض أفلام الزمن الحالي وهل هناك إدارة لأفلام الزمن القبيح؟ ثم وهو الأهم ما الذي يجعل تبعية هذه المركبات لهيئة قصور الثقافة، وكان الأولى أن تتبع وزارة النقل. قمت بعمل بحث على النت حتى أعرف حقيقة أوتوبيس الفن الجميل. لم أجد الكثير لكني أدركت أن صديقي كان يهرف بما لا يعرف وأن هناك أوتوبيسًا حقيقيًا تشكلت له إدارة بوزارة الثقافة ويقوم هذا الأوتوبيس بمهمة نشر الفن في ربوع القطر المصري وتعريف الأطفال بأهمية الفنون. وكان مما قرأته أيضًا أن هذا الأوتوبيس قد قام برحلات من الصعيد إلى السلوم إلى سيناء وحلايب وشلاتين وقرأت على لسان مديرة إدارة الأوتوبيس (التي تمت إقالتها) أن ٥٠٠ طفل قد استفادوا من المشروع في خلال السنوات الماضية.

وجدت الفكرة في حد ذاتها طيبة، لكنها لا تفترق عن الحسنات والصدقات التي يقدمها الناس للمعوزين.. تمنح صاحبها شعورًا بالارتياح لكنها لا تحل مشكلة الفقر. ما جدوى أوتوبيس واحد في بلد شاسع، يشكو مسؤولوه من زيادة السكان وكثرة الأطفال الذين تبشرهم الحكومة بأنهم لن يجدوا لقمة يأكلونها أو مدرسة يلتحقون بها، ووصل الأمر إلى درجة توجيه نداء «وقفة مصرية» إلى عموم الشعب ليكف عن الإنجاب، وفاتهم أن هذا الإنجاب كان نتاج «وقفة» أخرى في أرخص ليالي للمصريين، فلماذا يدعون إلى وقفة من جديد.. ألا يخشون نتائجها؟!

أما الأسئلة المنطقية التي يطرحها موضوع الأوتوبيس بما أنه أوتوبيس حقيقي وليس نكتة هي: هل هناك كمساري لهذا الأوتوبيس وهل له خط سير معروف ومحطات يقف فيها؟ هل الكراسي مساوية لعدد الركاب أم أن هناك وقوفا بالأوتوبيس؟ هل الكمساري يشخط في الأطفال: ادخلوا جوه.. العربية فاضية في النص؟ هل يقوم السواق بدفع «الكارتة» عند خروجه من الموقف؟ وهل يتركه رجال المرور في حاله باعتباره يؤدي عملًا ثقافيًا أم يفرضون عليه ما يفرضون على غيره؟ هل استعد السواق بشنطة الإسعافات وتأكد من أن لفات الشاش قانونية وأكياس القطن مصنوعة من أجود الأقطان طويلة التيلة؟ كيف يمكن عمل أبونيه أو اشتراك سنوي وبكم؟ هل هناك من يركبون

«مصلحة» باعتبارهم يعملون بالوزارة أو بالهيئة ويحرمون الأطفال من الركوب؟ هل الرحلات التي يقوم بها الأوتوبيس شاملة الوجبات؟ وما هي الفنون الجميلة التي يقدمونها للأطفال الذين يصلون إليهم في حلايب وشلاتين؟ هل هي سيمفونيات بيتهوفن وموتسارت.. هل لوحات جوجان وفان جوخ؟ هل يعرضون لهم أفلامًا وأي أفلام؟ هل تدخل أفلام محمد سعد وأحمد آدم وهنيدي ضمن الفن الجميل الذي يعرضونه، أم يحملون معهم أفلام وودي آلان وإنجمار برجمان وستانلي كوبريك؟ هل هناك إمكانية للتوسع في عدد الأوتوبيسات حتى تكون الخدمة حقيقية ومفيدة فعلًا وليست عملًا رمزيًا يمنح بعض الناس وظيفة مدير إدارة! هل يمكن إدخال وسائل جديدة للنقل إضافة للأوتوبيس حتى تكون الفائدة أشمل؟ أنا أعلم صعوبة الاستعانة بالترام لأن معظم خطوط الترام تم إلغاؤها بسبب كونه وسيلة نقل نظيفة ليس لها عادم، والمسؤولون لا يحتملون شيئا نظيفا، أو ربما ألغوه لأنهم تعبوا من تركيب السنجة التي تقع في أوقات حرجة!.. وماذا عن الميكروباص الذي صار وسيلة الانتقال الأساسية للمصريين؟ ألا يمكن الاستعانة به للدخول للأماكن الضيقة التي لا يصل إليها الأوتوبيس، أعتقد أن الميكروباص فكرة طيبة تتغلب على الروتين وخاصة أنه يمكن تشغيل تلامذة إعدادي سائقين له فنفتح لهم بهذا أفقًا ثقافيًا وبابًا للرزق في نفس الوقت. وهناك فكرة أجمل هي الاستعانة بأحدث وسيلة انتقال عرفتها مصر.. التوك توك الجميل الذي يناسب تقديم الفن الجميل، والميزة الرئيسية له أنه يمكن انتقاء سائقيه من بين تلامذة ابتدائي.. ما رأيكم؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العولمة ووثيقة الحقوق الدينية

أصدر البرلمان الجزائري في ١٥ مارس ٢٠٠٧ قانونا يحدد ممارسة الشعائر الدينية لغير المسلمين في الجزائر أقر فيه منع استعمال وسائل الإغراء وجمع التبرعات والهبات بغرض استمالة الأشخاص لاعتناق ديانة أخرى والتشكيك في عقيدة الجزائريين الإسلامية. وما دعا إلى هذا الإجراء هو تنامي ظاهرة التنصير، خاصة بمنطقة القبائل ذات الأغلبية البربرية، مما أثار جدلا سياسيا واجتماعيا شديدا في البلاد بعدما تمددت الكنيسة الإنجليكانية بدعم من جمعيات بريطانية وأمريكية.
كما قام البرلمان المصري الأسبوع الماضي ممثلا في لجنته للشئون الدينية بإلغاء وثيقة الحقوق الدينية التي وقعها الأزهر العام الماضي والتي كانت تبيح لجماعات التنصير حرية العمل في مصر بعد أن كثر الجدل بشأنها، وبعد أن نفى شيخ الأزهر معرفته بها وكذّبه وكيل الأزهر السابق وقال أنه وقع الوثيقة نيابة عن شيخ الأزهر وبتعليمات مباشرة منه!!.. فما هو يا ترى الرابط بين ما يحدث في مصر وما يحدث في الجزائر؟ وما الذي دعا البرلمان في البلدين لأن ينتفض فجأة ضد التبشير الذي يجري منذ سنوات دون معارضة؟.. في البداية تعالوا نقرأ نص الوثيقة:
تنص الوثيقة على أن الموقعين عليها يقرون: «بحق كل فرد في الإيمان بأي دين يشاء، وأن لكل فرد الحق في مناظرة حقائق دينه دون خوف من انتقام، وأن لكل إنسان حقا مقدسا في اعتناق أو رفض اعتناق دين من الأديان دون التعرض لأذى من قبل أية جهة دينية أو سياسية، وأنه لا يحق لأية جهة دينية أو سياسية أن تتدخل في الخدمات الروحية لأتباع دين آخر، وأن لكل فرد الحق في تعلم حقائق دينه والحصول على كتبه المقدسة، وأن لكل إنسان بغض النظر عن انتمائه الديني أو العرقي أو الوطني الحق في أن يعيش بسلام مع جيرانه مهما كان معتقدهم وأن لكل فرد من أي دين الحق في أن يستمع إلى فرد من معتقد آخر وأنه لا يحق لأحد التدخل أو تعطيل خدمة روحية لغيره وأن لكل ساع وراء المعرفة الحق في الذهاب إلى أية خدمة دينية لإرضاء معرفته.. وأنه لكل إنسان الحق في أن يشارك الآخرين معرفته».
من الواضح في الوثيقة أنها جاءت ملائكية الصياغة رائعة التدبيج وأن من كتبوها هم نفس الذين صاغوا قوانين «اتفاقية الجات» التي تسمح للصناعة المصرية أو المنتجات الصومالية والبوروندية بالحق في التواجد داخل أسواق العالم دون قيود مثلما أن للولايات المتحدة وأوروبا وأية دولة الحق في أن تتواجد بصناعاتها ومنتجاتها في السوق المصري وأسواق أي بلد آخر! كذلك من الواضح أن الذين صاغوا وثيقة الحقوق الدينية هم أنفسهم الذين أعلنوا سياسة السموات المفتوحة في عالم بيزنس صناعة الطيران بما يعني السماح لأي ناقل جوي بالعمل في أي سوق دون أن يحكم وجوده أي عائق سوى قوانين المنافسة وقوى العرض والطلب.. أي يكون من حق الشركات الأمريكية والأوربية نقل الركاب من اليمن مثلا إلى دمشق مثلما للخطوط اليمنية والسورية الحق في العمل بين العواصم الأوربية!.. من الواضح طبعا أن هذه الحقوق متساوية فقط على الورق، أما في الواقع الفعلى فلا يملك الاستفادة منها سوى الأقوياء الذين يستطيعون غزو العالم الضعيف بمنتجاتهم، كما يملكون الأساطيل الجوية التي تستطيع الاستفادة من السموات المفتوحة والعمل بحرية داخل كل البلاد، في حين لا تستطيع جيبوتي مثلا توفير وسائل للنقل الداخلي.. فكيف تستفيد من الاتفاقية وتنافس الناقلات الأمريكية في السوق الأمريكي!

إنها إذن قوانين النظام العالمي الجديد الذي يتمدد فوق خريطة العالم ويبسط هيمنته الفكرية والثقافية على الجميع.. وهذا في ظني هو ما أفزع الجزائريين وجعلهم يشعرون أن المد قد صار عاتيًا للغاية وأن الزمام قد يفلت من يد الدولة داخل المجتمع المحتقن فأصدروا تشريعهم الصارم الذي يعاقب المبشرين بالسجن من سنة إلى خمس سنوات، وهو نفس ما حدا بالبرلمان المصري إلى إلغاء وثيقة الحقوق الدينية، وإن كان لم يذهب إلى تجريم النشاط التبشيري. والأمر الجدير بالذكر هنا أن الخط الهمايوني الذي يطالب الإخوة الأقباط بإلغائه كما نطالب نحن.. كان في أحد وجوهه استجابة لنداءات الكنيسة المصرية واستغاثاتها من النشاط التبشيري الكاثوليكي والبروتستانتي الذي لم يجد صدى في أوساط المسلمين بينما شكل خطرا بالغا في أوساط الأقباط خاصة في الصعيد.

لكن ما يثير الدهشة في موضوع الوثيقة هو موقف الأزهر الذي قام بتوقيعها ثم تبرأ منها في نادرة غريبة.. فإذا كان يرى فيها خيرا، فلماذا لم يدافع عنها ويشرح للرأي العام فوائدها وأهدافها التي حدت به إلى توقيعها، ولماذا يقسم شيخ الأزهر بأنه لا يعرف عنها شيئا بينما يقسم نائبه بأن شيخ الأزهر هو الذي طلب منه توقيعها، ومن منهما يا ترى لا يقول الحقيقة ولماذا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صحافة قنصل الوز

الصحافة الحكومية حماها الله كان لها في الفترة الماضية تغطية متميزة في قضية ناشطة الإنترنت إسراء عبد الفتاح التي كانت ضمن الداعين إلى الإضراب والبقاء في البيت كنوع من الاحتجاج السلمي على تآكل غضاريف رُكب الوطن وتدهور أحوال المواطن. تمثلت هذه التغطية الراقية في المتابعة الدؤوبة للفتاة إسراء وملاحقة القرارات الأربعة الشهيرة التي صدرت بحقها، والكتابة عنها بشكل يومي منذ القبض عليها حتى عودتها لبيت أهلها.. فماذا كانت هذه القرارات وكيف كانت التغطية والمتابعة؟

صدر القرار الأول بالقبض على إسراء بينما كانت تشرب شايا بحليب على القهوة، وتم تقديمها للنيابة بتهمة الدعوة لإضراب ٦ إبريل الماضي. والحق أن الصحافة الحكومية لم تقصر في الدفاع عن الوطن ولم تتوانَ عن إدانة إسراء وأصحابها من أولاد الفيس بوك، ولم تتردد في تأييد القرار الإنساني بالقبض عليها لدرء خطرها عن المجتمع، خاصة وقد أصبح لها جمهور ومريدون من الممكن أن يتأثروا بأفكارها الضالة. هذا هو القرار رقم واحد الذي هللت له الصحافة.

القرار رقم اثنين كان قرار السيد النائب العام بالإفراج عن إسراء بعد أن ثبتت براءتها مما نسب إليها، ولم تجد النيابة ما يدعو لبقائها رهن الحجز فأمرت بإطلاق سراحها. والحق أن الصحافة الحكومية الحرة لم تقصر في تحية القرار الإنساني العظيم للنيابة العامة بالإفراج عن الفتاة البريئة التي كادت تدخل السجن مع المجرمين دون ذنب جنته. وهنا أثبتت الصحافة للمرة الثانية انحيازها للوطن وأبنائه وتمثلهم المواطنة إسراء عبد الفتاح.

القرار الثالث الذي فاجأ الجميع ما عدا الصحف الحكومية التي تستطيع أن تتحمل أية خضّة كان بعدم تنفيذ قرار النائب العام بالإفراج عن البنت، ثم صدور قرار من وزارة الداخلية باعتقالها وحبسها في سجن القناطر. وللمرة الثالثة يتبين لصحافة الحكومة مدى الإنسانية والرحمة في القرار الجديد الذي صدر من أجل مصر، ويتبين أن الإفراج عن الفتاة الصغيرة لم يكن يحمل للوطن الخير المأمول، وأن هناك في الموضوع رؤية أشمل تتعلق بصالح المجموع في مقابل المصلحة الضيقة للفرد، وتكتشف الصحف أن التضحية بإسراء وإلقائها وراء القضبان وهي بريئة هي أقل خدمة تستطيع مواطنة مثل إسراء أن تقدمها للوطن الذي منحها كل شيء دون أن يسألها أي شيء. ومن ثم فقد قامت تلك الصحف بنهش إسراء وأهلها وأصدقائها وجيرانها وتقوّلت في حقهم بالباطل ونعتتهم بأوصاف لا تليق. ولم يكن هذا عن غل وعدوانية أو حماقة أو موالسة، ولكن كانت كل هذه الغباوة في حب مصر.

رابع القرارات التي صدرت بعد قليل وتتعلق بالمواطنة إسراء كان قرار وزارة الداخلية الإنساني بالإفراج عنها وإطلاق سراحها وتركها تعود لحضن والدتها في لفتة إنسانية كريمة لا تخفى دلالتها ولا تحدث كل يوم بالإفراج عن إنسان بريء لم يفعل ما يخالف القانون وقد صدر قرار من النائب العام بالإفراج عنه، ورغم هذا تتركه وزارة الداخلية يعود إلى أهله!.

هنا.. وهنا بالتحديد تتجلى روعة الصحافة الحكومية التي تحاملت على نفسها وارتفعت فوق أوجاعها واضطرت لأجل صالح الوطن أن تؤيد قرار الإفراج عن إنسان بريء كان ينبغي أن يمضي بقية عمره في السجن كما تقضي الأصول.

ما الدرس الذي نخرج به من التأييد الصحفي الحكومي لأربعة قرارات يناقض بعضها بعضًا ويلغي أحدها الآخر؟.. أعلم أن البعض سيتسرع في الحكم ويتحدث عن الولس وصحافة الولس التي تؤيد الأمر وتؤيد عكسه حسب ملء الزمبلك. هذا الكلام أنا لا أستسيغه ولا أحب أن أسمعه لأكثر من سبب؛ أولًا لأن هذه الصحافة ضربت لنا مثلًا في أهمية العودة إلى الحق عند تبينه وعدم التشبث بالخطأ عند اكتشافه، فغيرت موقفها أربع مرات في أسبوعين وأيدت أربعة قرارات إنسانية في بروجرام واحد، وهذا ليس بالأمر الهين. وثانيًا لأن كلمة الولس هذه كلما ذُكرت تستدعي إلى ذهني اسم الممثل والمخرج العظيم أورسون ويلس بطل فيلم «المواطن كين» الذي تم تصنيفه رقم واحد على رأس أحسن مائة فيلم في تاريخ السينما.. ولا أحب أن يقترن اسم فنان كبير كهذا بمعنى النفاق والموالسة. وربما لهذا السبب فإن النطق الإنجليزي للاسم يجنب الرجل الوقوع في الحرج فينطق ويلز وليس ويلس، وأعتقد أن الناس في مصر تذكر كيف كان أولاد البلد الذين يعجزون عن نطق اسم هذا الفنان الكبير بشكل صحيح يستسهلون فيقولون «قنصل الوز» وصار الأمر بعدها نكتة وأصبح الناس يطلقون قنصل الوز على من يتصور نفسه شيئا وهو لا شيء.

لهذا أدعو الذين يسيئون الظن بصحافة الحكومة ولا يستطيعون أن يمسكوا ألسنتهم الطويلة عن انتقادها ونعتها بالنفاق والموالسة أن يتأسوا على الأقل بأولاد البلد بتوع زمان وأن يشطبوا من قاموسهم كلمة صحافة الولس لقسوتها الشديدة وأن يخففوها بقولهم: صحافة قنصل الوز.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قرارات عنترية.. في الهجايص

تدهشني قراراتنا السريعة ردًا على الأحداث التي تفاجئنا ولا نجد سبيلًا للرد عليها غير اتخاذ قرارات انفعالية لن تجد طريقها أبدًا إلى التنفيذ.

منذ عدة شهور ألمح المسؤولون إلى نيتهم طرح بنك القاهرة للبيع لمستثمر أجنبي. وقتها انبرى الغيورون على المال العام معلنين إدانتهم استسهال بيع الأصول بدلًا من حُسن إدارتها، ولكن البعض في فورة الحماس أعلن عن فتح حساب بنكي حتى يقوم المواطنون بالاكتتاب لشراء البنك من الحكومة ومنعها من بيعه للأجانب. طبعًا الأماني الطيبة والنوايا الحسنة غير خافية في هذا الإجراء.. ولكن غير خاف أيضًا سذاجة الطرح غير الواقعي وغير العملي حيث إن أعضاء مجلس النقابة التي تولت هذا الاقتراح لم يضع أي منهم قرشًا واحدًا في الحساب المذكور، وإنما الموقف الحنجوري كان هو الغاية دون الاجتهاد في أخذ موقف فعال وحقيقي قد تكون له كلفته بعيدًا عن طق الحنك المجاني.

وغير بعيد عن هذا أيضًا القرار الغريب الذي اتخذه نقيب الممثلين بعدم الاستعانة بالممثلين العرب في الأعمال الدرامية المصرية إلا مرة واحدة على الأكثر في السنة. قرار عجيب لا يمكن تنفيذه لعدة أسباب على رأسها أن المخرج حر في اختيار فريق العمل الذي يعمل في فيلمه، وحتى لو اختارهم من جمهورية الدومينيكان، فلا شأن لنقيب الممثلين باختياراته، إنما عمل نقيب الممثلين أن يرعى مصالح الممثلين المصريين إذا اختارهم المخرج للعمل معه، مثل أن يضمن تقاضيهم لأجورهم واشتغالهم في جو لا يعرضهم للمخاطر، كذلك بقية الأشياء التي تقدمها النقابات لأعضائها مثل المصايف ومعارض السلع المعمرة وهكذا.. هذه هي الأشياء التي يحق للسيد النقيب أن يتدخل فيها، أما محاولة منع الفنانين العرب أو حتى الأجانب من الاقتراب والتصوير! فأمر لا يليق، والغرض الوحيد منه هو أصوات الجمعية العمومية في الانتخابات القادمة رغم أن القرار العنتري لن يتم تنفيذه.

ثالث النماذج العجيبة هو القرار الذي صدر عن وزارة الخارجية هذا الأسبوع وقرأت بشأنه في جريدة المصري اليوم ما يلي: أصدرت وزارة الخارجية تعليمات مشددة للموانئ والمطارات المصرية بمعاملة أي مسؤول بريطاني بنفس الطريقة التي تعامل بها مسؤولو الأمن بمطار هيثرو مع البابا شنودة خلال زيارته لندن يوم ٣٠ مارس الماضي حيث تم إجباره على المرور عبر البوابة الإلكترونية ومحاولة تفتيشه. عند قراءة الخبر وجدتني أضحك من تناولنا الهازل للأمور الجادة، وما أثار ضحكي على هذا القرار الذي يظهر أن غايته الثأر لما حدث لرمز مصري كبير هو تأكدي من عدم قدرتنا على تنفيذه لأكثر من سبب، أهمها أننا لا نملك إجراءات موحدة تطبق على كل البشر ويتم استثناء الشخصيات الكبيرة فقط منها. لكننا نملك في كل أحوال حياتنا مئات المعايير والمكاييل التي تتغير في اليوم الواحد عدة مرات، وعلى سبيل المثال نلاحظ جميعًا عند هبوطنا من الطائرات السادة الذين يرفعون لافتاتهم التي تحمل بعض الأسماء مع المناداة بصوت عال على المحظوظ صاحب الاسم الذي يجد من ينتظره ليعبر به كل إجراءات الجمارك والجوازات. فإذا كان الحال هكذا مع شخصيات عادية وتافهة، فما الذي يستطيعون فعله مع شخصية بريطانية كبيرة؟ إنني أتصور أن أحط صعلوك إنجليزي يصل لأحد الموانئ المصرية يستطيع بمساعدة حزب «حمد الله ع السلامة يا باشا» الذين يقابلون القادم من الخارج وأيديهم ممدودة طلبًا للحسنة.. يستطيع أن يحظى بمعاملة الملوك إذا شخشخ جيبه وأظهر بعض الكرامات الإسترلينية! فما بالك برئيس أساقفة كانتربري الذي

نتوهم أننا قادرون على إهانته إذا تجرأ وهبط إلى الأراضي المصرية!. ثم ما الذي يجعل وزارة الخارجية المصرية تتوهم أن التعليمات التي أصدرتها في هذا الشأن سوف تجد آذانا مصغية لدى سلطات المطارات والموانئ، وهي الجهات التي لا تتلقى تعليماتها من وزارة الخارجية، فبعضها يتبع وزارة السياحة وبعضها يتبع وزارة الطيران المدني وجزء منها يتبع وزارة المالية والباقي كله يتبع وزارة الداخلية.. علاوة على مسألة أخرى أساسية هي أن هذه التعليمات غير محددة وغير واضحة، وإنما تترك لكل موظف أن يفسرها على هواه، والواضح منها فقط أننا نريد بهدلة أية شخصية بريطانية كبيرة بأسرع ما يمكن، وهو الأمر الذي إذا ما حدث وتهور فيه موظف متحمس قد يلحق الضرر بمصالح مصر التي لا تستغني عن المعونات الأجنبية وتريد في الوقت نفسه أن ترفع رأسها! وعندها لا يتعجب أحد إذا تم الاعتذار للشخصية البريطانية ولحْس كل الحديث عن الكرامة والمعاملة بالمثل، ثم التنكيل بالموظف المسكين الذي لم يفهم أن الموضوع كله تهويش.. وكله في الهجايص!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وطن على كبالن

الوطن ليس مجرد خرابة نعيش فيها
لكنه خرابة تعيش فينا

عاطف حلمبوحة

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حوار خارج عنبر العيش

استمعت دون أن أقصد إلى الحوار التالي بين اثنين يجلسان على دكة بالحديقة الملحقة بالمبنى:
الرجل لصديقه: غدًا في المساء أذهب إلى منزل أهل ليلى حبيبتي لأخطبها منهم.. ادع لي أن يكلل مسعاي بالنجاح وألا أصادف أي عثرات غير متوقعة. قال الصديق: عثرات مثل ماذا؟ قشرة موز مثلًا تكسر رجلك فتقعدك ثلاثة شهور بالسرير؟ رد غاضبًا: لا يا خفيف.. عثرات يعني طلبات مبالغًا فيها، أو كأن يرفضني أهلها لأن ابن عمها أولى بها مني. سأله صديقه: وهل لها ابن عم ينافسك في حبها؟ قال: ليس لها أبناء عمومة من الأساس ولكني غير مطمئن. سأله صديقه متعجبًا: تقول إنه ليس لها ابن عم ومع هذا تخشى أن يخطفها منك؟ قال وقد أوشك صبره على النفاذ: ماذا حدث لك؟ كنت زمان تفهمني قبل أن أفتح فمي بالحديث، والآن ترهقني بتفسير كل جملة.. برأيك ماذا تخالهم قد يطلبون مني لتعجيزي وصرفي عن مطلبي بطريقة شيك؟ أجاب الصديق: من الممكن أن يطلبوا منك ألف ناقة من النوق العصافير من أرض الملك النعمان. قال: والله أنا لم أذهب في حياتي لأبعد من أرض علي خليل بالعباسية.. أما أرض الملك النعمان فأنا أعرف أنها في القطامية هايتس لكن أين بالضبط.. لا أدري. قال الصديق متعجبًا: أرض الملك النعمان في القطامية؟ يبدو أنك تتحدث عن أرض الملك المغربي أو الملك سليمان! فرد: ولماذا قد يطلب أهل ليلى ألف ناقة أنثى، لماذا لا يطلبون ألف بعير ذكر؟ قال الصديق: يمكن لأن أهل ليلى خلفتهم كلها بنات، فقد يتحيزون للنوق على حساب البعر! قال: على العكس.. إن خلفتهم للبنات قد تجعلهم أكثر تقديرًا للذكور وافتتانًا بهم. قال الصديق: ربما كحل وسط قد يطلبون المهر على شكل قافلة من الجمال المُرد؟ قال: وكيف يمكن يا ناصح فرز الجمل الأمرد من سواه؟ ثم إن حماتي لا تملك ساحة تكفي لإيواء ألف ناقة، والأهم أنني لست عنترة بن شداد ولا حبيبتي هي عبلة بنت مالك. قال الصديق: عندك حق، إن أحدًا لم يعد يطلب اليوم مهرًا من هذا النوع، لكني أريدك أن تكون مستعدًا للمفاجآت، فقد يطلبون عوضًا عن اللحوم الحية شحنة ضخمة من البولوبيف الذي يسهل تخزينه ولا يحتاج لأن يأكل أو يشرب أو يخرج إلى الخلاء. قال: عم تتحدث؟ هل تريد أن تدفعني للجنون؟ إن البلوبيف خارج الموضوع تمامًا. رد الصديق: ربما كنت على حق، ولكن هناك شيئًا لم يخطر لنا على بال أود تنبيهك إليه.. حبيبتك اسمها ليلى.. ألا تظن أنهم قد يبحثون لها عن قيس؟. قال: ما زلت مصرًا على إغاظتي.. متى كان أهل ليلى العامرية يوافقون على تزويج ابنتهم من قيس، لو كان الأمر كذلك لما هام على وجهه حتى فقد عقله ولقب بالمجنون. قال الصديق: إذن قد يزوجونها وردًا.. ألم تتزوج ليلى من ورد؟ قال: لا ورد ولا فل، ولو سمحت لا تُقحم الأزهار في حديثنا. علّق الصديق: وماذا لو كان أهل ليلى ينتوون تزويج ابنتهم من ياسمين؟. قال: وهل هناك رجل اسمه ياسمين يا مجنون؟. قال الصديق: هناك رجل باكستاني أعرفه اسمه ياسمين خان.. ربما كانوا يفكرون فيه. قال: لو مضيت في حديثك عن رجال بأسماء زهور فسوف أنهي هذا الحديث على الفور. قال الصديق: أوكيه لا مزيد من الزهور، ولكن إذا كانوا يريدون تزويجها من رجل باكستاني فلن يجدوا خيرًا من رجل اسمه فيروز محبات، أو نسرين جواهر أو جنّات مختار. قال: من الذي أتى على سيرة رجال باكستانيين يخرب عقلك يا مخرف، ثم إن كل الأسماء التي أسلفت ذكرها هي أسماء سيدات فهل تريد أن تزوج خطيبتي لواحدة ست؟ قال الصديق: بل هي أسماء رجال والأمر ليس كما يبدو لنا، ومع هذا لم تخبرني.. من أية جنسية تنوي حبيبتك أن

تتزوج؟ قال: يا مثبت العقل والدين، سوف تتزوج من رجل مصري هو أنا، وسوف أتقدم لخطبتها اليوم وأنا أسألك أية هدية أشتريها لها؟. قال الصديق: خذ سُباطة بلح سماني.. يقال إنه رسول طيب بين العشاق. قال: لا أظن أن البلح السماني يستطيع أن يحمل حبي ويضعه على أعتابها، لكن ربما كان البلح الأمهات يستطيع! فوافق الصديق قائلًا: إذن خذ بلح أمْهَات، ثم استدرك متسائلًا: ولكنك لم تخبرني كيف ستتمكن من الخروج من هنا من أجل إتمام إجراءات الخطوبة.. هل ستقفز من السور مثلما حاولت الشهر الماضي وكادت عنقك أن تدق أم ماذا؟

قبل أن يحصل على إجابة كانت عصا التومرجي الرفيعة قد نالت من كل منهما وهو يصيح: اجمع كل المجانين.. كله يدخل العنبر.. الفسحة انتهت.. عنبر العيش يسمع الكلام، لا أحد يسبب لي المتاعب مثل عنبر العيش!

اقتربتُ من التومرجي بحذر خشية أن يظنني نزيلًا ويلسعني بعصاه وسألته عن ماهية عنبر العيش ومعناه، فقال السيد التومرجي الذي يسوق المرضى في مصحة الأمراض العقلية بالعصا: هؤلاء يا سيدي هم الذين فقدوا عقولهم في طوابير العيش في كل أنحاء مصر يتم تجميعهم في هذا المكان حيث يعكف أساتذة من كبار الأطباء على دراسة الظاهرة، ذلك أن جنون العيش قد استشرى وينذر بكارثة.

خرجت من المستشفى وبي شغف للعودة حتى أعرف ماذا سيفعل الرجل حتى يتمكن من الخروج ويذهب إلى حبيبته طالبًا يدها ومعه قرطاس من البلح الأمهات، قبل أن يسبقه الخليجي عنترة العبسي أو الباكستاني فيروز مُحبات!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مدد يا شمبليون.. مدد

الأسبوع الماضي بينما كنت أتقدم بالسيارة ببطء شديد في شارع شمبليون من جهة عبد الخالق ثروت إذا بالأرض تنشق فجأة عن شخص لا أعرفه يقوم بإدخال رأسه من النافذة ويسألني في صوت أجش: كبالن؟ قلت له في فزع: ماذا؟ أعادها ثانية: كبالن؟ قلت له: حضرتك غلطان.. أنا أسامة. استمر يلاحقني ولم يفقد الأمل. أوقفت السيارة تمامًا وواجهته قائلًا: كبالن إزاي يعني؟ ابتسم ابتسامة مخيفة وقال موضحًا: هل تريد أن تصلّح كبالن؟ سألته: الكبالن هي شيء في السيارة؟ قال: طبعًا نحن نصلح كل أنواع الكبالن. قلت له: شكرًا أنا كل كبالني سليمة. يئس مني وانصرف وتركني أسرح في موضوع الكبالن وقد بدت لي شيئًا أشبه باللغاليغ التي لم أعرف أبدًا طبيعتها. بعد خطوتين ظهر لي شخص آخر ووجه إليّ السؤال ذاته: كبالن؟ قلت: يا دي اليوم الغريب ثم أغلقت الشباك. بعدها توقفت السيارة التي أمامي ولاح لي حشد كبير من الناس يسد الأفق المنظور وقد علا صياحهم وجلبتهم. نزلت من السيارة أستطلع الأمر فاكتشفت أن طابور العيش قد خرج من إحدى الحارات الجانبية وفاض على الشارع وتمدد في اتجاه شارع معروف. كان المرور قد توقف تمامًا في الشارع الذي يمتلئ بالورش التي يبدو أنها جميعًا قد تخصصت في الكبالن، وبات جليًا أن المنافسة الشديدة جعلتهم يتصيدون الزبائن من أول الشارع عن طريق مباغتة الناضورجي للزبون وإدخال رأسه في السيارة ثم إطلاق السؤال الفلسفي العميق: كبالن؟

فوجئت بالطابور الحاشد يميل بشدة تحت وطأة موجة عاتية قادمة من داخل الحارة ورأيت الناس يتكومون فوق بعضهم على أرض الشارع ثم يقومون في غضب ينفضون ملابسهم ويتحسسون الرؤوس التي أصيبت والأقدام التي التوت والأجساد التي دُعست، وصوت السباب يتعالى ويختلط بصوت الدعاء على الكفرة والمشركين، الظلمة المفترين الذين حطموا كبرياء الناس وأذلوهم في رحلة البحث عن الرغيف. وقفت أرقب المشهد بعد أن أطفأت محرك السيارة وقد أيقنت أن المرور لن يتحرك إلا بعد أن ينفذ الخبز من الفرن، ويفرغ آخر شوال دقيق. الفرجة من الخارج تدفع للغضب لكنها تختلف بالتأكيد عن مكابدة أهوال الوقوف في الطابور. حمدت الله أنه بعد سنوات الغربة قد نجّاني من هذا المصير، لكن كسر قلبي تقديري أن نصف أقاربي على الأقل ينتشرون في طوابير القاهرة وضواحيها. ورأيت لطابور العيش وجهًا قبيحًا شديد البشاعة يتمثل في أن الإنسان ينزل عادة لشراء الخبز من الفرن القريب من منزله.. وهذا يعني ببساطة أن الذين يزاحمونه ويزاحمهم في الطابور هم جيرانه الأقربون وسكان نفس بيته ونفس شارعه والناس الذين قضى معهم جُل عمره، هم الذين يجاملهم ويجاملونه في الأفراح ويساندهم ويساندونه في الشدة، وهم أيضًا الذين يطرق أبوابهم في الليل إن احتاج لإسعاف أو طبيب، والذين يقترض من بعضهم لإكمال الشهر ويدخل معهم جمعيات من أجل كسوة العيد، وهم كذلك الذين يقصدون زوجته أو تقصدهم في كُباية زيت سلف أو بصلة وفصين توم أو باكو شاي لأول الشهر.. إنهم جيرانه وأحباؤه وذخره للأيام السوداء يجد نفسه يدوس على رقابهم في الطابور حتى يظفر ببضعة أرغفة، فأي جُرم ألحقته هذه الحكومة بالروابط النفسية والاجتماعية بين أهل الشارع الواحد والبيت الواحد.. أي جُرم!

أفقت من تأملاتي على صوت صراخ امرأة تجري في الشارع محتضنة العيش بقوة ووراءها مجموعة من الصبية يتعقبونها. رأيتها تقع على الأرض ثم تنهض تلملم العيش وتسرع مرة أخرى ثم

لا تلبث أن تسقط وينفرط منها كنزها الثمين ويخطفه الأولاد ويتركونها بوجه تغطيه الدماء والتراب في مشهد أقرب إلى روايات تشارلز ديكنز، خاصة قصة مدينتين عند انسكاب صندوق النبيذ من عربة أحد النبلاء والناس تلعقه مع تراب الشارع. فهل يا ترى صارت القاهرة ٢٠٠٨ تشبه لندن على مشارف القرن التاسع عشر؟ اقتربت من المرأة التي خرجت من المعركة مثخنة بالجراح وسمعتها تسأل أحد العابرين من بين دموعها: اسمه إيه الشارع ده يا بني؟ أجابها: شارع شمبليون يا حاجّة. قالت له: شاندوليون ده إيه يا خويا!. ملت عليها عارضًا تقديم مساعدة ففوجئت بها تنتفض قائلة: مش عاوزة حاجة من حد، ثم تضحك في هيستيريا: شاندوليون هو اللي حياخد لي حقي، ثم تواصل الضحك وتكمل: يرضيك كده يا شاندوليون؟ علشان أنا ست كبيرة يضربوني وياخدوا العيش يا شاندوليون.. أنا راضية حكمك يا شاندوليون، لو كان يرضيك أنا حاقفل بقى خالص ومش حاتكلم. ثم تحول ضحكها الهيستيري إلى بكاء حارق ومونولوجها المؤلم مستمر: أنا اتبهدلت يا شاندوليون، حتى كيس الفلوس سرقوه.. أمانة يا شاندوليون تبعت... ابعت يا شاندوليون، ابعت بقى يا أخي!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مصر الحلوة.. أوي!

تركت السيارة بجراج المول الفخم ودلفت للداخل. جلست في كافيتريا نظيفة وأخذت النسكافيه بتاعي مع قطعة كرواسون، ثم صعدت إلى الطابق الرابع حيث تقع دور السينما. اخترت فيلمًا كوميديًا لطيفًا من بين ١٣ فيلمًا متاحًا، وعند خروجي من السينما صادفت رجل أمن ودودًا ومهذبًا للغاية يختلف عن رجال الشرطة الغلاظ الموجودين خارج هذه الواحة.. تقدم مني وسألني بمنتهى الأدب إذا كنت قد شاهدت الجناح الجديد الذي تم افتتاحه، واصطحبني عبر الممرات الحافلة بالماركات العالمية من العطور والملابس والموبايلات وتركني عند قاعة واسعة مليئة بالمطاعم من كل صنف ولون. طفت بالمكان وأنا في غاية السعادة ثم عرجت على مدينة الملاهي واستمتعت بالألعاب المثيرة لمدة ساعة وشاركت بعض الشباب لعب البلياردو ثم خرجت ومضيت أتسكع في أروقة المول ووقفت عند محلات الأنتيكات والجاليريات التي تبيع اللوحات والتابلوهات البديعة. وعندما أردت أن أريح قدمي قليلًا دخلت مطعم وجبات سريعة فتناولت سندوتشًا وفنجان شاي، ولدى خروجي من المطعم سمعت العاملين يهتفون لي: (Good bye sir) نظرت خلفي في دهشة فوجدت ابتساماتهم الحلوة تتسع وهم يلوحون لي بأيديهم قائلين: (Come again sir). أكملت جولتي داخل المول وسط البنات الجميلات بالبنطلونات الضيقة والبطن المكشوفة، والشباب الذين ارتدوا جميعًا بنطلونات متدلية تبدأ من منتصف الفخذ حتى القدم، وتجولت بين محلات الأحذية وتلك المتخصصة في أربطة العنق والأخرى التي تبيع أبهى الحلل الإيطالية، ثم أخذتني الشاشات العملاقة لأجهزة التليفزيون الحديثة خفيفة الوزن التي تشبه البرواز ويمكن تعليقها بعرض الحائط ووقفت مبهورًا داخل محل يحمل اسمًا أمريكيًا شهيرًا ويبيع أجهزة التليفزيون تلك، بالإضافة إلى آخر صيحة في دنيا الموبايلات، علاوة على جناح كامل للأفلام الأجنبية وبه الكثير من كلاسيكيات السينما العالمية.. الأسعار غالية جدًا لكن المنتجات أصلية وتستحق.

عند قدوم الليل كنت قد شاهدت كل مكان وتناولت الغداء بالمطعم المكسيكي واشتريت كتبًا وأفلامًا وتجولت بالسوبر ماركت داخل المول والذي يرفع العاملون به شعار لا للبقشيش! ثم رأيت أن أختم اليوم الجميل بالسهرة داخل أحدث دور العرض التي أنشأوها بالجناح الجديد وهي عبارة عن خمس قاعات Vip تقدم بالإضافة إلى تذكرة السينما إمكانية تناول العشاء الفاخر داخل صالة العرض. انتقيت فيلمًا مثيرًا وتناولت العشاء على المائدة التي نُصبت أمامي وغادرت القاعة كأني كنت في حلم جميل ولم تعد بي رغبة في الخروج إلى الشارع والعودة إلى الدنيا القبيحة التي أتيت منها، وتمنيت أن أبيت بالفندق الملحق بالمول وأن أقضي حياتي كلها داخل هذا المكان ولا أتركه أبدًا لأنني أخيرًا عثرت على الوطن الذي طالما تمنيته وحلمت به. هذا المول هو وطني وهو مصر الجميلة التي لقيتها بعد يأس. وإني أدعو من هذا المنبر رجال الأعمال الذين يحبون الخير أن يتكفل بعضهم بفاتورة إقامتي هنا.. إلى الأبد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

المواطن النعجة والمواطن الذئب

تعرضت الأسبوع الماضي لامتحان حقيقي ولا أدري إذا كنت قد اجتزته بنجاح أم لا، إذ إنني ما عدت أدرك معايير النجاح.. كل ما أدركه أن هذا البلد لم يعد يصلح وطنًا بالمرة.
سأقص عليكم الحكاية...
أوكل إليّ أخي المسافر بالخارج مهمة تشطيب شقته، فذهبت بصحبة صديق من الخبراء في هذه الأمور لشراء سيراميك الأرضية. كان التاجر بشوشًا وفي غاية الذوق. انتقيت النوع الذي أعجبني وقام عمال المحل بتحميل الشحنة على سيارة نصف نقل. تبعني السائق وعندما وصلنا قام بتفريغ الحمولة داخل الشقة وانصرف. بعد يومين أتيت بالعامل الذي سيقوم بالتبليط وأخذ يعاين كراتين السيراميك ثم أخبرني بأن هذه الكمية لا تكفي سوى نصف الشقة فقط. أخبرته مدهوشًا بأنني أحضرت الكمية كما طلبها مني طبقًا للقياسات التي قمنا بها معًا. فاجأني بأن التاجر ولا شك قد خدعني وقام بتحميل نصف الكمية فقط مستغلًا عدم خبرتي!
اصطحبت صديقي الخبير وعدنا إلى التاجر وبعد السلام والتحية شرحنا له أن ثمة خطأ قد حدث وأن بقية الطلبية خاصتي لم يتم تحميلها. توقعنا أن يعتذر ويصحح الخطأ، لكن المفاجأة أن الرجل الطيب الذي باع لنا منذ يومين وكان غاية في الأدب استحال حيوانًا ضاريًا بمجرد أن تفوهنا بالمطلوب، فزعم أننا تسلمنا الكمية كاملة وأنه لا يريد أن يرى وجوهنا مرة أخرى ثم أخذ يصدر أصواتًا بذيئة، وزادت ثورته فأخذ يسب للسيدة والدة السيراميك والسيد والده! واجتمع العمال والسائقون وأخذوا يهدئونه وهم يستعيذون بالله من «البلاوي» التي يقذف بها الزمن على الآمنين من أمثالهم!
خرجنا من المحل ونحن في أشد حالات الذهول ولا نكاد نصدق ما سمعناه من الرجل.. إنه ليس لصًا فقط، لكنه فاجر أيضًا وفي غاية الشراسة والإجرام.
وبعدين..؟ هكذا سألتُ صديقي. قال: ليس أمامنا سوى البوليس لنستعيد حقنا. اقترحت عليه قبل الذهاب لقسم البوليس أن نزور صديقنا القديم رفيق دكة الدراسة الذي صار عميدًا بالشرطة لنسترشد برأيه.
بعد أن ضحك صديقنا ضابط الشرطة من غفلتنا أخبرنا بصعوبة الحصول على حقنا بالقانون، حيث لا نملك إثبات ما ندعي. نحن سنتّهم التاجر بالسرقة وهو سينكر التهمة، والنيابة حتمًا ستخلي سبيله. قلنا له: وما العمل؟ قال: يمكن أن نستدعيه ونضغط عليه على أمل أن يقبل بإعادة بعض حقكم. قلت وأنا مصدوم: بعد الضغط عليه قد يعيد بعض حقنا؟ قال في ثقة صادمة: وقد لا يقبل. سألته: وما هي وسائل الضغط التي قد تتبعونها معه؟ قال: هذا شغلنا ولا شأن لكم به. قلت له: إياكم أن تكونوا ستعرضونه للعقاب البدني. قال غاضبًا: يعني تريد استعادة حقك وستقوم بإعطائنا دروسًا في حقوق الإنسان. هذه هي الوسائل المتاحة في مثل حالتك وهي ليست وسائل ناجعة تماما كما قد تعتقد، فبعض المجرمين يفضلون الضرب على إعادة المسروقات، ونحن لا يسعدنا القيام بهذا كما تتصورون، إنما نلجأ إليه مجاملة لأمثالكما بعد أن تأتينا مائة توصية، والسادة مرهفو المشاعر من نوعيتكما دائمًا ما يبتلعون شعاراتهم الجوفاء عن القانون وحقوق الإنسان عندما يقعون ضحية للسرقة، وكثيرًا ما يتوسلون إلينا أن نفعل أي شيء لحمل المتهم على الاعتراف، ثم وجّه حديثه إليّ قائلًا: وأظنك يا

حضرة الكاتب الهمام بعد أن نعيد إليك حقك ستكتب تلعن الأساليب الوحشية التي نتبعها وستصورنا لقرائك وحوشًا ضارية.. أليس كذلك؟

عدت إلى البيت تتملكني الحيرة مما قاله صديقي الضابط.. لا شك أنه محق في بعض ما قال، ولا شك أنهم معذورون في بعض ما يفعلون.. لكن من المذنب في الأمر؟ أعتقد أن النظام السياسي المهترئ هو السبب في كل ما يحدث لنا في هذا الوطن البالي. فهذا النظام هو الذي جعل من التاجر مجرمًا يستحل مال الزبون حتى يستطيع أن «يرش» على كل الجهات التي تبتزه من بلدية وتموين وصحة ومرافق، ونفس هذا النظام الذي قتل في الناس الضمير والشرف هو الذي سعى لتحويل رجل الشرطة إلى وحش حيث زادت المظالم وقصرت وسائل البحث والتحري، ولم تجد السلطة سوى منح الشرطة رخصة الخروج على القانون لمواجهة الخارجين على القانون، مع إمكانية دهس الأبرياء أيضًا، وهو الأمر الذي حول البلد إلى غابة!

المهم الآن ماذا أفعل؟ هل أترك حقي يضيع وأترك المجرم الذي سرقني بدم بارد ثم تعامل معي بمنتهى السفالة؟ أم أعطيه درسًا موجعًا وألجأ إلى أصدقائي من أصحاب السلطة وأتركهم يتصرفون معه دون أن ألقي بالًا إلى الوسائل المستخدمة.

لا أخفي عليكم أن الانقياد لمشاعر الغضب يجعلني راغبًا في الانتقام منه حتى لو لم أستعد حقي المسروق، ولكن من جهة أخرى يأبى ضميري أن أتحول إلى حيوان مثله.

ما أظلم هذا الوطن الذي يُضيق الخيارات أمام أبنائه ويجعل المرء ليس أمامه إلا أن يكون نعجة أو يكون ذئبًا مفترسًا.

أظن أن الهجرة قد تكون حلًا مناسبًا لمن يرفض الخيارين السابقين ويصر على أن يظل إنسانًا!

بنوك الابتسامات الساحرة

البنوك التي انتشرت فروعها كالوباء على كل ناصية في شوارع القاهرة ليست بالضرورة قرينًا للخدمة الجيدة.. إليكم ثلاث حواديت وقعت معي مؤخرًا:

يوم ١٢ يونيو الماضي كنت أقف أمام إحدى ماكينات الصرف الآلي في البحرين، وأخرجت بطاقة الفيزا الصادرة عن «بنك عودة» بغرض سحب مبلغ ٧٠ دينارًا بحرينيًا. اعتذرت الماكينة عن إتمام العملية ثم قذفت في وجهي بالكارت دون الفلوس. عند عودتي للقاهرة فوجئت بالمبلغ مخصومًا من حسابي. قدمت معارضة كتابية لبنك عودة فرع مكرم عبيد وشرحت أن العملية لم تتم فكيف يخصمون مبلغ ١٠٢٣ جنيهًا التي تعادل ٧٠ دينارًا بحرينيًا؟ مضى حتى الآن نحو خمسة شهور وما زلت حتى هذه اللحظة أواصل كتابة الالتماسات والعرائض والمظلمات إلى السادة في بنك عودة ولا أحصل سوى على ابتسامات لطيفة ووعود مهذبة، لهذا سأضطر إلى إغلاق الحساب خشية أن يكرروها في مبلغ أكبر ويرضخوا أمام ماكينة تسرق عميلهم بكل بجاحة.

يوم ٢ يوليو الماضي داخل بنك «سوسيتيه جنرال» بشارع العباسية وقفت أمام الصراف الآلي بمدخل البنك وطلبت من سيادته أن يمدني بمبلغ ١٥٠ جنيهًا، وفعلًا خرج المبلغ بالسلامة لكن ما كدت أمد يدي لتناوله حتى سحبته الماكينة مرة أخرى في حركة نذالة غير متوقعة، بعدها أخرجت الماكينة ورقة تشهد فيها أن الفلوس لم يتسلمها العميل وأن المبلغ سيعاد لحسابي مرة أخرى. أكبرتُ الماكينة الأمينة التي لم تقبل الفلوس الحرام عكس أختها البحرينية التي لم تعطني ورقة مماثلة، بل أرغمت بنك عودة الطيب الحنون على إعطائها مالي، فقدمه لها وهو يبكي من أجلي!. المهم.. راجعت الحساب بعد يومين فلم أجد المبلغ قد عاد فقمت بالاتصال تليفونيًا بالرقم الذي يخدم العملاء ٢٤ ساعة فرد عليّ موظف شديد التهذيب ونصحني بالذهاب إلى أقرب فرع حتى يتخذوا الإجراء اللازم. قلت له: كان يمكنني أن أفعل هذا دون الاتصال بك. اعتذر الشاب المهذب بأنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا. دهشت لأن الاتصال بالبنك كلفني قيمة مكالمة مع موظف ليس لديه كمبيوتر! قلت للشاب يائسًا: ما دمت لا تستطيع أن تقوم بأي عمل بنكي.. ممكن تحكي لي نكتة أو أي حاجة تسليني حتى يكون للمكالمة فائدة؟! في اليوم التالي توجهت إلى فرع البنك بالمقطم وهناك قابلني موظف مهذب أيضًا اسمه محمد حامد.. كلهم مهذبون ولاد الإيه. استمع إليّ باهتمام وأخرج نموذجًا مطبوعًا سجل فيه أقوالي وأخذ مني الورقة التي أخرجتها الماكينة وقام بتصويرها ثم أخبرني بأن الموضوع سينتهي في خلال يومين. قلت له في دهشة: ليس هناك ما يستدعي الانتظار دقيقتين وعليك أن تصحح الخطأ في الحال. ابتسم في أدب وأخبرني أن الأمر لا يعود إليه لكنه سيرفع الموضوع للمسؤولين! مضى شهر ولم يحدث شيء من جانب البنك وموظفيه المؤدبين، فعدت إليهم مرة أخرى، وهذه المرة قابلني موظف اسمه تامر وطبيعي أنه كان لطيفًا للغاية. حكيت له الموضوع من البداية فقام بسحب نموذج قام بملئه وطلب مني الورقة إياها لتصويرها. قلت له: لقد فعلت كل هذا مع زميلك محمد الشهر الماضي، فعاجلني بابتسامة ودودة ووعدني بأن الموضوع سينتهي في خلال يومين. مر شهر آخر ولم يستطع تامر أن يفي بما قال ولحق وعده بوعد أخيه محمد. ذهبت إليهم للمرة الثالثة وقابلت محمدًا هذه المرة. عندما رأيت ابتسامته أدركت ألا فائدة.. هذا البنك يقدم خدمة بنكية شديدة البؤس مع ابتسامات ساحرة. قلت له: أنا أعلم أنك ستسألني كما فعلت ماري منيب في المسرحية: «انتي جاية

اشتغلي إيه؟» وسأحكي لك الحدوتة من أولها، وستخرج استمارة ثم تقوم بتصوير وعد الماكينة الذي يشبه الوعد الرئاسي بإلغاء حبس الصحفيين أو وعد رابين بإعادة الجولان، ذلك الذي قطعته على نفسها منذ ثلاثة شهور بإعادة فلوسي.

الجدير بالذكر أن المبلغ قد عاد بالسلامة يوم ٢٨ أكتوبر بعد أربعة شهور، وعقبال أخيه المعتقل في بنك عودة!

ثالثة الحواديت اللطيفة كانت منذ عدة أيام بالبنك العربي فرع المقطم عندما ذهبت لصرف شيك وهناك تلقفني موظف بشّرني بمزايا عديدة في انتظاري إذا ما قمت بفتح حساب لديهم. عندما سألت عن ماهية هذه المزايا قال إن هناك مبلغ تسعة جنيهات سيتم اقتطاعه من الحساب شهريًا مقابل أن يحصل الورثة في حالة الوفاة على مبلغ ٧٥ ألف جنيه. سألته وأنا غير مصدق: هل هناك حد أدنى لما ينبغي أن أودعه بهذا الحساب؟ فقال: ليست هناك حدود، يمكنك أن تودع كما تشاء وتسحب كما تشاء. تعجبت أكثر لأنه ليس طبيعيًا أن يكون لديّ حساب به مائة جنيه مثلًا ثم بموجبه يدفع البنك للورثة ٧٥ ألف جنيه!! قلت له: هل هناك بوليصة تأمين ستسلمها لي مع فتح الحساب؟ قال: لا. سألته: هل ستعطيني ضمانًا مكتوبًا يتعهد فيه البنك بتنفيذ هذا الكلام؟ قال: ليس هناك شيء مكتوب، لكن كل شيء سيكون محفوظًا على «السيستم». قلت له: سلم لي على السيستم، وخرجت مسرعًا.

العجيب أن كل هذه الأشياء التي تحرق الدم لم تحدث من أي من بنوك القطاع العام التي شوهوا سمعتها قبل عرضها للبيع ومنحها للبنوك صاحبة الخدمة الرديئة والابتسامات الساحرة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حكومة وأهالي دون المستوى

في الحديث عن العولمة ينبغي أن نوضح أنه من بين مقتضياتها الأساسية توحيد المعايير والخضوع لقياسات تسري على الجميع في كل مكان من الأرض بنفس الدرجة. وعليه صار لكل مهنة دليل عمل أو «مانيوال» يلتزم به الجميع. ومن تجليات هذا أننا نجد موظف البنك في سويسرا يقوم بنفس العمل الذي يؤديه زميله في جنوب أفريقيا أو في الصين بنفس الكيفية والخطوات. كذلك نرى الإجراءات المتبعة لإنهاء سفر راكب في أمستردام هي نفسها التي تتم في طوكيو أو في بومباي، ومدرب الكرة يفعل في البرازيل نفس ما يفعله عندما يدرب في الإمارات.. وبدأنا نسمع عن مصطلحات مثل الأيزو والإيوزا وسائر قياسات الجودة التي يعني البعد عنها الخروج من التاريخ. من هنا فإن المدرس المطابق للمواصفات هو الذي يستطيع أن يقوم بتدريس اللغة الفرنسية في القاهرة ويقوم بتدريسها في داكار أو في فيينتام بنفس الكفاءة، والطبيب المطابق للمواصفات تستطيع أية مستشفى في العالم أن تعتمد عليه. ونفس الأمر يسري على مهنة مثل الصحافة، إذ يفترض أن رئيس التحرير المطابق للمواصفات يستطيع أن يدير جريدة في لندن كما يستطيع أن يفعل الشيء نفسه في بيروت.. هذا هو المقصود بمستويات واحدة للقياس والجودة. ومن الجدير بالذكر أن الدول الكبرى هي طبعًا التي تضع المعايير وتبدلها وفقًا لمصالحها، فإذا تبدلت المصالح تم تعديل الكتالوج، وفي هذه الحالة علينا كدول بائسة أن نتبعهم في مقاييسهم ومستوياتها دون مناقشة. فعندما يقررون أن التدخين عادة جميلة ترتبط بالرجولة وتمنح الإنسان المتعة وصفاء الذهن فإننا نتبعهم ونبيح التدخين في كل مكان، ويظهر الضيوف في التليفزيون يدخنون ويستمتعون!.. وعندما يقررون في الغرب أن التدخين خطر ينبغي محاصرته والتضييق على أصحابه ومنعه في الأماكن العامة وكذلك حظره على الطائرات، فإننا بنفس البساطة نمتثل صاغرين. ورغم أنه يتم التلاعب بنا باعتبارنا مفعولًا به طول الوقت فإن مقاييس الجودة هي في النهاية شيء جيد لو قمنا بتقليدها على نحو جاد. لكن الذي يحدث أننا بالفهلوة المعهودة نقوم «بضرب» كل شيء، وأظن أن الصورة واضحة ولا تحتاج إلى أي شرح، بدءًا بالبطاطس المصرية التي ترفض أسواق أوروبا استقبالها، مرورا بالطبيب المصري الذي يتعين عليه دخول الكلية من سنة أولى إذا أراد ممارسة الطب بالخارج، فضلا عن المدرس المصري الذي كان في يوم من الأيام رسول التنوير في العالم العربي فأصبح اليوم العشرة منه بقرش! ولو نظرنا إلى الصحافة وتذكرنا أساتذتها المحترفين الذين كان الواحد منهم يستطيع أن يدير جريدة في أي مكان باحتراف مهني على أعلى مستوى، ثم قارناهم بصحفيي هذه الأيام لوجدنا أن الأخيرين لا يمكن أن تقبلهم جريدة محلية في اليمن إلا كمحررين تحت التمرين، لأنهم ببساطة دون المواصفات المطلوبة للمهنة، وأنا هنا لا أتحدث عن المواقف السياسية أو الفكرية.. أنا أتحدث عن الاحتراف المهني البحت.

وإذا كانت دول العالم لا تقبل الفاكهة المصرية المليئة بالمبيدات والتي لا تجد من يأكلها سوى المستهلك المصري، وإذا كانت دول الخليج ترحب الآن بالعامل الهندي والبنغالي وترفض الصنايعي المصري البعيد عن المواصفات والذي لم يعد لديه سوى المواطن المصري المسكين يمارس فيه غشه وفهلوته، وإذا كان المدرس المصري قد أصبح مكشوفا بضعفه العلمي ولا تقبل عليه البلاد العربية وتفضل عليه الأردني والفلسطيني والتونسي، وإذا كان الطبيب المصري ليس أمامه سوى

المصريين يتعلم فيهم الطب ويقتلهم بإهماله وجهله، وإذا كان الصحفي المتواضع لا يجد سوى صحف الحزب الوطني تقبله على حالته.. إذا كان كل ذلك كذلك فإن أمر الوزراء لا يختلف كثيرا، وأرى أن بقاء واستمرار الوزراء الحاليين هو أمر طبيعي وعادل لأنهم يشبهون المصريين ويليقون بهم ويشاركونهم البعد التام عن المواصفات القياسية اللازمة لأداء العمل. وحتى لو كان هؤلاء الوزراء هم السبب فيما وصلنا إليه فإن بقاءهم واستمرارهم يجعل الصورة أكثر اتساقا وسيميترية، فشعب من التنابلة يلزمه مسؤولون أكثر تنبلة، وكثير من هؤلاء المسؤولين لم يكن الواحد منهم ليستطيع أن يحظى بوظيفة باشكاتب لو كان يعيش في بلد غير مصر!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مجدي مهنا.. وكل هذا الحب

خلال الأيام الماضية تلقيت عددًا ضخمًا من المكالمات ومن الرسائل الإليكترونية كلها تسألني عن أخبار الأستاذ مجدي مهنا. ورغم أنني لا أملك تفصيلات عن الحالة الصحية للكاتب الصحفي النبيل الذي أوجعنا غيابه، إلا أنني كنت أطمئنهم بأنه عائد بسرعة لأنه أقوى من المرض.. أقوى بإيمانه وبحب الناس الغامر له.

هذه المشاعر الجارفة وهذا الحب العفوي دعياني للتأمل والتفكر.. ما كل هذا الحنان الذي يملأ قلوب الناس نحو مجدي مهنا؟ وما الذي يجعل الناس تحبه على هذا النحو؟ ما الذي يدعوهم إلى التوجه إلى الله في صلواتهم ويجعلهم يتضرعون إليه أن ينجيه وينقذه من براثن المرض؟.. المصريون بطبعهم يتعاطفون مع الإنسان في حالة المرض، لكن هذا وحده في رأيي لا يفسر كل هذه القلوب التي تهوي إليك يا مجدي.. لا بد أنهم قد أدركوا أنك تحبهم من كل قلبك وتأكدوا أنك صادق في هذا الحب، ولا شك أنهم قد لمسوا حجم نقائك وتجردك في الدفاع عنهم. وأنا أستطيع أن أتفهم هذه المشاعر من الناس تجاه كاتب صحفي لم يكتب إلا ما يعتقد، ولم يقدم للناس إلا ما ينفعهم. ويمكنني أن أكون شاهدًا على أن مجدي مهنا لم يخف من مخلوق قط، ولم تأخذه في الحق غضبة حانق.. هو يخشى الله فقط، على العكس من الكثير من الكتاب والصحفيين الذين يدّعون الشجاعة رغم أن لكل منهم كفيلًا في السلطة يرعاه ويحرس خطاه أو رجل أعمال يدعمه ويكفل له الحماية.. هؤلاء نراهم يمتطون خيولًا عرجاء ويحاربون معارك آمنة ثم يحسبون أنفسهم من الأحرار.

الناس استطاعت أن تميز أن مجدي مهنا على خلاف هؤلاء، رجل مستقيم، نزيه القصد لا يهاجم أحدًا من أجل غرض خاص، ولا يدافع إلا عن الحق، كما لا تطرف عينه في مواجهة أي مسؤول لأنه أكبر منهم جميعًا، وقامته أعلى منهم جميعًا، والكثير منهم هم الذين تتكسر عيونهم أمامه لأنهم مثقلون بالآثام والفساد، ولا يملكون مثقال ذرة من نزاهته ونبله.

في اعتقادي أن الناس تحب مجدي مهنا لأنه بسيط بساطة آسرة، وفي نفس الوقت قوي شديد الصلابة، وحبه للعدالة هو ملمح أساسي من ملامح شخصيته. وأستطيع أن أزعم أنه في دفاعه عن الفلسطينيين كان أقوى من كل الحنجوريين الذين ارتبطت حياتهم بدوام التعاسة للشعب الفلسطيني، لأن مجدي لم يقبض لا من بغداد ولا من ليبيا ولم يتورط أبدًا في الدفاع عن الطغاة بزعم وقوفهم على الثغور وحمايتهم للبوابات القبلية والبحرية!

المصريون يحبون مجدي مهنا لأن إيمانه بالديموقراطية وتداول السلطة هو إيمان حقيقي نابع من إدراك واعٍ بأنها السبيل الوحيد للنجاة، ويحبونه كذلك لأنه لا يكتب بنصف قلم ولا ينطق بنصف لسان، ولا يخدع الناس بكشف نصف الحقيقة وإخفاء النصف الآخر. وفي الوقت الذي كان غيره يمسك العصا من المنتصف ويردد دون وجل مع المنافقين إيثارًا للسلامة واتقاء للغضب السامي أن «سيدنا يزيد قتل سيدنا الحسين» فإن مجدي كان في إدانته لكل «يزيد» واضحًا ناصعًا نقيًا ولا تحتمل كتابته تفسيرين أبدًا.

لقد حاولت أنا شخصيًا أن أضبط مجدي مهنا ولو لمرة واحدة متلبسًا بإرسال رسائل الغزل لأي من الذئاب الكواسر الذين تنحني لهم الرقاب، فما وجدته يرسل لهم إلا رسائل شديدة اللهجة تحمل الغضب والازدراء.

إن شخصية مجدي وكتاباته قد منحا المصريين الأمل، وعززا من قدرتهم على التفاؤل وسط الظلمة الحالكة التي أغرقت مصر.. فوجود مجدي يجعل الكتّاب يحاولون أن يحظوا بشيء مما له من الاحترام والقبول من خلال تقليده، وما أجمل أن نقلد رجلًا نبيلًا ذا خلق رفيع مثله. إن من آيات خلقه الرفيع أنه لا يستضعف مسؤولًا تافهًا ويوجه إليه سهام نقده، في الوقت الذي يُبرأ مَن اختار هذا المسؤول وينزهه عن الخطأ كما يفعل السادة الكتبة الأرزقية.

لأجل هذا كله فإن المصريين يشعرون الآن بالانزعاج لأنهم لا يملكون الكثيرين من أمثال مجدي، وهم لهذا لا يحتملون أن يتأخر عنهم كاتبهم الوطني الموضوعي الشريف كل هذا الوقت ولو بداعي المرض.

أنا أدعو الله مع كل شعب مصر من محبي مجدي مهنا أن يمن عليه بالشفاء من أجل أسرته، وأن يعيده إلى قرائه عما قريب، وأجدني وسط محبيه أبعث إليه بكلمات سيد حجاب التي غناها لمصر، وأكاد أسمع مصر وهي تغنيها لابنها الجميل مجدي مهنا:

لما تغيب عن عينيا.. يغيب عني الوجود

ولا تبقى الدنيا دنيا.. إلا لمّا تعود...

يا مجدي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هونجـا

قل للطبيب تخطفتـه يـدُ الـردى
من يا طبيبُ بطبّه أرداكا؟

إبر اهيم بديو ي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أقسى من جحيم دانتي

قالت له وهي تميل برأسها على كتفه بينما يجلسان بحديقة الأندلس ذات صباح شتوي مشمس: عندما تغيب عني يا حبيبي أتمنى لو كنتُ عصفورًا يمكنه أن يحلّق في الفضاء ويظل طائرًا حتى يحط بين يديك أينما تكون. نظر إلى عينيها الحالمتين بعينين يملأهما الشوق وقال لها: لطالما أحببت فيك الرومانسية وعشقت خيالك المتجاوز للأسوار، القافز فوق الحواجز.. لكن قولي لي: هل يتنافى مع شاعرية الصورة السابقة أن نغير شكل الطائر الذي تودين أن تكونيه وتجعليه يعبر المسافة من بيتكم في إمبابة إلى بيتنا في عزبة الوالدة؟ قالت في دلال: أي طائر تختاره يسعدني أن أكونه يا حبيبي.. ماذا اخترت؟ السنونو أم النورس أم تراك تحبني أن أكون يمامتك البيضاء؟ قال: هل تكون مشكلة لو اخترت طائر الحدأة؟ نظرت إليه في فزع وقالت: ماذا؟ أتترك كل الطيور الجميلة بما فيها العصافير والبلابل وتختار أن تراني في صورة الحدّاية.. يا لك من ملعون. قال في هدوء: أرجو أن تتحلي بالصبر وتري الصورة من كل النواحي.. لو أنك حداية لأمكنك أن تطيري أسرع من مائة عصفور وأن تقطعي الطريق إليّ في زمن قياسي، ولأمكنك كذلك أن تتجنبي بنادق الصيادين ونبالهم،.. ثم أردف: ولا تنسي أيضًا أن العصافير واليمام تتغذى فقط على الحبوب، وهذا قد يحرمك من أشياء تحبينها في الحياة على رأسها اللحم والدجاج، أما الحدأة فتستطيع أن تتمتع بالتهام شتى أنواع اللحوم. قالت صارخة: أراك تتحدث عني كما لو كنت وحشًا على المائدة، إنني لا أميل إلى أكل اللحم وأكاد أكون في عداد النباتيين. قال: هذا غير صحيح يا حبيبتي، لقد شكت لي والدتك أمس أنك تناولت في الإفطار ربع البسطرمة كله مع كرتونة بيض بالسمن البلدي، وأنا لا يسوؤني حبك للطعام، بالعكس، أنا أريدك سعيدة دائمًا، وسأظل أحبك حتى لو كنت طيرًا جارحًا. قالت وقد هدأ غضبها قليلًا: وهل إذا أقلعت عن أكل اللحم يمكنني أن أنعم بالحلم الرومانسي وأصير عصفورتك؟ قال: ومن أدراك أن النسور والصقور والغربان لا يعيشون لحظات رومانسية، لا شك أن كل الكائنات تنعم بدفء الحب.. حتى الحمير في الغابة لا تخلو حياتهم من الشاعرية! قالت: أي حمير هذه التي تعيش في الغابة.. هل تظنني ساذجة؟ قال: أحقًا لا توجد حمير في الغابة؟ قالت: طبعًا، الحمير تخدم الإنسان بالعمل الشاق لكنها لا تعيش في الغابة. قال متعجبًا: يوجد بالغابة الكثير من الحيوانات الأليفة مثل الغزلان والنعام وغيرها فلماذا تخلو من الحمير؟ قالت: ومن أدراني، ثم أردفت: وإذا كنت تخترع هذه الأحاديث عن حمير رومانسية تعيش في الغابة فمن أدراني أنك لا تؤلف بقية الحديث كله عن الصقور والنسور والأفاعي، لقد فقدت مصداقيتك عندي. قال: وهل ضربي لمثال خاطئ يجعلك تتركين المغزى من وراء المثال وتتعلقين بالخطأ غير المقصود؟ قالت: ربما أن غيظي منك يجعلني لا أبلع لك أي شيء، وقد غيرت رأيي ولا أريد أن أكون عصفورًا ولا أن أطير إليك. قال: وهل تقطعين علاقتك بي؟ قالت: ربما سأفعل، ولكن عليك أن تدعوني إلى الغداء أولًا، ولا أريد «فول وطعمية»، لو كنت تحبني حقًا، ادعني على «وزة» بالخلطة وتكون مشوية، ومن يدري ربما إذا أعجبتني الوزة سامحتك! قال مدهوشًا: من أين لي بثمنها ومن أين لي بمطعم يشوي الإوز؟ أنا أعرف مطاعم تقدم البط والدجاج والحمام والسمان، لكن الإوز لا يمكن. قالت: ولماذا تقدم المطاعم جميع الطيور ما عدا الإوز؟ أجاب: ربما بسبب الدسامة الزائدة يحجمون عن تقديمه. قالت: وهل دسامته منعت طهيه في البيوت؟ قال: لا أدري. قالت: وهل كل ما تقدمه المطاعم يخلو من الدسم؟ قال: لا طبعًا. قالت: ولماذا الإوز بالذات هو

الذي يقاطعونه لدسامته؟ قال: حقيقة لا أدري. ردت غاضبة: وماذا تدري إذا كان أمرٌ بسيط كهذا لا تعرفه؟ قال: وهل تدرين أنت؟ قالت: لا ترد على سؤالي بسؤال وتتصرف مثل الدبلوماسيين حين يريدون أن يتهربوا من الإجابة. قال: ما لهم الدبلوماسيون؟ أم أنك موتورة منهم بسبب رسوبك في امتحان الخارجية العام الماضي لعدم اللياقة الاجتماعية. قالت ساخرة: الأحرى بهم أن يقولوا «لعدم اللياقة الاقتصادية». قال: وهل تكونين أسعد حالًا لو أنهم تحلوا بالصراحة وأعلنوا أن أبناء الفقراء مرفوضون في وزارة الخارجية وفي التمثيل التجاري وفي كلية الشرطة؟ قالت: أنا لم أطلب دخول كلية الشرطة. قال: أنا أضرب مثلًا ليس أكثر. قالت: عندما لا تنطبق أمثالك على حالتي فأنت تصيبني بالضيق. قال: عندما رفضوا تعيينك في الخارجية قلقت عليك بشدة وخشيت أن تلقي بنفسك في النيل. قالت: لقد فكرت في هذا الأمر، لولا أن أمي كانت عاملة ملوخية بالأرانب يومها، وقد فكرت فيك أيضًا فتراجعت عن فكرة الانتحار. قال: يعني أنا والأرانب أنقذنا حياتك؟ قالت: وكذلك فكرت في كل الأماكن التي رفضت تعيينك وفي جلدك السميك الذي منعك من الانتحار، ولم أشأ أن أكون أقل منك «تناحة».

اقترب منها وهو يمسك بيديها ويدنو من وجهها وقال: تعرفي أن عينيك أجمل من الجنة وأنني لا أخشى في الموت سوى فكرة غيابك عني.. ارتبكت وامتلأت عيناها فجأة بالدموع، فدارى وجهه عنها وأجهش بالبكاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المواطنة.. الكذبة التي انكشفت

يا سلام على المواطنة وحلاوتها.. حلم جميل عشته طوال الشهور الماضية رأيت فيه نخبة المثقفين ورجال وسيدات المجتمع المدني يأخذوني من يدي ويطوفون بي داخل دهاليز الحلم الوردي الذي يعود بالوطن إلى سابق سماحته وحلاوته وجماله، حيث الحاكمية للقانون وحيث الجميع في خدمة سيادته وحيث أحكام القضاء ينصاع لها الجميع. وكنت أعتقد أن أهل التنوير، أعداء الظلامية والطالبانية الذين يموتون صبابة في مدنية المجتمع ويرتعدون من إنزال أحكام السماء من علىائها إلى الأرض بعد خلطها بأهواء البشر بحيث تصبح تلك الأهواء هي حكم الله!.. كنت أعتقد أنهم رسل المحبة الذين يسعون في الأرض «يبشرون» بالمواطنة ويناهضون أية مواد في الدستور تتحدث عن الأديان كمصدر للتشريع ويطالبون بالحفاظ على حقوق الأقلية من خلال الدستور والقانون وبعيدًا عن أحكام السماء التي يسهل تأويلها سياسيًا فتضيع معها حقوق شركاء لنا في الوطن.

وكنت طوال فترة الحلم الجميل أستمتع بالكتابات التي ذكرتنا بمصر الحلوة بتاعة زمان التي نراها في تسجيلات حفلات أم كلثوم حيث كانت جداتنا وأمهاتنا في غاية الأناقة يرتدين التايير ات والفساتين عارية الأكتاف وهن حاسرات الرأس، دون أن يقلل هذا من احترامهن في فترة كانت فيها أخلاق النساء أفضل مما هي عليه الآن مائة مرة.

وكان مما زاد سعادتي وأشعرني أننا على أعتاب مرحلة جديدة انطلاق الحملة القوية ضد الفنانة حنان ترك التي افتتحت محل كوافير به كوفي شوب وقررت أن المسموح لهن بالدخول هن المحتشمات ذوات غطاء الرأس. ولما كانت هذه الشروط تنطبق على المحجبات من المسلمات وعلى الراهبات المسيحيات فقط، فقد عنى هذا حرمان جانب من فتيات الوطن من الدخول عند حنان، وهذا يمثل بالتأكيد خروج على المواطنة التي تمنح الجميع حقوقًا متساوية في دخول الأماكن العامة.

ولكن حدثين مهمين وقعا الأسبوع الماضي جعلاني أفيق من الحلم وأبدأ في النظر للأمر بعين مختلفة. الحدث الأول هو حكم المحكمة الذي سمح للمسيحيين بالحق في الزواج مرة ثانية، ومعارضة البابا شنودة للحكم وإعلانه على الملأ أنه لن يقوم بتنفيذ حكم المحكمة وأنه ملزم فقط بأحكام السماء!! علامات التعجب سببها أننا كنا نعتقد أن حقوق المسيحيين مثلها مثل حقوق المسلمين والهندوس والمجوس وعبدة الشيطان يحميها القانون ويكفلها الانصياع لأحكام القضاء وليس تحديها ومناهضتها على الملأ. وانتظرت من رسل التنوير أنصار المجتمع المدني أن يكتبوا إلى رأس الكنيسة يذكرونه بأن الاحتكام إلى السماء في قضايا البشر لا يجوز طبقًا لدواعي المواطنة. وانتظرت من المثقفين أن يوضحوا للبابا أن الأمر في غاية الخطورة وأنه يضرب ما ينادون به في مقتل، خاصة أن أحكام السماء على الجانب الآخر الذي يمثل غالبية شعب مصر قد لا ترضيهم بالمرة إذا ما حلت محل القانون.

الحدث الثاني الذي صدمني بشدة هو الفضيحة البغيضة التي وقعت أحداثها الأسبوع الماضي في أحد المطاعم الشهيرة على كورنيش النيل عندما أقدم متردوتيل مجرم لم يُربّه أهله على طرد ولاء وهي تجلس وسط صديقاتها بينما كن يحتفلن بعيد ميلادها.. قام الجرسون السافل باستدعاء ولاء وأخبرها أن وجودها بالمطعم غير مرغوب فيه بسبب ملابسها. تلفتت ولاء حول نفسها في خجل لترى إن كان ثمة ما يعيب مظهرها.. هي معروفة منذ الصغر بالأناقة والذوق والحشمة، لكنها خشيت أن يكون قد

حدث قطع بردائها لم تره ترتب عليه انكشاف ما لا يصح كشفه. لكن المفاجأة المفجعة تمثلت في أن الاحتشام كان هو المشكلة وأن سياسة المطعم هي عدم استقبال من ترتدي زيًا محتشمًا. لم تصدق ولاء ما حدث وطلبت استدعاء المدير فأتى بدوره منتفخ الأوداج وهو يعلن أن هذه هي سياسة صاحب المطعم ومن لا يعجبه فليشرب من البحر. سألته ولاء وهي تكاد تنفجر من الإحساس بالقهر: ولماذا لا تضعون لافتة بالخارج توضح سياستكم حتى لا تعرضوا النساء المحترمات لهذا الموقف. فأخبرها المدير النذل بأنهم لا يستطيعون أن يضعوا لافتة تحمل تمييزا صارخا كهذا. يستطيعون إذًا أن يمارسوا التمييز والعنصرية لكن بدون وضع لافتة! والآن لا تعرف ولاء لمن تتقدم بشكواها ضد المطعم الشهير الذي يقع على أرض مصر ويمارس الطائفية في حق ٩٠ في المائة على الأقل من نساء وفتيات مصر. والسؤال الآن: هل يستطيع جرسونات المطعم ومديره الوقح أن يمارسوا ما فعلوه مع ولاء بحق زبائن من عرب الخليج؟ أعتقد أن أية خليجية تستطيع أن تطعمهم حذاءها إذا فكر غضنفر منهم أن يعلن عليها سياسة ولي النعم صاحب المطعم، لكن شجاعتهم تظهر فقط على مواطنة مصرية لا تملك سفارة تستطيع تأديبهم.

والسؤال أيضًا هو هل يمكن أن نسمع أصوات الكُتاب الذين هاجموا حنان ترك وفتحوا عليها نيرانهم واتهموها بأنها تسعى لحرق الوطن بنار الطائفية؟ هل نقرأ لهم إدانة صريحة للسلوك العنصري للمطعم وسياسته المنحطة التي تضرب المواطنة في مقتل.. أم تراهم سيخرسون ويبتلعون ألسنتهم الطويلة عندما يتعلق الأمر بفتاة مصرية منفتحة ومثقفة وذكية، لكنها اختارت بإرادتها الحرة ألا ترتدي ملابس الزمن الجميل الذي يحنّون إليه؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على جثة الوطن

واجب عزاء يتعين القيام به، علاوة على تهنئة مستحقة. لا أدري بأيهما أبدأ؟
أعتقد أن التعزية لا يمكن تأخيرها، أما التهنئة فتحتمل الإرجاء.
أقدم خالص العزاء للسادة الحكام العرب في مصابهم الأليم بعد الخبر السيئ الذي تواترت تفصيلاته من مدينة القدس المحتلة الأسبوع الماضي، عندما قام الشهيد علاء أبو دهيم بمهاجمة معهد «مركاز هراف» التلمودي الذي اشتهر بتخريج القتلة والسفاحين، وقام بقتل ثمانية وإصابة نحو أربعين بجراح، وذلك ردًا على المذابح التي ارتكبها الإسرائيليون في غزة وأسفرت عن مائة وثلاثين شهيدًا ومئات الجرحى بينهم عدد كبير من الأطفال والرضع.
أنا أعلم مدى حساسية الحكام العرب الحلوين تجاه الدم الإسرائيلي، وأعلم حرمته عليهم وانتفاضهم جزعًا لدى إصابة أي جندي إسرائيلي، كما أعلم حجم تألمهم إذا وقع إسرائيلي واحد في الأسر، أو بات ليلة واحدة بعيدًا عن حضن أمه. ولا ننسى في هذا الصدد المؤتمر الذي أقيم بشرم الشيخ برعاية مصر، وقام بحضوره الرئيس الأمريكي بل كلينتون عام ١٩٩٦ عندما اشتدت العمليات الاستشهادية وسقط عشرات القتلى الإسرائيليين، عندها تم عقد المؤتمر من أجل الوصول لحل عاجل يحمي الإسرائيليين ويصون دماءهم.. ولم تحتضن مدينة شرم الشيخ أبدًا مؤتمرًا يسعى لحقن دماء العرب.
ورغم هذا فإنه لا يقلل من إنسانية السادة الحكام عدم انزعاجهم لمقتل «سماح» الطفلة المصرية ابنة قبيلة «أبو جراد» التي كانت تعيش مع أهلها بقرية كوم «أبو صالح» في سيناء داخل الأرض المصرية بواسطة جندي صهيوني يجلس في برج مراقبة مقام على أرض يمتلكها جد سماح، وقد انفجرت رأسها من الرصاصة التي أصابتها في مقتل. إنسانية حكامنا لا شك فيها لكن القلوب لا سلطان عليها ولا يستطيع أحد أن يجعلها تحب الأطفال العرب مثلما تحب طلبة معهد «مركاز هراف» لتخريج التلموديين الذين خرج من بينهم السفاح باروخ جولدشتاين الذي أطلق النار على المصلين العرب داخل الحرم الإبراهيمي أثناء صلاة الفجر، ويخرج من بينهم كل يوم من ينادي بقتل الفلسطينيين وتهجيرهم بعيدًا عن أرض الميعاد! ومع هذا فإسرائيل ولّادة وقادرة إذا مات لها سفاح أن تنجب بدلًا منه مائة سفاح.
ولم يدهشني انحياز الغرب السافر إلى قتلة الأطفال الذين أقاموا المحرقة للفلسطينيين، ثم أخذوا يلطمون الخدود لوعة على العملية التي قام بها الشهيد الفلسطيني، وتذكرت أنني شاهدت في كندا ذات يوم رجلًا وقف يخطب في جمع بأحد شوارع مونتريال وقد نفرت عروقه من الغضب وهو يقوم بلعن الفدائيين الفلسطينيين الذين أسماهم «إرهابيين» لأنهم يفجرون أنفسهم وسط الناس، ثم تساءل في براءة: هل سبق لكم أن سمعتم في يوم من الأيام عن إسرائيلي قام بتفجير نفسه وسط جمع من الفلسطينيين؟ لو كان أحدكم قد سمع بشيء كهذا فليخبرني به، وأذكر أنني قد رددت عليه أمام الناس وقلت: لا يا ظريف لم يسبق لأحد الإسرائيليين أن قام بهذا أبدًا، ذلك أنكم تستطيعون دائمًا بطائراتكم ودباباتكم أن تقتلوا الفلسطينيين دون أن يكون أحدكم مضطرًا لأن يموت معهم!.. هلا أعطيت الفلسطينيين أسلحة مماثلة وأعدك بأنهم لن يحاربوكم بلحمهم بعد ذلك!
ولئن كانت العملية الفدائية في قلب القدس قد شفت صدور الفلسطينيين الذين تعرضوا للهولوكوست الإسرائيلي الذي لم يرحم الشيوخ والنساء والأطفال، ووجّهت إليهم رسالة مفادها «إنهم يألمون كما

تألمون» (الإسرائيليون والحكام العرب) فإن هذا سببه وحشية الفلسطينيين وعدم قدرتهم على حب من يطلق صواريخ طائراته وقذائف دباباته على أبنائهم وأعز الناس إليهم.
هذا واجب العزاء فرغنا منه.. أما التهنئة فأعتقد أن شعب مصر كله يعرف أسبابها ويشعر بها، ذلك الشعب الذي يسقط له كل يوم شهداء في طابور العيش ويحتاج لأن يفرح، وقد أتته الفرحة تسعى بعد أن تم حل مشكلة عصام الحضري عندما تدخل الرئيس مبارك شخصيًا، ويبدو أننا نتقاعس عن أداء أبسط واجباتنا ونترك كل شيء للرئيس يقوم به نيابة عنا. وأتمنى أن يكون لدى الأشقاء الفلسطينيين ما يكفي من روح الود ليشاركونا فرحتنا بعودة عصام الحضري وكفى أحزانًا!
أما بالنسبة للذين يستخفون بانشغالنا واحتفالنا بعصام الحضري، بينما جزء عزيز من لحمنا يحترق في غزة، فهؤلاء لا يعرفون أن السبعين مليون مصري كلهم في حدقات عيون الرئيس.. ولكن بالدور، وشطارة عصام الحضري أنه صحا مبكرًا ووقف في أول الطابور! وهؤلاء كذلك لا يعرفون كم ضربة جزاء استطاع عصام أن يصدها، ولا يعرفون أنه استطاع أن يوقف غارات دروجبا وصمويل إيتو.. لهذا ربما كان من المفيد لهم أن ينبذوا التشاؤم وينظروا إلى نصف الكوب الممتلئ.. بالدم!
لقد كان من أروع ما قرأت هذا الأسبوع وأكثره إيلامًا ما كتبته الدكتورة هبة رؤوف عزت في صحيفة الدستور (وهي بالمناسبة أحد أفضل الكُتاب في مصر) كتبت هبة تحذر من الكارثة التي نواجهها: «الذين يكتبون بأقلامهم المغموسة في دمائنا مقالاتهم وأخبارهم التافهة التي ترسم عالمًا غير الذي نعيشه هم الطابور الخامس، وهم جند هامان، والفرعون القابع في برجه المشيد في منتجعه خارج الوادي ليس في واد مقدس، بل يجلس فوق لحظة الانكسار التاريخي ويفترشها.. على جثة الوطن».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هونجا.. حتى الموت

من المشاهد العادية تمامًا في حياتنا المشهد التالي:
يذهب المواطن إلى إدارة المرور للحصول على اللوحة المعدنية الخاصة برقم السيارة ليقوم بتركيبها على سيارته الجديدة، ومن ثم يستطيع أن يسير بها في أمان. طبعًا يسبق هذه المرحلة أن يكون قد مر برحلة الفحص الفني وملء الاستمارات وملء خزانة وزارة الداخلية بشرائه لطوابع الشرطة عديمة المعنى! ثم يصل أخيرًا إلى الرجل المهم الذي يحتفظ باللوحات في المخزن. يقدم أوراقه ومعها المعلوم، ومع هذا لا يحصل إلا على لوحات قديمة متضعضعة مطموسة وغير واضحة الأرقام. يحاول أن يعترض فيطمئنه الرجل بأن هذا فقط هو الموجود، ولو كانت هناك لوحات جديدة لما خبأها عنه.
يقوم المواطن بتركيب اللوحتين ويخرج إلى الشارع، فيباغته على الناصية كمين يتفحص سلامة السيارات ويقوم رجال الكمين بسحب رخصته التي حصل عليها منذ دقائق لأسباب تتعلق بالأمن والمتانة، ويوقعون عليه غرامة باهظة، بسبب أنه مواطن مهمل يسير بلوحات قديمة وقذرة وأرقامها مطموسة!!
إذا شئت أن تضحك فاضحك، لأن الموقف كوميدي بامتياز، وإذا أردت أن تبكي فابك، لأن المشهد يملأ القلب بالحسرة.
مشهد لا يقل لطافة عن السابق: مواطن آمن يتلقى خطابًا من مصلحة الضرائب يخطره بسرعة سداد الضرائب المتراكمة عليه طيلة العشرين عامًا الماضية عن محله التجاري الكائن بشارع كذا.. يهرع المواطن المفجوع إلى مأمورية الضرائب ويخبرهم بمجامع قلبه المخلوع أنه موظف حكومة ولم يسبق له العمل بالتجارة، ولم يسبق أن تملّك أو استأجر محلات تجارية في يوم من الأيام، فيطمئنه الموظف اللطيف بأن عليه أن يحمد ربنا لأن المعاملة الضريبية تحسنت كثيرًا في عهد وزير الضرائب الحالي، وأنه في الإمكان جدولة المبلغ وتقسيطه على دفعات. يشد الرجل شعره ويبكي صارخًا بأن المقصود لا بد أن يكون شخصًا آخر، فيخف إليه المدير يطيب خاطره ويهدئ من روعه ويأخذه إلى مكتبه ويطلب له فنجان قهوة، ثم يزف إليه البشرى أنه يستطيع أن يكتب تظلّمًا يشرح فيه الأمر كاملًا، وبالتأكيد ستكون النتيجة إيجابية ويتم إعفاؤه من نصف المبلغ!!.. يتحامل المواطن على نفسه ويرفض أن ينهار، ويصعد للسيد مدير عام المصلحة يشكو له عبث موظفيه واستظرافهم الذي لم يعد يحتمله. من حسن الحظ يكون الرجل إنسانًا نبيلًا، يتفهم الأمر ويعترف للرجل أنه يصدقه في كل ما يقول ويبدي اعتذارًا شديدًا نيابة عن موظفيه، لكنه لا ينسى وهو يوصله للباب أن ينصحه بأهمية الدفع حتى لا يتم الحجز على شقته!
ثالث المشاهد: تدخل محطة البنزين لتقوم بتموين السيارة فيلتف حولك ما يقرب من عشرة شبان. واحد يملأ الخزان، والثاني يمسح الزجاج والثالث يرفع غطاء السيارة ويمثّل أنه يقوم بفحص الماء والزيت.. كل هذا طبعًا من أجل البقشيش، ولا تتصور مدى المهانة والمعاملة الفظة التي يتعرضون لها على يد الزبائن الذين يستثقلون تلكؤهم وتحلقهم حول السيارة.. لكن التعاطف يحل محل الضيق عندما تعرف أنهم يعملون بدون أجر عند صاحب المحطة الذي لا يترك لهم خيارًا سوى قبول المهانة أو الموت جوعًا.

وعندما تهم بالتحرك بالسيارة يتقدم منك دفعة أخرى من الشباب، ولا يمكن لمثلي أن يخطئ أن كلًا منهم قد سهر يكوي القميص واقترض ربطة العنق حتى يكون مظهره عند مستوى توقعات المجرم السادي صاحب العمل الذي يطلقهم في محطات الوقود للترويج لمشروعه الذي لا يخرج عن «تايم شير» أو برامج حج وعمرة أو رحلات سياحية، وذلك دون أن يدفع لهم أي راتب، وكله بالعمولة.. بمعنى أن الشاب الذي يعتصم بالحياء ويرفض ممارسة «الغتاتة» على الناس فإنه في الغالب سيبيت بدون عشاء.

أليست الأمثلة السابقة تتشابه مع القصة الشهيرة عن الرجل الذي سقطت به الطائرة ووجد نفسه في جزيرة الماهونجا.. سأحكي لكم حكايته:

بعد أن سقطت الطائرة تلفت حوله فأبصر قومًا يرتدون الريش ويرقصون - وهو في وسطهم - على قرع الطبول، وبعد أن حاصروه حملوه إلى شيخ القبيلة ليقضي في أمره. قال له شيخ القبيلة: لقد اجترأت على أرضنا وتواجدت داخل أملاكنا الخاصة، ولهذا سوف نعاقبك.. عليك أن تختار بين أمرين: إما «هونجا» وإما الموت.

ارتعدت فرائص الرجل من الرعب، لكنه أدرك أن هونجا مهما بلغت قسوتها فلا شك أنها أرحم من الموت، فقال باكيًا: لقد اخترت هونجا. كانت نتيجة هذا الاختيار أنهم أخذوه ففسقوا به ثم تركوه على الشاطئ محطمًا وابتعدوا.

لم يهدأ الرجل ولم يستطع أن ينسى ما حدث، وصمم على الانتقام.

عاد إليهم في اليوم التالي وطاح فيهم بعصاه، لكنهم تكاثروا عليه وأخضعوه، وحملوه إلى الزعيم مثلما فعلوا بالأمس. لم يفعل الزعيم سوى أن كرر عليه الاتهام: لقد اجترأت على أرضنا وتواجدت داخل أملاكنا الخاصة، عليك أن تختار.. هونجا أو الموت؟

في هذه المرة كان اختياره حاسمًا وقرر أن يموت بطلًا ولا يقبل العيش مع العار، فقال لهم بعلو الصوت: لقد اخترت الموت.

وهنا أعلن شيخ القبيلة حكمه النهائي: إذن... هونجا حتى الموت!

والمصريون أيضًا تحت حكم المماليك ليس لهم أن يختاروا سوى هونجا.. أو هونجا حتى الموت!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نضال شريف من أجل علف ملوث

لم يأت الأمر بغتة.. لكنه تسلل إلى حياة المصريين بالقَطّارة، كل يوم نقطة، حتى صحوا ذات صباح ووجدوا الناس تعايرهم، وهم لا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم التهمة الرهيبة، ولا أن يقاوموا من فعل بهم ذلك!

تسألوني ما هي التهمة ومن فعل بهم ماذا؟ أقول لكم: إن هذا هو ما صوّره ببراعة الأديب الأعظم يوسف إدريس في إحدى قصصه القصيرة، عندما حكى عن امرأة كانت تستقبل كل ليلة الأسطى الذي يعمل ابنها عنده في الورشة، وكيف كانت تُدخل أطفالها الأيتام ليناموا تحت السرير بينما هي والأسطى فوق السرير. وصف إدريس مشاعر الولد عندما بدأ زملاؤه في الورشة يعايرونه بما يحدث في بيتهم بأنها كانت مشاعر الضيق.. لكن الغريب أنه عجز عن فعل شيء بسبب أنه لم يستطع أن يدعي مثلًا أنه تفاجأ بالأمر، لم يستطع أن يقول لهما: لقد ضبطتكما متلبسين بالفعل القبيح، ذلك أن الأمر لم يأت بغتة، وهذا المشهد كان يحدث كل ليلة منذ كان صغيرًا لا يدرك وحتى صار صبيًا يعي ويفهم.. لقد تسلل إليه قطرة قطرة وعبر سنوات، فأفقده هذا القدرة على الثورة، أو على ادعاء الغضب!

كان الناس في السابق عاديين تمامًا مثل كل البشر، لكنهم في أزهى العصور عبروا البرزخ الفاصل بين جنس البشر وبين الخروف. لم يحدث هذا فجأة، لكن بالتدريج.

ولا أصدق أبدًا أن الشياطين الذين فعلوا هذا بالإنسان المصري كانوا إنتاجًا محليًا، لأن المجرمين الذين نعرفهم بحكم الأيام والعشرة يملكون القلب البارد والضمير الميت حقًا، لكنهم لا يملكون العقل القادر على التخطيط والفعل الدؤوب. ولا شك أن المخطط كان يبدأ بتجويع المواطن بهدوء، فينهار التعليم والأمن والصحة والثقافة والصناعة والزراعة وتنتشر الرشوة ويعم الفساد وتسقط العمارات والأخلاق، ويفقد الإنسان شرفه وكرامته وإنسانيته بالتدريج، ويخرج في نهاية الأمر من زمرة البشر إلى دنيا الخراف الذين يكتفون بالعلف الذي يقدم إليهم، ويستسلمون للعيش في الحظيرة القذرة. ولأجل هذا فقد عانى الأمرّين كل من حاول أن يدافع عن حقهم في أن يعودوا آدميين مرة أخرى ويحظون حتى بالحد الأدنى من حقوق البشر. وكان يحز في نفسي أن أرى حركة كفاية تعلن عن المظاهرة قبل موعدها بشهر كامل وتقوم بمحاولة الحشد ودفع الناس دفعًا إلى الخروج للمطالبة بأبسط الحقوق، وتكون النتيجة في النهاية مظاهرة هزيلة من بضعة عشرات من الناشطين الشجعان، أما من سيطرت عليهم روح الخروف فكانوا في علفهم يهمعون!

لكن يبدو أن الوحوش الشرهة وقد أغراها الخنوع قررت أن تجور حتى على العلف.

وهنا فقط كان الخروج الكبير الذي أثار دهشة الذين أصابهم اليأس. لقد خرج العمال في كفر الدوار في اعتصام امتلأ بالإصرار الذي كنا قد نسيناه، وقطع المواطنون العطشى في كفر الشيخ الطريق الدولي ملوحين بالجراكن، وخرج عمال غزل المحلة واعتصموا بالشارع يفطرون على الرصيف في شهر رمضان، ثم كانت المفاجأة بخروج موظفي الضرائب العقارية من كل المديريات ليلتقوا بشارع قصر العيني وينصبوا الخيام للمطالبة بالحقوق في مشهد لم يحدث من الموظفين أبدًا.. أولئك الذين عُرفوا دائمًا بممالأة السلطة والخروج فقط من أجل المشاركة في تزوير الانتخابات مقابل

عشرين جنيهًا وسندوتش. ولم ينته العام إلا وكان الحجيج في الأماكن المقدسة قد أعلنوا الغضب وقاموا باحتجاز البعثة الوهمية التي أهملتهم وتركتهم للضياع.
كل هذا الذي حدث في عام ٢٠٠٧ ينظر إليه البعض باعتباره بداية صحوة لن تنتهي إلا بحصول المصريين على حقوقهم كاملة في الحرية والكرامة ولقمة العيش، لكن من جهة أخرى هناك من يرون الموضوع مجرد انتفاضة من أجل استعادة حقوق الخراف التي كان رجال الأعمال الحاكمين قد استكثروها على الناس، ودليلهم على ذلك أن اعتصام كفر الدوار كمثال قد انفض بمجرد حصول العمال على عشرة جنيهات بدل وجبة!!
عمومًا سيكشف لنا العام الجديد هل هي بشائر التغيير ومحاولة العودة من جديد إلى دنيا البشر أم أنها حلاوة الروح من أجل استعادة العلف الملوث!
القوارض الاستثنائية الجامحة
شاهدت فيلمًا ورد إليّ حديثًا عنوانه «القوارض الاستثنائية الجامحة» يحكي عن بلدة آمنة يعيش أهلها في سلام حتى هبط عليها نوع أسطوري من القوارض ذات أحجام مهولة كانت تهاجم البشر وتقتات على لحومهم، وكانت تتميز بالشراسة الشديدة في الهجوم ثم تختبئ تحت الأرض ومعها الفرائس.
كان لهذا الفيلم الفضل في إخراجي من حالة الضيق التي انتابتني بعد متابعة مسلسل «عز يتحدى رشيد» الذي عشنا فصوله على مدى الأيام السابقة.
وربما كان سبب ضيقي بالمسلسل هو أن التحليلات التي قرأتها بشأنه قد فشلت في أن توضح لي لماذا تم فتح النار على أحمد عز في هذا التوقيت بالذات؟ ومن هو المايسترو الذي أعطى إشارة البدء بالهجوم؟ وكيف نجح في طمأنة المهاجمين بأن عواقب هذا الهجوم ستكون سليمة؟
بعض ما قرأت عزا الأمر إلى صراع بين أجنحة في السلطة، وأن هناك من يقوم بتسريبات إلى الصحف من شأنها أن تحرج منافسيه في مص دماء المصريين، وإظهارهم في صورة أكثر بشاعة أمام رأي عام يشمئز منهم جميعًا. وقد أكدت بعض التحليلات والتفسيرات أن صراعًا ضاريًا قد احتدم، وأن الضرب قد وصل إلى الأجزاء الحساسة، وعلينا أن ننتظر مزيدًا من الفضائح المتبادلة.
هذا الرأي السابق على وجاهته لا يقنعني لأكثر من سبب.. منها أن المنافسة والصراع بين ديوك السلطة والبيزنس ليس جديدًا، وأن تسريباتهم التي تصل للصحف حول بعضهم بعضًا متوفرة طول الوقت وكفيلة بإصدار ملاحق يومية، لولا أن نفس هذه الصحف قد فرضت على نفسها التأني والحذر، وهي عمومًا لا تجرؤ على نشر كل ما يصلها إلا بعد التأكد من أشياء وحساب أشياء ومراجعة أصحاب الأشياء!
ذكر لي صديق صحفي أنه كتب مقالًا في العام الماضي تناول فيه بعضًا من أقطاب السلطة وبارونات خلط المال بالسياسة، وأضاف أن مقاله هذا قد تضمن في إحدى فقراته جملة طويلة أورد فيها ثمانية أسماء اتهم أصحابها بتخريب مصر عمدًا ومع سبق الإصرار، وقد فوجئ صديقي عند نشر المقال في صحيفته الليبرالية بأن كل الأسماء التي تناولها قد ظهرت كما هي، عدا اسمًا واحدًا تم حذفه بواسطة رئيس التحرير.. وأن صاحب هذا الاسم كان أحمد عز! لهذا فقد وقر في عقل صديقي أن المسألة لا تخرج عن أحد احتمالين: الأول أن رئيس التحرير تأتيه إشارات مثل الشيخ علام الذي كان يقرأ سطور الأفق ويخرج منها بنتائج، وأنه من استقرائه لما يدور في الكواليس قد أدرك أن مصر رايحة في ستين داهية، وأن أحمد عز سيكون عندئذ معتليًا ركام الخرابة ومتسيدها، فلم يشأ أن يثير حفيظة رجل بدا للجميع أنه «أقوى من سانجام». والاحتمال الآخر هو أن هناك تعليمات من اللهو

الخفي كانت تمنع المساس بعز أو انتقاده، وقد استجاب لها كل من أراد أن يجد لنفسه مكانًا على حِجر اللهو الخفي! لكن أيًا كان السبب فقد أدرك صديقي أن الأمور في حقيقتها ليست كما تبدو عليه، وأن المياه العميقة تمور بحبكات ومؤامرات من الصعب تصورها.

لهذا كله لم أستطع هضم فكرة أن تسريب الأخبار هو الذي جعل الصحف تهاجم «عز» وتتعامل معه كما لو كان الأمر هو «صحافة حرة تواجه رجلًا متهمًا بالاحتكار»، خاصة أن نفس هذه الصحافة الحرة كانت تتحاشى المساس به من قبل وهو غارق في الاحتكار إلى أذنيه! والأمر الجدير بالتساؤل هو: هل غيّر اللهو الخفي توجهاته، أم أن أكثر من لهو خفي يوجد على الساحة ولكل منهم قوته الضاربة في الصحافة؟

أما حكاية أن «عز» المحتكر قد انتصر على رشيد عدو الاحتكار في موقعة «حكر أبو دومة» فهي لا تقنع سوى البلهاء، فلم يحدث أبدًا في السينما المصرية أن انتصر فريد شوقي على استيفان روستي أو العكس، فهما يلعبان لنفس الفريق، والخصم الذي يحرز الأهداف في مرماه هو نفس الخصم العبيط. لذلك ليس هناك داع لخدع الناس بحكاية استقالة رشيد التي صمم عليها، واعتكافه في باريس، حتى سافر إليه نفر من أعضاء النادي استحلفوه بالأخوية وبالمصير المشترك ووحدة الأهداف والتاريخ واللغة والعادات والتقاليد أن يعود.. فعاد.

من بعدها كتبت الصحف عن عودة رشيد مهزومًا، وأنه لم يكن مقنعًا عندما صرح بأن القانون في صيغته الحالية هو شيء إيجابي وطيب وفي الإمكان أن نبني عليه في المستقبل.. وأرجعت الصحف هذا الكلام إلى محاولة الرجل حفظ ماء الوجه بعد هزيمته المدوية. لكن في تقديري أن هذا الكلام هو أكثر ما يسعد «رشيد» ويسعد «عز» في الوقت نفسه، ولا بد أنهما قد ضحكا معًا على الصحافة الطيبة التي نشرت ما يريدانه بالضبط!!

عمومًا سأعود إلى مشاهدة فيلم «القوارض الاستثنائية الجامحة» ولن أتابع مسلسلات السياسة بعد الآن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حادثة على الطريق

عندما كنت أقترب بالسيارة من منتصف الطريق الصحراوي الواصل بين القاهرة والإسكندرية لم أكن أعرف أنني بعد لحظات قليلة سأكون أحد ضحايا هذا الطريق. رأيت بعيني في المرآة سيارة تأتي من الخلف مندفعة اندفاعًا شديدًا وكأن قائدها قد أقسم ألا يعود إلى بيته. كانت السيارات تفر من أمام هذا المجنون وتنعطف يمنة ويسرة لتتفادى اصطدامه بها. ولأنني لم أتلق مع دروس القيادة التي تعلمتها من زمان أية تعليمات بشأن الهجمات الانتحارية، فلم أعرف ماذا أصنع، ووجدت نفسي أحدّق في المرآة أسألها بأي وضع من الأوضاع ألقاهُ.. الموت أقصد. أغمضت عينيّ وسمعت دوي الارتطام وأحسست بسيارتي ترتفع في الهواء ثم تقوم بعمل «لاندنج» عنيف وتلف حول نفسها عدة مرات قبل أن تتوقف. نزلت من السيارة وكانت المفاجأة أنني سليم والحمد لله إلا من بعض الرضوض والكدمات. أخذت أنظر إلى نفسي وأنا غير مصدّق. من الواضح أن الله قد أنقذني من موت محقق، وأن حزام الأمان قام بتثبيتي في المقعد، فلم تدق عنقي. كانت السيارة التي صدمتني تقف على مسافة كبيرة إلى الخلف وهي مسافة مكافئة لقوة الضربة. ولاحظت أن كل من ينظر إلى سيارتي المحطمة يضرب كفًا بكف ويسأل الله النجاة. حضرت الشرطة فدعوت الضابط للجلوس بجواري على الرصيف، ثم سلّمته الرخصتين اللتين طلبهما. الغريب أنني شعرت بالإشفاق على رجل الشرطة الذي ليس لديه في هذه الحالات ما يفعله سوى السعي إلى إقناع الطرفين بالتصالح ونسيان ما حدث (أيا كان ما حدث!). في بلاد الدنيا كلها يتولى التأمين أمر التلفيات في حالة الحوادث ويقوم القانون بتقرير العقوبات والتعويضات بالعدل. لكن نحن وكما هو الأمر في شأن ديموقراطيتنا النابعة من خصوصيتنا، فإن تجربتنا مع الحوادث نابعة أيضا من خصوصيتنا، وهذه الخصوصية تقضي بأنه لا تعويض عن الحوادث لأن التعويض حرام! أما مبلغ التأمين الإجباري الذي يتم دفعه عند الترخيص فهو أشبه بالصدقات التي تطفئ غضب الرب لكن لا علاقة له بالحوادث! غاب عني الشرطي قليلًا ثم حضر ومعه صاحب السيارة التي صدمتني وكنت أراه للمرة الأولى منذ وقوع الحادث. وجهه غاضب ومكفهر. سدد نحوي نظرات نارية وبدا أنه يريد افتراسي. برغم ذلك قلت لنفسي سأعاتبه قليلًا ثم أتركه يمضي لحال سبيله، وعلى الله العوض في السيارة. قال الضابط: إما أن تتصالحا أو نقوم بتحويل الأمر إلى النيابة تقضي فيه بمعرفتها. قلت له: أنا لا أريد شيئًا سوى أن يكون الأستاذ قد عرف نتيجة التهور وأن يتمهل في قيادته وتكفيني منه كلمة اعتذار. وهنا فوجئت بالرجل يتوجه بحديثه للضابط قائلًا: أنا لن أعتذر، هو الذي يجب أن يعتذر، إنني أرفض التصالح وأريد حقي، وهذا الرجل (الذي هو أنا) لا بد أن يقوم بإصلاح التلفيات في سيارتي. قلّبت بصري بينه وبين الضابط في ذهول وتساءلت: أنا الذي أعتذر؟ أنت الذي تريد تعويض؟ هل يتعين عليّ أن أعتذر لأن قفايا قد تجاوز وآلم يدك الكريمة عندما صفعها؟ يا حضرة الضابط قل شيئًا.. إن سيارتي قد عُجنت وسُحقت من الخلف وليس من الأمام والأفندي يطلب تعويضًا.. يبدو أن تسامحي قد أغراه، أو أنه فاقد للإدراك ولا يعي حجم الخسارة التي سببها لي، لقد كنت أنوي أن أتنازل وأتركه يمضي لحال سبيله، أما بعد الذي قاله فلا يسعني سوى أن أمضي في الإجراءات القانونية وسأقوم بتوكيل محام وسأطلب تعويضًا ضخمًا.. خذ إجراءاتك القانونية ولنذهب إلى النيابة. قال الضابط: مقر النيابة في الجهة المقابلة.. هيا بنا. عندئذ فوجئت بالغضنفر الغاضب يتراجع عن عنجهيته ويقول: خلاص أنا موافق على الصلح.

قلت له: ليس هناك صلح.. ستدفع ثمن إصلاح سيارتي علاوة على تعويض لقيامك بترويعي وتعطيلي ولن يكفيني أقل من سجنك. فاجأته صلابتي وإصراري فتراجع أكثر: أنا مستعد أبوس رأسك وإذا كنت تريدني أن أعتذر فأنا آسف آسف آسف، وتقدم مني محاولًا تقبيل رأسي فعلًا. أدهشني هذا التحول في موقفه حتى أنني ظننته مختلًا عقليًا.

بعد انصرافه سألت الضابط: ما رأيك في هذا النموذج؟ قال: عادي تمامًا وأراه كل يوم. بسبب عدم وجود نظام حقيقي للتأمين على السيارات فمن العادي أن يهرب الجناة عند وقوع حادثة، ومن لا يتمكن من الهرب من مسرح الحادث ينزل من سيارته مثيرًا زوبعة من الصراخ والشتائم وادعاء البراءة محاولًا جمع رأي عام من المتفرجين يسانده ليلقي في قلب الضحية الرعب ويجعله يرضى بالتصالح ويعتبره مكسبًا حتى لو كانت سيارته قد أصبحت خردة! وأردف الضابط: فإذا قام الجاني بكل هذا لكنه مع ذلك فوجئ بالطرف الآخر يصر على أن يأخذ القانون مجراه.. هنا تجد الأسد قد تحول إلى قط سيامي لطيف يطلب الرحمة. قلت له: أنا الذي أطلب الرحمة من هذا الوطن الملعون!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحكومة وتكتيك إنهاك العدو!

عندما صدر قرار الأمم المتحدة بتقسيم أرض فلسطين عام ٤٧ كان طبيعيا أن يرفضه العرب، ولكن بعد الهزيمة العربية في حرب ٤٨ انخفض سقف المطالب العربية، وارتفعت الأصوات الراغبة في قبول قرار التقسيم والعودة إلى خطوط ما قبل الحرب.

ثم يقع العدوان الثلاثي على مصر عام ٥٦، وقبله لم تكن مصر تسمح لسفن إسرائيل بالمرور من القناة، ولكن كنتيجة للعدوان فقد كسبت إسرائيل الحق في المرور.. ومرة أخرى تتعاظم المكاسب الإسرائيلية، كما يزداد حجم الحقوق التي يتعين علينا استردادها فتخفت الأصوات المطالبة بعودة فلسطين كاملة وتظهر أصوات عربية تطالب بقبول دولة واحدة تضم العرب واليهود. وتأتي صاعقة ٦٧ ويتم احتلال سيناء والجولان والضفة وقطاع غزة ليتسع الخرق على الراتق وتزداد المهمة صعوبة ويصبح التفكير في تحرير فلسطين حلما مؤجلا بعد أن أصبحت إزالة آثار عدوان ٦٧ هي القضية الأولى بالاهتمام، وتتضاءل مطالب العرب وتصير أغلى أمانيهم هي العودة إلى حدود ٤ يونيو والاكتفاء بالضفة وغزة لإقامة دولة فلسطين.. و(ربنا يعوض علينا في حيفا ويافا وعكا وعسقلان والنقب).. ثم يزداد الموقف تدهورا بخروج مصر من المعادلة بعد كامب دافيد، وينخفض سقف المطالب العربية ويقبل الفلسطينيون بالفتات في دوامات مدريد وأوسلو وواي ريفر.. ثم لا يحصلون على شيء!

هذا النهج الذي اتبعته إسرائيل بمواصلة العدوان بشكل مستمر على العرب جعل المجهود العربي يتشتت وتتم التضحية اليوم بمطالب الأمس العادلة، ثم تتوارى مطالب اليوم تحت وطأة العدوان الواقع غدا.. وهكذا.

ألا ترون أن هذا التكتيك الإسرائيلي في إنهاك العدو هو ذاته ما يواجهه المصريون كل يوم في سعيهم لطلب الرزق وفي تحركهم من أجل الإصلاح والديموقراطية والانتخابات الحرة وتداول السلطة وإنهاء الطوارئ وإقامة دولة القانون؟

إن القوى الحية في المجتمع سواء القضاة أو الصحفيون أو أساتذة الجامعة وعمال المحلة وموظفو الضرائب العقارية وحركة كفاية وغيرها من الحركات المطالبة بالتغيير تفاجأ كل يوم بعدوان جديد من السلطة يزيد من حجم ركام التعديات المطلوب إزالتها ويجعل عملية التغيير السلمي أكثر صعوبة.. إذ يحتار المرء في ظل العدوان اليومي على حقوق الناس أي الأمور أولى بالاهتمام وأي القضايا ينبغي الوقوف عندها والتركيز عليها وأي الحقوق أولى بالاقتضاء؟ هل نركز على رغيف الخبز الذي أذلوا به الناس، أم نسعى لتدارك الآثار المدمرة الناجمة عن رفع الأسعار؟ هل نهتم أكثر بفضيحة منح إسرائيل الغاز المصري بالمجان تقريبًا، أم نمنح وقتنا وجهدنا من أجل إيقاف العمل بمصنع أجريوم الذي يمثل التفريط في أوضح صوره؟ هل نركز على موضوع الماء الملوث الذي نشربه مخلوطًا بالمجاري فينتشر الفشل الكلوي، أم نهتم أكثر بالطعام المسموم الذي يجلب السرطان؟ هل نهتم بضحايا ممدوح إسماعيل الذين غرقوا في البحر ونسعى لتقديمه للمحاكمة ورفع الحماية الرسمية عنه؟ أم نصطف لمواجهة قانون المرور الذي سيخرب بيوتنا ويجعلنا تحت رحمة أصغر عسكري؟ هل نواجه قانون الضرائب العقارية أم قانون مكافحة الإرهاب؟ هل نتذكر ضحايا قطار الموت ونطالب بمحاكمة من تسببوا في حرق ٤٠٠ مواطن، أم نترك قطار الصعيد ونفكر في الذين

احترقوا داخل مسرح بني سويف ونأخذ حقهم من القتلة؟ هل ننسى الذين انتهكوا عرض الفتيات في يوم الاستفتاء المشؤوم ونعطي اهتمامنا لكارثة ضرب المواطنين في البرلس والقبض عليهم لأنهم يطلبون الدقيق؟

إن السلطة تقوم بإنهاك الشعب عبر إدخاله في دوامات لا تنتهي من المصائب، وتفتح على الناس جبهات جديدة كل يوم مستخدمة وسائل غير شريفة بالمرة لمراكمة الأجندة الوطنية ببنود لا نهاية لها، وبشكل يجعل عملية التفاوض ـ بعد الإنهاك الكامل ـ مربحة للسلطة في كل الأحوال.. وهذا تكتيك إسرائيلي معروف يقوم على الإيغال في العدوان والضغط المستمر ليجعلك تترك أحزان الأمس وتنشغل بمصيبة اليوم وتحاول تحجيم آثارها. ومن المؤسف أن تتعامل السلطة في مصر مع شعبها على هذا النحو الذي ابتدعته إسرائيل في مواجهة أعدائها العرب، فتنفذه حكومتنا بنفس الطريقة في مواجهة أعدائها التاريخيين.. المصريين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أدب

اسمك مكتوب يا حبيبي
ع القمر العالي هناك
قسمة ومكتوب يا حبيبي
مكتوب لي إن أنا أهواك

عبد الرحيم منصور

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تغريدة البجعة.. نهاية الرغبات المجنونة

منذ أن فرغت من قراءة تغريدة البجعة.. رواية مكاوي سعيد الجديدة، وأنا أتحسب عندما تدفعني الظروف لركوب مترو الأنفاق، ذلك أن مكاوي أو مصطفى بطل الرواية قد ألقى في قلبي الرعب من خلال الرغبة العارمة التي كانت تنتابه في أن يلقي بأحد الواقفين على رصيف المحطة فوق القضبان عندما يكون القطار قادمًا، وخوفه الشديد على نفسه لإحساسه بأن الآخرين أيضًا لا بد من بينهم من يرغب في فعل ذلك بشدة. تذكرت أحد أصدقائي المجانين وكان يُسِرّ إليّ بأنه كثيرًا ما تراوده فكرة أن يقوم في أثناء محادثة ودودة مع أحد الأشخاص المهمين بالبصق في وجهه، ثم الانتظار والتطلع لما يمكن أن يحدث، وأنه دائمًا ما يستخدم أشد المكابح قوة في السيطرة على رغبته المجنونة!

كتب مكاوي هذه الرواية وكأنه يصلي صلاة مودع، فلم يشأ أن يترك شيئًا «لبُكرة» ولم يرغب في أن يترك أمرًا في نفسه لم يقله، فازدحمت الرواية، وتكاثرت علينا الشخصيات والأحداث، وحاصرتنا المتعة الصافية حتى النهاية. سياسة ودين، جنس واجتماع.. عولمة وصوفية وأطفال شوارع، مظاهرات وسجون، أجانب ذابوا في مصر وأجانب يعبثون بها ويتسلّون بعذابها.. اجتياح لبنان وإحراق غزة واحتلال العراق.. تديّن وشعوذة ومناضلون فالصو، جنون نتعامل معه باعتباره عاديًا، وأدوية اكتئاب تذهب بالاكتئاب سريعًا ثم تعود به أكثر توحشًا... أصدقاء يتساقطون، ورعب من غياب أي ضمانات بأن أعز من أحببناهم وصادقناهم لن يتحولوا في الغد إلى أناس يطلبون لنا الهداية ويكرهوننا في الوقت ذاته لأننا نذكّرهم بأنهم كانوا مثلنا في يوم من الأيام.

تصلح هذه الرواية لتختصر في إبداع مثير قصة وسط البلد بمثقفيه وصعاليكه ومتشرديه، حاناته ومطاعمه ومقاهيه.. ونسائه الضائعات. كل المفردات التي نعرفها ويعرفها مكاوي جيدًا باعتباره من معالم المنطقة الممتدة من القصر العيني حتى ميدان طلعت حرب وتضم ريش والجريون وإيستوريل والنادي اليوناني وجروبي والأتيليه والمركز الثقافي الهندي. هذه الأماكن أنطقها مكاوي سعيد وجعلها شاهدة على البجعة في أيامها الأخيرة عندما تطلق آخر أنفاسها في تغريدتها المؤلمة الجميلة.

من بين كل نساء الرواية اللواتي لعبن أدوارًا في حياته مثل مارشا الأمريكية الواقعية وهند حلمه الكسير الضائع، وياسمين «بدل الفاقد».. لم يحفر قلبي سوى زينب، ربما لأني أعرفها جيدًا، وأعرف أن أحزانها الأبدية هي بعض من أحزاني. أما هند فقد رأيتها كثيرًا بعد أن نجت من الموت بفعل شظايا اللغم الذي انفجر فيها، وقد حضرتُ زفافها على عريس قادم من الخليج. وشاهدتها ترتدي الشادور الأفغاني، وقد زاد وزنها كثيرًا وأصبحت تتحرك ببطء في طريقها لحضور دروس الشيخ خالد الجندي وإلى جوارها شاهيناز زوجة أحمد الحلو!. لكن زينب.. يا عيني على زينب، أعرفها كما أعرف نفسي وأفهمها من دون أن تتكلم، لمسة حانية من أي يد وسط محيط القسوة المتلاطم تجعلها لا تضن على صاحبها بشيء.. مجرد أن تعاملها معاملة طيبة تتمثل في أن تضربها مرة واحدة في الأسبوع وتسب الذين خلفوها ٥٠ مرة في اليوم فقط.. كفيلة بأن تجعلها تقتلع عينًا وتمنحها لك راضية.

أما سامانتا حبيبة عصام الفنان أعز أصدقاء بطل الرواية فلم أكرهها عندما كان مصطفى يمقتها ويتمنى نسفها من على الأرض لإحساسه بأن «عصام» يستحق أفضل منها بكثير، كما لم أحبها عندما

اتضح أنها كانت غادة الكاميليا التي كتمت عن حبيبها مرضها حتى لا تعذبه، لأنني شاهدت قصتها كثيرًا منذ أفلام أمينة محمد وعزيزة أمير التي كان يكتبها لهما استيفان روستي!
من أجمل مشاهد الرواية التي أسرتني، اللقاء الذي جمع بين مصطفى وبين شاهيناز حبيبة صديقه أحمد الحلو وزميلتهما بالخلية اليسارية التي تضمهم.. كان ضيقه منها غير خاف لتطرفها وحِدتها. في هذا اليوم طلبت لقاءه وفاجأته بأنها تريد مفتاح شقته لساعتين هي وأحمد. كان قد رفض نفس الطلب من أحمد ولم يتصور أن تتجرأ شاهيناز وتتوسل إليه أن يعطيها المفتاح. كانت فرصة ذهبية أتته على طبق من فضة ليذلها ويكسر كبرياءها. كان يستمع إليها ويرقبها وهي تتكلم حتى يحتفظ في ذاكرته بما يدينها في المستقبل «لكنها ألقت على مسامعي سيلًا دافقًا من المشاعر الفياضة أطاحت بكياني كله ففتحتُ لها صفحة جميلة بقلبي صرت أستعيدها كلما ضاقت بي الأمور».
إن من يقرأ تغريدة البجعة سيشفق على مكاوي سعيد من الجهد الإبداعي الذي استغرقه لكتابتها وقد يتصور أن شيئًا لم يتبق للعمل القادم بعد أن قال كل شيء، لكني أعتقد أن مكاوي يغترف من نبع ملئ باللآلئ التي تحتاج إلى عشرين حياة قبل أن تنضب. فقط أعتب عليه لأنه زاد مخاوفي من الوقوف على رصيف المحطة، مثلما عشت أخشى من صديقي المجنون ورغبته الحارقة التي لا أضمن أن تقهره بينما يحدثني وجهًا لوجه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلال أمين.. ذلك الرجل المدهش

ذكر الدكتور جلال أمين في سيرته الذاتية شيئًا استوقفني طويلًا، وأراه يفسر سبب إعجابي وتقديري لكتاباته منذ تعرفت عليه للمرة الأولى في «نحو تفسير جديد لأزمة المجتمع المصري».. قال أمين إنه يعتقد أن الكاتب الجيد أو الكتاب الجيد ليس هو الذي يضيف إلى معلوماتك أشياء جديدة لا تعرفها، وإنما هو الذي يؤكد لك ما كنت تعرفه من قبل. هذا الرأي كشف لي لماذا كنت ولا أزال مشدودًا دائمًا لكل ما يكتب وراغب في الاستزادة منه.. ذلك أنه يحدثني دائمًا عن أشياء أعرفها، ويقدمها لي بطريقة بسيطة وآسرة، ومن ثم فقد وجدت في كتاباته ألفة شديدة وحصلت معها على «الونس» الذي أحتاجه ليؤكد لي أنني لست وحيدًا.

حدث هذا عندما قرأت كتابه «الدولة الرخوة» وفيه تحدث عن النموذج اللبناني كمثال واضح لغياب الدولة وكيف أن مصر تسير بسرعة في نفس الاتجاه «ففي مجتمع غير منتج وإنما يعتمد على أعمال الوساطة لا يمكن أن أغتني أنا وأنت في نفس الوقت، إذ لم ينتج شيء جديد يمكننا اقتسامه، بل يكون ثرائي على حسابك وثراؤك على حسابي، لأننا نتبادل السلع ولا نصنعها، والأمر يتوقف على أينا أشطر من الآخر».

وحين كتب منذ سنوات عن الأستاذ ثروت أباظة رحمه الله لم أصدق كيف أنه عبّر عن كل ما أشعر به تجاه كتابات الرجل ضعيفة القيمة، محدودة الموهبة، على الرغم من السمعة الكبيرة التي كانت تحيط به والهالات الإعلامية التي كانت تصوره أديبًا عالميّا، حتى إن أدباء ونقادًا كبارًا كانوا يجاملونه ويمتدحونه بشكل طالما أثار ذهولي.. فسّر جلال أمين الأمر على نحو معجز حين قال: إن المصريين «لديهم استعداد مدهش للصبر على المكاره، وعزوف عن مواجهة الأمر المعوج ووقفه عند حده، واستعداد للمجاملة حتى عندما تكون مكروهة وبالغة الضرر، ويزيد هذا الاستعداد عندما يكون الشخص المطلوب مجاملته أو الصبر عليه منتميًا إلى الشرائح الاجتماعية العليا وعضوًا من أعضاء الطبقة الممتازة». وقد أكدت لي الأيام وما زالت تؤكد صحة هذا الرأي حيث نرى أشخاصًا بلا قيمة تفسح لهم الصحف المحترمة (وليس فقط الصحف الحكومية) مساحات كبيرة وتقدمهم للقارئ بفرحة طفولية على أنهم مفكرون كبار وتنوه عن مقالاتهم بالصفحة الأولى حتى لو كانوا ثقلاء ظل وبلا موهبة وبعضهم مغتصب كرسي نيابي بالتزوير! وفي نفس السياق لا أنسى مقالًا قرأته لجلال أمين في وفاة الدكتور علي الجريتلي أستاذ الاقتصاد الكبير يتحدث فيه عن الفرق الصارخ في المعاملة والاحتفاء بين ما يلقاه الرجل العظيم في بلادنا وما يلقاه الرجل ذو النفوذ والمنصب الكبير، حيث يتضاءل الاحترام والتقدير الممنوح للعظماء بينما يحصل أتفه وزير على اهتمام بلا حدود.

ولا أنكر أن بعض أسباب إعجابي بكتاباته تكمن في تسميته الأشياء بأسمائها، في الوقت الذي يختار لها غيره أسماء «دلع»، ففي كتابه عولمة القهر يستنكر تسمية ما بين الغرب وبين الشعوب العربية والإسلامية بأنه صراع حضارات فالأمر ليس صراعًا وإنما هو اعتداء صريح عسكريّا واقتصاديا وثقافيا معًا، كذلك عدم تردده في تبني نظرية المؤامرة عندما يكون التآمر جليّا.. انظر إليه يتساءل في كتاب «العرب ونكبة الكويت»: ألا نقبل الآن أن الذي أسقط محمد علي كان مؤامرة؟ ألا نقبل أن سقوط إسماعيل كان مؤامرة وأن الاحتلال الإنجليزي لم يكن بسبب شجار بين حمّار مصري ورجل مالطي؟ ألم تكن معاهدة «سايكس بيكو» مؤامرة لم يفضحها إلا ما نشرته الثورة الروسية من وثائق؟

كذلك لا يخفي جلال أمين إعجابه بالصدق في الكتابة ومن هنا كان انحيازه للأستاذة صافيناز كاظم في كتابه «شخصيات لها تاريخ» لأن صافيناز لا تعرف الكذب ولا تكتب بنصف قلم كما يفعل غيرها، ويدهشنا الدكتور جلال حين يكشف عن نوع من الكذب ليس من السهل اكتشافه وهو أن يكتب المرء عما لا يهمه حقيقة وإنما يتظاهر فقط بأنه جدير بالكتابة، وهو يكتشف أن تميز صافيناز في جانب منه عائد إلى يقينها اللاشعوري بأن الأمر العام لا تجوز الكتابة عنه إلا عن طريق الخاص، وهو الأمر الذي أرى أن جلال أمين يشترك فيه شخصيّا مع صافيناز كاظم بشكل واضح وأن هذا هو سر إعجابه بكتابتها، فلطالما صادفنا في كتاباته مزجًا بين حياته الأسرية الخاصة وبين الأحداث والظروف التي مرت بها مصر.. حتى بعيدًا عن السيرة الذاتية فإن معظم كتاباته تتضمن هذا المزج مثلما قص علينا في «مذكرات مثقف مصري» عن وقائع تجديد رخصة قيادته ومثلما تكرر هذا كثيرا في كل كتبه مثل «عصر الجماهير الغفيرة» و«التنوير الزائف» و«العولمة» و«عصر التشهير بالعرب والمسلمين» و«خرافة التقدم والتأخر».. على أن أكثر الكتب التي تتضمن هذا المزج الرائع بين حياته الخاصة وبين هموم الوطن هو «وصف مصر في نهاية القرن العشرين».

كنت أنوي الحديث عن كتاب «ماذا علمتني الحياة» الذي يتضمن السيرة الذاتية لأستاذ الاقتصاد جلال أمين، فانتهت المساحة قبل أن أبدأ. لا بأس.. فهذا الرجل المدهش يحتاج لأكثر من مقال حتى يعرف الناس كيف يمكن أن يكون الإنسان (في مصر) بسيطًا وقويّا في الوقت نفسه، وهو أمر لو تعلمون عسير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فيرتيجو.. رواية سينمائية جميلة

أثار انتباهي اسم «فيرتيجو» على رواية مصرية لكاتب شاب اسمه أحمد مراد. أنا أعرف فيلم هيتشكوك الشهير الذي يحمل نفس الاسم وقدمه للسينما في الخمسينيات بطولة بطله المفضل «جيمس ستيوارت» والجميلة «كيم نوفاك»، وقد شاهدته مرات عديدة.

حبي للفيلم دفعني لقراءة الرواية التي اكتشفت أنها استمدت الاسم من «بار فيرتيجو» الواقع في أعلى الفندق الكبير المطل على النيل.. هذا البار الذي وقعت به أهم أحداث هذه الرواية الشائقة وهي جريمة القتل التي نفذها مجرمون محترفون يشبهون للمصادفة القاتل المتهم بمقتل المطربة اللبنانية التي عثر عليها مذبوحة في شقتها أخيرا. وللغرابة فإن المذبحة التي وقعت في البار ضمن أحداث الرواية كان سببها اختلاط البيزنس بالسياسة والاقتصاد، وكأن أحمد مراد وهو يكتب روايته كان يقرأ سطورًا من الكتاب الملوث المقرر على مصر بالإجبار لتقرأه وتأكله وتشربه وتضع منه على الجوزة وهي تشد حجرين في المساء!

يروي الكاتب قصة مصوّر يحترف العمل بالفنادق والملاهي الليلية وتضعه الأقدار في تقاطع مع جريمة رهيبة تقع على مرأى منه فيصورها بكاميرته، ويرى واحدًا من أعز أصدقائه يُقتل أمام عينيه، ومع هذا تعجز العدالة عن الوصول للجناة في ظل نفوذ أباطرة المال والسياسة.. والجريمة.

كتب أحمد مراد روايته بأسلوب سينمائي واضح تركني مندهشا لماذا لم يكتبها سيناريو للسينما بشكل مباشر؟ من الواضح أن المؤلف له باع كبير في دنيا التصوير ولم يدهشني أن علمت أنه خريج معهد السينما قسم تصوير. في هذه الرواية ولج بنا الكاتب إلى عالم الملاهي الليلية ودنيا الحظ والفرفشة والنصب والسُكْر والعربدة وعقد الصفقات وسفح الآلاف على الأرض تحت أرجل الراقصة ليأكل منها المدير والمتردوتيل والسفرجي والطاهي والبارمان والمصور والبلطجي والقواد ومنادي السيارات ورجل الآداب والرقابة وغيرهم. عالم غريب ومثير يدخله رئيس التحرير الذي يناضل بالنهار ويتصيد الفتيات الصغيرات بالليل، ويدخله رجل الأعمال الذي يكسب دون أي جهد أو عمل حقيقي وينفق أموال شعب مصر المسروقة على المومسات اللاتي يدخلن عالم الفن انطلاقًا من على حِجر رجل داعر فاحش الثراء، عديم الإحساس ولا يملك غير غرائزه دليلًا وهاديًا!

يدخل بطل الرواية عش الدبابير بعد أن يحاول استخدام الصور التي في حوزته لمحاربة الفاسدين الأقوياء، ويستعين بصديقه الوحيد ويجره معه إلى قلب المغامرة.. هذا وقد رسم المؤلف شخصية الصديق السمين بشكل شديد البراعة وأدخل البطل معه في حوارات مليئة بالكوميديا رغم أن الخناق يضيق عليهما مع تصاعد الأحداث وتعرضهما لأخطار شديدة في أحداث مشوقة تقترب من دنيا روايات «جون جريشام» التي تحبس الأنفاس والتي قدمتها السينما الأمريكية في أفلام شهيرة مثل «العميل» لسوزان ساراندون وتومي لي جونز، و«مذكرة البجعة» لجوليا روبرتس ودنزيل واشنطن، و«الشركة» لتوم كروز.

وفي ذروة الأحداث يقوم البطل وصديقه بإدخال طرف جديد معهما ويشركانه في مغامرتهما وهو الصحفي الذي يملك من الأسرار المكتوبة ما يكمل مجموعة الصور التي في حوزتهما، ويشكل ثلاثتهم فريقًا لمحاربة الفساد والتصدي له.

ورغم قسوة ظروف بطل الرواية وحياته المضطربة المهددة بعد أن شهد جريمة القتل، وبعد أن تخلت عنه أخته الوحيدة ومالت تمامًا نحو زوجها المتدين الجديد الذي هجر عالم البشر وصار خبيرًا في إخراج الجن والعفاريت.. وسط هذا كله يجد نفسه يعيش مشاعر الحب مع فتاة صماء خريجة فنون جميلة تعمل في جاليري وتدرّس الرسم للأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة. ومن أجمل مشاهد الرواية ذلك المشهد الذي كان البطل يجلس فيه مع فتاته على النيل بالزمالك يحكي لها ظروفه ويبثها مشاعره عندما أقبل عليه نفر من ضباط الشرطة يطلبون بطاقة هويته ثم يستجوبه أحدهم في صلف ويسأله عن صلته بها ولماذا يجلس معها، ويستجوب البنت أحد آخر يستظرف معها ويستمتع بارتباكها والخوف البادي في عينيها، وقد شعرتُ بالتعاطف مع الفتى وهو يرد على الضابط بأدب شديد ويكاد يستعطفه رغم براءة ساحته من أي ذنب خوفًا من أن يضربوه أمامها، ونظرته الكسيرة إلى الفتاة في نفس الوقت وهي تتعرض للإهانة من الضابط الآخر دون أية جريرة، ودون أن يملك سوى أن يتضرع إلى الضابط أن يتركها هي ويتصرف معه هو كما يشاء.. الأمر المحزن أن هذا الموقف قد كسره أمامها وجعلها تراه في صورة العاجز رغم أن أي اعتراض منه أو تذمر كانت هي التي ستدفع ثمنه في مواجهة مع أناس يدوسون على القانون بأحذيتهم.

الرواية جميلة ومشوقة وتصلح لصناعة فيلم سينمائي مثير، وكنت أتمنى من كاتبها أن يُعنى أكثر باللغة ما دام قد قدمها في شكل رواية يسردها بالفصحى، لأنها بصراحة حافلة بالأخطاء اللغوية البسيطة ويمكن له في المستقبل أن يقدمها لمصحح لغوي يعيد ضبط كلماتها، لكن هذا لا ينفي طزاجتها وبكارة أفكارها وموهبة مؤلفها الفنان أحمد مراد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«عبارة غزل» لا تحتاج لمقدمة

عندما أهدتني الصديقة فريدة الشوباشي نسخة من مجموعتها القصصية «عبارة غزل» طلبت مني أن أخبرها برأيي في أول عمل أدبي لها فور أن أنتهي من قراءته. وعدتها بأن تقرأ رأيي مكتوبًا.. لكن عليها أن تتحمل هذا الرأي ما دامت قد طلبته!

يتصدر المجموعة التي تضم ستّا وعشرين قصة قصيرة مقدمة بقلم الأستاذ محمد حسنين هيكل. عندما فرغت من قراءة المقدمة أصبت بدهشة شديدة، وأملت أن تزول الدهشة بعد الفراغ من قراءة قصص الكتاب. لكن بعد القراءة تضاعفت أسباب الدهشة.. هذا عمل أدبي جدير بأن يُقرأ، ولم يكن في حاجة على الإطلاق لمقدمة سواء من الأستاذ هيكل أو من غيره، وأنا شخصيّا لي رأي في موضوع مقدمات الكتب التي عادة ما يلجأ إليها الكُتاب الناشئون عندما يلتمسون من كاتب كبير يكون قد أعجب بالعمل أن يتفضل بتقديمه للقراء. وسر عدم ترحيبي بهذا الأمر هو أن العمل الجيد في العادة قادر على أن يقدم نفسه للناس دون وسيط، ولأن الناس قد تنسب نجاح العمل زورًا للكاتب الكبير وتجعله شريكًا فيه.. في حين أن الإخفاق لن يعلق إلّا بكاتب العمل نفسه. وبالرغم من هذا فأحيانًا كانت مقدمات الكتب تفتح للقراء أبوابًا على العمل الأدبي وتأخذ بيد القارئ نحو فهم أعمق يقود لمزيد من متعة القراءة، وهو الأمر الذي لم يحدث لسبب بسيط هو أن الأستاذ هيكل الذي كتب مقدمة الكتاب لم يقرأ الكتاب!!.. وهذا جليّ تمامًا، إذ لم يتحدث هيكل عن أية قصة من قصص المجموعة تكون أعجبته ونالت استحسانه. لقد كتب مقدمة تحمل إعجابًا وتقديرًا لشخص فريدة الشوباشي لكنه لم يتطرق إلى العمل نفسه لا من قريب ولا من بعيد. ولو كنت من فريدة الشوباشي لما رحبت على الإطلاق بنشر هذه المقدمة، ولاحتفظت بها ضمن أوراقي التي أعتز بها، وأريتها لأولادي وأحفادي، ولربما قمت بنشرها عند توافر الظرف المناسب.. لأنه وبكل الصدق من ذا الذي لا يفرح إذا كتب عنه هيكل كلامًا رائعًا مثل الذي قاله في الحديث عن فريدة. وفي الحقيقة أنا أول العاذرين لها إذا طارت من الفرحة بكلمات هيكل، لكن هذا كوم، وأن تكون مقدمة للمجموعة القصصية كوم آخر.

ظلمت فريدة نفسها بالتماس مقدمة لا تسمن ولا تغني من جوع، بالرغم من أن مجموعتها تضم قصصًا جميلة نُسجت بحساسية مثل قصة «القضبان» التي حكت فيها عن العامل الذي قام بنفسه من سنين طويلة بتركيب قضبان الترام، والزهو الذي حكى به لابنه الصغير كلما مر من الشارع أن أباه هو من عبّد الطريق للترام وزرع قضبانه.. ومشاعر نفس الرجل عندما يطلبون منه في زمن آخر أن يقوم باقتلاع القضبان التي سال عرقه فوقها وهو يبنيها.. كذلك قصة «الإنسان» عن رجل يكاد يكون لا أحد.. يقف أمام دكان بوسط البلد وكل مهمته أن يصيح مشيرًا إلى المحل بكلمة واحدة لا تتبدل، يقولها بوتيرة واحدة: «بُص بُص». أما قصة «الخاتم و.. الخاتم» فتحكي عن امرأة في الظل قنعت بأن تكون بجوار حبيبها المتزوج الذي يعاني من زوجته التي لا تفهمه ولا تحبه الحب الذي يريد، وقررت أن تكون هي الملاذ والسكن الذي يفتقده في بيته.. وتمضي فريدة في سردها عن المرأة التي تكاد تبتسم فخرًا أنها وحدها استطاعت فهمه ولأن حضنها هو ملاذه الوحيد كما كرر لها دائمًا.. لكن الصدمة تأتي عندما يصطحبها ليشتري لها هدية قبل سفره عندما ينتقي خاتمًا صغيرًا قليل السعر من أجلها، ثم يختار خاتمًا ضخمًا غالي الثمن من أجل.. زوجته!

وقصة هدية بابا نويل تحكي عن البطلة التي ظلت طوال طفولتها تنتظر بابا نويل ليلة الخامس والعشرين من ديسمبر من كل عام حتى يأتي إليها من ثقب الباب حاملًا هداياه حتى إنها كانت تترك له باب حجرتهم الوحيدة مفتوحًا ليسهل عليه الدخول، وتظل ساهرة إلى أن يغلبها النوم وتستقبل هداياه في الحلم.. سنين طويلة من الوهم أفاقت بعدها على الحقيقة: بابا نويل لا يزور الفقراء!. وقصة إجازة زوجية عن الزوجة التي استقبلت خبر سفر زوجها بفرحة كبيرة حيث تستطيع الآن أن تتحرر من القيود والواجبات اليومية وتخلو إلى نفسها وتحصل على حريتها التي طال افتقادها لها، لكنها تكتشف في غيابه أنها تحن لكل القيود التي توهمت أنها كانت تكبلها، كما تحن إلى الحرية التي اكتشفت أنها لم تعرفها إلا في وجوده!. وتتذكر فريدة في قصة «عابرة المترو» صديقة لها فرقت بينهما السنون وكانت أغلى إنسانة في حياتها أثناء فترة المدرسة.. تترك الصديقة مصر وتهاجر، ثم تمر سنوات طوال وتلتقي بها في محطة المترو في باريس.. تهرع إليها في لهفة وتناديها لكن الفتاة تعتذر بأنها ليست المقصودة.. ثم تتذكر البطلة أن الفتاة التي ظنتها الصديقة القديمة لا يزيد سنها عن العشرين، بينما هي نزلت لشراء أنبوب صبغة الشعر عساه يخفي بصمات الزمن!

وتمضي فريدة من قصة لقصة في مجموعتها الجميلة التي كتبتها على مدار سنوات الستينيات والسبعينيات والثمانينيات ثم قررت أن تنشرها أخيرا تحت اسم «عبارة غزل».. ولا أرى بالمجموعة عيبًا سوى المقدمة التي سبقتها.. ذلك أن عبارة الغزل لا تحتاج إلى مقدمة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

آلام الحب المرفوض

كتب في مذكراته:
عزيزتي أمل: كل شيء بأوان.... هكذا دائما تقول أمي، ولهذا طوال عمري وأنا أخشى فوات الأوان.
هل تعرفين أن كل ما أردته في هذه الحياة أخذته. كل ما حلمت به حققته. لكن كان يتحقق دائمًا بتوقيت جرينتش، أي بعد فوات الأوان. لهذا فأنا كما يقول الصوفية أحتمل الموت ولا أخشاه، ولكني أخشى فوات الأوان. والأمر أشبه بحالة رجل أمضّه الجوع، وعندما ابتسمت له الحياة كانت معدته قد تهلهلت وأصبحت غير قادرة على استقبال الطعام، أو كما قال برنارد شو عن جائزة نوبل عندما أعلنوا أنه فاز بها.. قال: إنها تشبه رجلًا ظل في البحر يصارع الغرق، وألقوا إليه طوق النجاة، ولكن بعد أن وصل إلى الشاطئ.. لهذا لا يلزمه الطوق ولا تسعده الجائزة.
وأنا أيضًا لا أريد أن أصل إلى قلبك المغلق بعد فوات الأوان وبعد أن يتجهم قلبي ويصير غير قادر على الحب مثلما قال صلاح عبد الصبور: أشق ما مر بقلبي أن الأيام الجهمة.. جعلته يا سيدتي قلبًا جهما. سلبته موهبة الحب.. وأنا لا أعرف كيف أحبك وبأضلاعي هذا القلب.
كلما كتبت لك تصورت أنني قلت كل شيء ثم أكتشف أنني لم أقل شيئًا، تتدافع الأفكار في رأسي وأجد أن سرعة يدي في الكتابة أبطأ من سرعة قلبي في الإملاء. أنا أكتب لك لأفلت من الحصار وحتى يتوقف الزمن عن صفعاته وركلاته ولو إلى حين. لا أصدق أنني أحببتك كل هذه السنوات دون أن أظفر بك. العمر الذي قضيته في انتظارك سرق مني الفرحة وملأ روحي بالتقرحات والأوجاع. الكتابة إليك أحيانا تفقدني عقلي وأحيانًا تعيد لي بعض الاتزان وشيئًا من البراءة التي فقدتها مبكرًا. كنت أتمنى أن أكون أقل إدراكًا وأكثر بساطة حتى يكون من حقي أن أطفئ موتور مخي قليلًا. الإنسان من حقه ألا يكون كبيرًا طول الوقت وأن يستمتع بكونه عيلًا بعض الوقت. التجارب تجعل الإنسان يكبر بسرعة وينضج قبل الأوان. أنا التجارب أحرقتني، لكن ما يمنح بعض العزاء أن تجارب الحياة بقدر ما تسلب الإنسان أشياء جميلة فإنها تضيف إليه وتمنحه عطرًا إنسانيّا، وأتصور أن هذا ما جذبني إليك وليس شيئًا آخر، وهو الذي جعلني أفسح لك مكانًا لائقًا في قلبي.. لا أتحدث عن ملامحك الحلوة وإنما عن موسيقاك الداخلية الهامسة المضبوطة على موجتي، عن نورك العاطر الذي نثر ضوءه وعبيره في ثنايا نفسي فعرفت الشوق على بابك. أنا أعلم أن نظرات الإعجاب تلاحقك وأعرف أن مطامع الأوباش تؤذيك، لكن لا تلقي لهم بالًا، إنهم لا يشعرون ولا تستوقفهم سيميترية النغم الداخلي، هم يستمعون فقط إلى كونشرتو الذئاب التي تعوي في داخلهم.
أمل.. لقد تعلقت بك منذ البداية ولكني فضلت ألا أخبرك وألا ألفت انتباهك إلي. هل تعرفين أن لحظات الوداع حين أوصلتك إلى المطار في رحلتك للدكتوراة بفرنسا كانت هي الفاصلة. إن الوداع يكثف المشاعر ويجعلها تعلو على قدرها الطبيعي كما لو كانت مضروبة في مائة، لذلك تشجعت وصارحتك. ويومها كنت طائرًا من السعادة وأنا في طريقي للبيت وأخذت أوبخ نفسي: كنت تنوي أن تخبئ عنها مشاعرك؟ كنت تنوي أن تطوي جوانحك على الحب وتتركها لا تعلم.. كيف ستحبك إذًا يا حمار؟ اليوم أؤمن بأنني لم أكن حمارًا إلا عندما صارحتك وأخبرتك بما كنت أخفيه. يبدو أن الحب في حد ذاته هو مسألة بسيطة ومقدور عليها. المشكلة هي في البوح، ولو عادت بي الأيام مرة أخرى لما أخبرتك بشيء، لأنني كأنما قد دست على زر إطلاق صاروخ نووي أو أطلقت كمية من البخار

تكفي لزحزحة الكرة الأرضية، شلال متدفق من المشاعر فشلت في السيطرة عليه. يضحكني قولك أنك لا تحتملين كل هذا الحب، وأن فشلك في رده يجعلك تشعرين بالذنب تجاهي فتصيرين عدوانية من حيث لا تقصدين. فماذا لو علمت يا مجنونة أن ما يصلك لا يمثل سوى واحد على ألف من مقدار ما أحسه نحوك.. هل تراك تطلبين لي بوليس النجدة ومباحث التموين وقوات مكافحة الشغب؟ لقد أصبحت بسببك أستجيب لدواعي الحزن أكثر من استجابتي لدواعي الفرح ولا أدري لماذا أصبحت أقف على حافة البكاء، وقد أحضرت نظارة داكنة حتى تخفي عينيّ عن الناس. منذ عدة أيام كنت أشاهد فيلم «موعد على العشاء» لسعاد حسني، ولا أدري ماذا اعتراني، وجدتني أبكي معها! فهل كنت أبكي على العمر العاصف الذي حمل لي من الغضب والجنون أكثر مما حمل من الهدوء والسعادة؟ هل كنت أبكي على الأحلام العامة التي وصل قطارها بنا إلى محطة الحسرة أم أبكي.. عليك!

أمل.. فيروز غنت وقالت: «دايمًا بالآخر فيه آخر، فيه وقت فراق». وأعتقد أن هذا هو الوقت المناسب تمامًا للفراق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مش فارقة معاي

فليتك تحلو والحياة مريرةٌ وليتك ترضى والأنام غضابُ
وليت الذي بيني وبينك عامرٌ. وبيني وبين العالمين خرابُ
إذا صح منك العفو فالموت هينٌ. وكل الذي فوق التراب ترابُ

رابعة العدوية

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مش فارقة معاي

منذ عبده الحامولي وسلامة حجازي وحتى لؤي وهيثم وتامر، وموضوع الأغنية العربية لا يتغير ولا يبرح منطقة الذوبان في الحبيب والبكاء بين يديه، والشكوى من الهجر والصد، واحتمال الإهانة بنفس راضية. لكن برغم هذا فقد كانت هناك دائمًا استثناءات لم يقدر عليها سوى الموهوبين من الفنانين الذين امتلكوا القدرة على تحدي الذوق السائد، بل وصدمه من خلال شكل وموضوع مختلف للأغنية. وكان العظيم سيد درويش مع بديع خيري هو أول من ثار على الأغاني التي تمجد الذل للمحبوب وتعلي من قيمة الهوان في الحب.

من بعد سيد درويش عادت الأغنية سيرتها الأولى، حتى ظهر في الخمسينيات العبقري صلاح جاهين فأعلن التمرد وكتب أغنيات يتحدى فيها الحبيب الغادر ويعلن استياءه وقرفه منه دون مواربة! ومن أشهر ما كتب معبرًا عن ثورته على الأغنية التقليدية أغنيته البديعة: «أحسن» التي لحنها سيد مكاوي وغنتها سعاد محمد.

ثم يمضي ربع قرن قبل أن يفاجئنا الموهوب زياد رحباني بأغنية فيروز: «مش فارقة معاي».. وهي غنوة تتشابه إلى حد كبير مع أغنية جاهين وبها نفس الروح المتمردة مع الاحتفاظ بالفروق. وإذا استعرضنا الأغنيتين نجد «زياد» يقول: «بتمرق علاي امرق، ما بتمرق ما تمرق.. مش فارقة معاي. بتعشق علاي اعشق، ما بتعشق ما تعشق.. مش فارقة معاي». الكلمات تحمل الاستهانة وعدم الاكتراث على نحو غير معتاد، إلا لو تذكرنا جاهين الذي خرج على الناس بكلمات صادمة ومغايرة للمألوف وفيها يقول: «أحسن.. تخاصمني تخوني أقول أحسن، مازعلش أبدًا ولا أحزن، حاحب حد تاني، زيك كده وأحسن!!

تتشابه أغنية رحباني مع أغنية جاهين التي فاقتها في حجم الحنق والغضب، فبينما اكتفى زياد بالانزواء وتجاهل ما يصدر عن المحبوب كأنه لا يعنيه، سواء مر عليه أم لم يمر، عشقه أم كف عن عشقه، فإن جاهين يتوعد الحبيب أو قل يغيظه بأنه سيجد حبيبًا آخر أحسن منه. تمضي فيروز فتشدو: «عندك مكانة وصيت كبير، فيه عندك عندي من التقدير شي كتير، لكن بتروح بترم مش مسموح، وأعذارك ما بتنفع معاي». أي أنها مع إقرارها بعلو مكانته إلا أنها لن تسمح له باللف والدوران ومحاولة اختلاق الأعذار. وعلى الجهة الأخرى في سكة الغضب تعلن سعاد محمد: «ماحبش الدموع إكمن الدمع مر، وماحبش الخضوع إكمن القلب حر.. أنا بدّي زي ما بادّي حب آخد حب، عمري ما سلمت أمري وسبت قلبي يطب، حاحب حد تاني زيك كده وأحسن». من شروط الحب عند جاهين أن يكون متبادلًا وبنفس القدر وعلى قاعدة صلبة من المساواة والتكافؤ. وبينما تؤكد فيروز على يأسها من صلاح حاله: تعلق معاي أعلق، ما بتعلق ما تعلق، مش قصة هاي.. أي أنها لا تهتم حتى بشجاره معها، وتمضي في التصعيد: «حبك أناني بالتأكيد ومفكر إنك انت وحيد وعنيد، على شو مسنود؟ على شي مش موجود، عم تغلط وتزود علاي». هنا لا تتردد في مواجهته بعيوبه من أنانية وغطرسة لا تستند إلى أساس، وارتكاب الأخطاء مع نسبها إليها!

الأمر نفسه قاله جاهين ولكن بالمصري: «والله العيب ماجاش مني لكن منك، راح حبي بس عاش قلبي غصبن عنك. بنظرة ليّا وحسرة لك وللخاينين، كنت أقدر أطفي عواطفي بس مش هاينين.. حاحب حد تاني زيك كده وأحسن».

وتقول فيروز امتدادًا لحالة اللامبالاة التي تلبستها: بتصدق معاي اصدق، ما بتصدق ما تصدق، مش قصة هاي. ثم إذا بها تنتقل نقلة نوعية حادة تختلف عن البداية «الرايقة» نسبيًا التي بدأت بها فتقول: «هيدي الغنية جزء صغير، من عقلك والشقا والتعتير». أي أنه هو سبب الشقا والغُلب في حياتها، وأن هذه الأغنية التي تغنيها لهجائه والنيل منه ليست سوى جزء صغير مما لديها ضده، ثم تكمل: «ولو وقتي يساع بتصير ما بتتذاع، بتجرسنا العالم يا خاي». هنا تقوم فيروز الوديعة الرقيقة بفرش الملاية لمحبوبها وتخبره أنه لو كان بإمكانها إطالة زمن الأغنية لقالت ما لا يمكن إذاعته ولأصبح الأمر جُرسة وفضيحة لكليهما أمام المستمعين! ولنا أن نتخيل الأشياء التي أحجمت عن قولها وهي بالتأكيد أشياء مشينة.

لكن سعاد محمد ورغم حدة كلمات جاهين وعنفها، فإنها لم تصل إلى حد تهديده بإذاعة كلام «أبيح» كما فعل زياد رحباني، لكن أعلنت في صدق مفزع آخر ما لديها من كلام: «حاحب ناس كتير لحد ما القى حد، إنسان طيب أمير يحب حب جد. أما انت ياللي مخلي لعبتك حبك، مش ممكن حاركن قلبي يوم على قلبك.. حاحب حد تاني زيك كده وأحسن». أما زياد ففي ذروة غضبه جعل فيروز تشطح شطحة كبيرة شككتنا أن كل استهانتها ولا مبالاتها لم تكن حقيقية، وأنها تحمل حزنًا شديدًا حدا بها إلى القول الغريب: «تسودن مساك ياللا، ما تسودن خير من الله، مش انت مساي» أي أنك إذا أردت أن تجعلها ليلة سودا، فأنت لا تملك قدرات الله الذي يستطيع أن يفعل هذا بأشد مما يستطيع أي بشر!.. وهذا يكشف عن حالة من العدمية بلا حدود.

رحم الله العبقري جاهين وأمد في عطاء زياد رحباني، حتى لو كان.. مش فارقة معاه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ليلة الميت فل

فيلم موز.. موز.. موز
عندما نزلت لمشاهدة فيلم «ليلة البيبي دول» كنت أتصور أن الدعاية المهولة والميزانية الخارقة والحشد الكبير من النجوم كفيل بأن يمنحني سهرة ممتعة. لكن للأسف ضاع وقتي في عمل ضعيف للغاية أراد أن يتشبه بالأفلام الأمريكية التي تقدم أفلامًا عن الإرهاب ساحتها الكرة الأرضية.
كان من المتوقع للفيلم بعد أن أتيحت له هذه الميزانية الضخمة أن يكون على مستوى التوقعات.. تلك التوقعات التي ارتفعت بعد أن أوهم صناع الفيلم الجمهور المصري أن فيلمهم سيكون نجم مهرجان كان!! ثم توالت المفاجآت عندما تم رفض عرض الفيلم بالمهرجان لتواضع مستواه. ويبدو أن الجهة الإنتاجية قد رصدت ٤٠ مليون جنيه من أجل رفع معنويات مجموعة من الفنانين الذين أعطتهم السينما ظهرها، فقامت هي بتطييب خاطرهم ومنحتهم أدوارًا كانت يمكن أن تناسبهم من ٣٠ سنة.
والغريب أن الأشاوس وجدوا الجرأة ليعلنوا أن المهرجان يضطهدهم ويعامل فيلمهم بقسوة غير مبررة، وأن مضمون الفيلم هو سبب الرفض حيث إن الخواجات لم يحتملوه لجرأته الشديدة. وكان مما قالوه أيضًا أن تناول الفيلم لوقائع التعذيب التي ارتكبها الجنود الأمريكان في جوانتانامو قد أضعف من فرصة عرضه بالمهرجان. ليس هذا فقط، بل إن أحد النشامى أعلن بملء الفم أن فرنسا قد ساومتهم أن يحذفوا بعض اللقطات حتى يمكن أن يجد الفيلم مكانًا في «كان» لكنهم ردوا في إباء وشمم: إما أن يعرض الفيلم كاملًا.. يا بلاش!
منتهى التهريج والاستخفاف بالمشاهد المصري الذي يتصورونه داقق عصافير ولا يعلم أن المهرجانات الدولية لا ترفض الأفلام لمحتواها السياسي ولا لمضمونها الجريء، ولا تطلب من أحد أن يحذف مشاهد من فيلمه، وإنما ترفض الأفلام الضعيفة فقط. ثم اتضح بعد ذلك أن كل هذه الافتكاسات كانت من باب الأكاذيب الدعائية لتسخين الجو قبل نزول الفيلم.. ونزل الفيلم، ويا ليته لم يفعل.
بعد مشاهدة الفيلم أدركنا أن علاقة الفيلم بمهرجان كان تشبه تمامًا موقف صاحب المطعم الذي كان يقدم وجبة الملوخية بالبط كطبق رئيسي مدرج في «المنيو» وعندما ضج رواد المطعم عشاق الملوخية بالبط من عدم وجود بط في الملوخية واقتصار وجوده على الإعلانات فقط، قام مدير المطعم بتوضيح الأمر فقال: إن هناك دكر بط كان «معدّي» بالصدفة أثناء طبخ الملوخية، وإليه نسبت الوجبة وسميت ملوخية بالبط! وكذلك فيلم «ليلة البيبي دول» ارتبط اسمه بمهرجان كان لأن مخرجه وأبطاله وأصدقاءهم بعد أن انتهوا من تصويره وإعداده للعرض سافروا واتفسّحوا وعملوا شوبنج في مدينة كان!
في الأفلام الجادة لا يأتون بممثلين في سن المعاش ليلعبوا أدوار شباب صغار مثل محمود عبد العزيز الذي قام بدور شاب يعمل في السياحة في أمريكا بالشركة المملوكة لخاله والتي تجلب الأفواج السياحية لمصر. والغريب أن الفيلم أظهره مضطرّا لقضاء ليلة واحدة فقط بالقاهرة يقوم فيها بتخصيب زوجته ثم يعود لأمريكا! ولم يخبرنا الفيلم لماذا يتعين عليه العودة الفورية وهو لا يعمل بوكالة ناسا للفضاء وإنما بمجرد شركة سياحية. كما لم يخبرنا الفيلم أيضًا لماذا لا يستطيع أن يأتي للقاهرة خمسين مرة في السنة ما دام عمله هو جلب الأفواج لمصر؟! ولماذا لا تستطيع زوجته أن

ترافقه أو حتى تزوره كلما أرادا أن يعيشا ليلة مع البيبي دول؟ ولا أدري لماذا تعامل الفيلم معه كما لو كان عاملًا مصريّا في الخليج يحتجز الكفيل جواز سفره ويمنعه من المجيء لمصر، كما يمنع زوجته من زيارته؟!

الأمر الآخر الذي يبعث على السخرية أن الفنان عزت أبو عوف يقوم في الفيلم بدور صاحب شركة السياحة وفي الوقت نفسه خال محمود عبد العزيز، في حين لم تكن هناك ضرورة درامية تبرر أن يكون ابن الأخت أكبر من الخال في السن! وتعامل الجميع مع الأمر بطبيعية، ورأينا محمود عبد العزيز ينادي «أبو عوف» قائلًا: «يا خالو» كما لم يتورع موظفو شركة السياحة الصغار عن مناداة محمود عبد العزيز باسمه مجردًا باعتبارهم جميعًا شبابًا زي بعض!!

وحتى تكتمل الملهاة فقد وجدنا جمال سليمان يقوم بدور سائق التاكسي الذي يركب معه بالصدفة محمود عبد العزيز ثم نكتشف أنهما كانا زملاء بالجامعة وأن سليمان يعمل سائقًا لأن الخريجين لا يجدون عملًا! مع أن من المعروف أنه عند تخرج محمود عبد العزيز من الجامعة في الستينيات لم تكن هناك أزمة شغل، ولا يعقل أن أحدًا من دُفعته ما زال يبحث عن عمل، لأنهم على المعاش منذ سنوات!

كما قدم الفنان نور الشريف دور الإرهابي الذي يخطط وينفذ ويفعل كل شيء بنفسه رغبة في الانتقام من الأمريكان الذين أذلوه في سجن «أبو غريب». لكنه حين أراد تفجير الفندق الذي أقاموا فيه وجد الريموت كونترول بدون حجارة!! فهل الإرهابيون يفجرون المنشآت بريموت التليفزيون؟ وحكاية تبديل الشنط.. أما انتهت منذ أيام إسماعيل يس؟

ومحمود حميدة الذي قام بدور لواء الشرطة الذي يحمي الفوج السياحي، كيف يطارد الإرهابي بنفسه ويشتبك معه في معركة بالرصاص وكأنما ضباطه كلهم كانوا في إجازة!

وما حكاية جميل راتب الذي قام بدور الجنرال الأمريكي المسؤول عن سجن «أبو غريب»؟ ألم يلاحظ أصحاب الفيلم أن راتب قد تخطى الثمانين من العمر وأن ملامح وجهه المتهدلة وضعفه البادي تؤهله لدار مسنين وليس لوظيفة عسكرية يتولاها في الحقيقة رجال أربعينيون مفتولو العضلات يشبهون رامبو!

وطبعًا لا يصح أن نسأل كيف تقدم روبي أغنية حزايني ليلة رأس السنة! ولا كيف تكون غادة عبد الرازق بكل هذه الملائكية وهي تقدم شخصية فتاة يهودية تضحي بحياتها من أجل الفلسطينيين! ولا يجب أن نتساءل عن الخطبة العاطفية التي ألقتها على مسامع الجندي الإسرائيلي حين قالت له: هل تقبل أن تهان أمك بهذا الشكل؟ هل تقبل أن تهان خالتك وجوز خالتك.. وأشياء ساذجة من هذا القبيل، بعدها طبعًا نظر الجندي الإسرائيلي في الأرض من الكسوف.. يا صلاة النبي على الحلاوة! إذا كان الناشطون اليهود هم المدافعون عن الحق الفلسطيني والجنود اليهود هم المتعاطفون مع هؤلاء الناشطين، فمن يا ترى الذي يذبح الفلسطينيين كل يوم؟ وما الضرورة التي دعت لإظهار معسكرات النازي والتعذيب الذي لقيه اليهود فيها؟ ولماذا كانت ليلى علوي اليهودية بكل هذه الحكمة والتعقل والموضوعية؟ وما كل هذا الجهد في إظهار روعة اليهود وحنية قلوبهم؟ وهل يمكن أن يكون هذا هو الغرض الحقيقي من الفيلم، أما موضوع البيبي دول ولهاث محمود عبد العزيز وهرمونات سلاف فواخرجي وكل هذا الهراء.. فمجرد كاموفلاج؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

خواجات طيبون.. ولكن!

أعترف بأنني حين عشت في كندا قد تعرفت للمرة الأولى على فئة من المصريين كانت مجهولة تمامًا بالنسبة لي.
أعرف طبعًا أن مصر كانت في وقت من الأوقات جاذبة للشوام والأرمن واليونانيين والطلاينة وكل من ضاقت به بلده وعانى من الاضطهاد أو ضيق الرزق. وأعرف أن بعض هؤلاء ولدوا وعاشوا إلى أن ماتوا دون أن يكون لهم وطن غير مصر، وأذكر أن الأفلام القديمة كانت تمتلئ بفنانين من هؤلاء مثل نجيب الريحاني وإستيفان روستي وإدمون تويما وبشارة واكيم وفيروز. لكني بالرغم من هذه المعرفة النظرية لم يسبق أن تعرفت على هذه الفئات من المصريين سواء بحكم الجيرة في المسكن أو كزملاء دراسة أو رفقاء بالتجنيد أو في العمل. لم أعرف في مصر سوى المسلمين والمسيحيين الأرثوذكس، وسبب ذلك أن الفئات التي أتحدث عنها قد هاجر أغلبهم وتركوا مصر، ومن تبقى منهم لم يدخلوا المدارس الأميرية التي تعلّم فيها أمثالي، لكن لهم مدارسهم التي يدرسون فيها لغاتهم الأصلية علاوة على الإنجليزية والفرنسية وغيرها. عندما اقتربت منهم في كندا وجدتهم في غالبيتهم أشخاصًا في غاية اللطف والمودة، لغتهم العربية مكسرة وأغلبهم يستطيعون التحدث بها دون أن يعرفوا قراءتها أو كتابتها حيث لم يدرسوها في مدارسهم بمصر! ولاحظت أنهم يحملون لمصر مشاعر طيبة نتيجة ذكريات الصبا، وهي بالنسبة لهم مكان جميل يحنّون إليه، وإن كانوا يعترفون أن العودة إليه والحياة به هي ضرب من المستحيل. ولقد رفضتُ بشدة رأيًا متطرفًا لأحد الأصدقاء تحدث عن هؤلاء على نحو سيئ وذكر أن أحدًا منهم لم يعد ليساند مصر بعد ١٩٦٧ ولم يتطوع ليحارب إسرائيل، ورأيت أن هذا الرأي فاسد وغير منصف؛ ذلك أن المهاجر الشامي أو الجريجي أو الأرمني لم يترك وطنه الذي تجتاحه النكبات من أجل أن يحارب هنا! وحسب هذا المواطن أنه لا يخون مصر ولا يساهم في نهبها كما يفعل بعض من يتصل نسبهم إلى سنوسرت الأول!
في الأسابيع القليلة الماضية ومع وفاة المخرج يوسف شاهين وخروج جنازته من كنيسة الروم الكاثوليك تذكرت أن مخرجنا الراحل هو نتاج للتعدد والتنوع الذي كان يميز مصر، وأن يوسف شاهين كان أحد هؤلاء الذين أتحدث عنهم، هؤلاء الذين ينظر إليهم عموم المصريين على أنهم خواجات رغم مصرية بعضهم الصميمة. ولا أدري هل من المناسب الآن وسط حالة التهليل التي رفعت شاهين إلى منزلة غير مسبوقة باعتباره المخرج الذي رفع رأس مصر أمام العالم.. هل من المناسب أن أقرر أنني لم أنظر بارتياح إلى معظم أفلام يوسف شاهين وأنني لم أر فيها آيات العبقرية التي تحدث عنها البعض، وأنني كنت أشعر باستياء عندما أرى الميديا ترقص دومًا من أجل فيلم جديد ليوسف شاهين ذهب به إلى «كان» بعد أن قدم الخلطة المناسبة للمهرجان والمُرضية لجهة الإنتاج الفرنسية، ومع هذا يعود كل مرة خالي الوفاض! حتى اضطر دراويش شاهين إلى خداع الجمهور وإيهامهم أن شاهين قد فاز بجائزة مهرجان «كان» عن فيلم «المصير»، بينما الجائزة كانت شرفية ولا تخص عملًا سينمائيًا بعينه، وإنما تحية على احتماله المشاركة كل هذه السنين دون جوائز! لقد أيقنت بعد فيلم المصير بالذات أن شاهين ـ وإن كان موهوبًا في تقنيات السينما ـ إلا أنه لا يصلح لأن يعبر عن مصر أو يمثلها لأنه قدم فيلمًا عن ابن رشد يتحدث أبطاله بعامية عزبة الهجانة. ولم يكن

الأمر وجهة نظر إخراجية، لكن السبب أن يوسف شاهين لا يعرف اللغة العربية المكتوبة.. هو يعرف العامية المنطوقة لكنه لا يقرأ الأدب العربي ولا الشعر العربي مثلما يقرأ الأدب الفرنسي ويفكر بالفرنسية ويكتب سيناريوهاته بها! ولم يكن الاستعانة بداليدا في فيلم اليوم السادس للقيام بدور فلاحة مصرية سوى تعبير عن الخفة والاستهانة بالمشاهد العربي الذي لا يهمه في شيء، إذ إن عينه دائمًا على الغرب الذي ينتمي إليه ثقافيّا، أما فيلم الآخر فبالغ السذاجة ويحاول مناقشة قضايا كوكبية بسطحية شديدة، وقدم ظاهرة الإرهاب على نحو بالغ الركاكة والافتراء على الحقيقة بشكل يدفع الجمهور للتعاطف مع أعداء شاهين لا أن يكرههم! وهذا أيضًا لا يهمه.. ما يهمه هو فرنسا وبالتحديد «مولد كان» الذي حضر ليلته الكبيرة دائمًا وخرج منها بلا حمص! وتبلغ الركاكة منتهاها في فيلم وداعًا بونابرت الذي يراه دراويش شاهين جوهرة فنية بينما هو فيلم فرنسي مائة بالمائة، حتى لو ردد بطله جملة خايبة تقول «مصر حاتفضل غالية علىّا». وحتى فيلم العصفور أراه حالة من الادعاء ولا أصدقه، وعلى الرغم من جودة فكرته إلا أن النائحة الثكلى ليست كالنائحة المستأجرة، وشاهين لا يعرف مصر حتى يقدم أحزانها على الشاشة.. هو يراها بعيون سائح، وقد يكون هذا السائح طيب القلب لكنه سيظل يشبه النائحة المستأجرة، وكنت أتمنى أن يقوم بإخراجه مخرج يرى مصر بعيون مصرية ويختلط إبداعه بطين هذا الوطن لا بعيون مستشرق.

لا يعني ما سبق أنني لا أحب شاهين رحمه الله، لكنه يعني أنني أنظر إليه بحسبانه رجلًا عولميّا كوكبيّا يحب سليمان الحلبي كما يحب كليبر ويؤيد السيد عمر مكرم دون أن يرفض المعلم يعقوب.. مثله مثل أصدقائي الذين عرفتهم في كندا.. ودودين وطيبين، لكني لا أستطيع أن أتعشم فيهم أو أن أطلب منهم حمل السلاح من أجل مصر، بينما أستطيع أن أطلب هذا من محمد خان وخيري بشارة وداوود عبد السيد وعاطف الطيب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بكائية.. احتفالا بالربيع!

بعد عدة أيام يهل علينا شم النسيم وتبدأ الاحتفالات الموسمية بقدومه ومعه فصل الربيع بأزهاره وورده ونسيمه العليل وجوّه المعتدل الجميل كما علّمونا في كتب المطالعة المدرسية على غير الحقيقة، إذ إنه فصل الهواء الساخن والغبار والتهاب العيون والأزمات التنفسية.

ومع قدوم الربيع لا تستطيع الإذاعة ولا التليفزيون أن يتظاهرا بعدم معرفتهما بالأمر، فيتم على الفور استخراج الشريط السحري الذي نسمعه بهذه المناسبة منذ ما يقرب من ستين عامًا.. ألا وهو شريط أغنية الربيع للفنان الراحل فريد الأطرش.

والحقيقة أنني قد فشلت على مدى سنوات العمر في فهم العلاقة بين الاحتفال بأروع فصول السنة ـ على حد قولهم ـ وبين إذاعة أغنية حزينة تدفع للكآبة ولا تستدعي أي شعور بالفرح! والأمر عندي أن القائمين على المسؤولية في الإذاعة طوال العقود الماضية تصوروا ارتباط الأغنية بالتفاؤل والمرح لمجرد أنها تحمل اسم الربيع مثل أغنية سعاد حسني «الدنيا ربيع»! ويمكن إذا تأملنا كلمات الأغنية أن ندرك الحقيقة.. الغنوة تقول: آدي الربيع عاد من تاني، والبدر هلت أنواره.. وفين حبيبي اللي رماني من جنة الحب لناره. أي أن الرجل يشكو لوعته وعذابه في الحب، وتمضي الغنوة تحكي جبروت الحبيب وتعنته: أخد ورد الهوا مني، وفات لي شوكه يؤلمني.. ماعرفش إيه ذنبي غير إني في حبي، أخلصت من قلبي.. ثم يكمل فريد: وغاب عني لا كلمني ولا قال امتى راح اشوفه.. وأقول يمكن حايرحمني ويبعت في الربيع طيفه (دون جدوى طبعًا).

غير أن الأسوأ لم يأت بعد، ففريد ينطلق يعدد صنوف العذاب التي يلاقيها مع محبوبه في فصول السنة جميعًا فيقول: وآدي الشتا يا طول لياليه، ع اللي فاته حبيبه.. يناجي طيفه ويناديه، ويشكي للكون تعذيبه (لا حول ولا قوة إلا بالله).. ثم ينتقل بنا إلى فصل الخريف فيبكي قائلًا: مر الخريف بعده، دبّل زهور الغرام.. والدنيا من بعده، هوان ويأس وآلام (يا حفيظ). ويأبى فريد أن يتركنا عند هذه المرحلة ويصر أن يأخذنا معه في رحلة الأحزان فيمضي نائحًا: لا القلب ينسى هواه، ولا حبيبي بيرحمني.. وكل ما أقول آه، يزيد في ظلمه ويؤلمني. أي أن هذه البكائية الحزينة تحوي الظلم والهجر واللوعة والذل والهوان واليأس والقسوة والألم والعذاب.. ثم بعد كل هذا يقدمونها احتفالًا بقدوم الربيع.. وعجبي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على باب الهوى

عندما حضرت الفنانة وردة إلى القاهرة عام ١٩٦٠لتبدأ مشوارها الفني فإنها لفتت إليها انتباه الموسيقار محمد فوزي، وكان يمتلك شركة مصر فون للأسطوانات. لهذا لم يتردد في أن يمنح الصوت العربي القادم من الجزائر اثنين من أروع الألحان. والغريب أن الإذاعة المصرية تعاملت ولا تزال مع هذين اللحنين بإهمال شديد وتكاد لا تذيع أيا منهما إلا مرة كل عدة سنوات. لهذا فمعظم الناس لا تعرف أن وردة قد غنت من ألحان محمد فوزي. ووردة نفسها لم تفكر أبدًا في إعادة تقديم الأغنيتين في أي من حفلاتها.

الأغنية الأولى كتبها الشاعر الخالد بيرم التونسي وكانت آخر ما كتب ولم يمهله القدر لكتابة أغنيات أخرى إذ توفي بعدها بقليل في عام ١٩٦١.. كتب العم بيرم يقول: يا آسر قلبي بعنيك.. يا مالك روحي بإيديك، الله بيصبرني عنك.. الله بيقدرني علىك.

ثم يكمل بيرم الجميل: يوم غيابك قلبي يدوب.. والثانية أحسبها يومين. وكل حبيب ومعاه محبوب.. يمروا علىّا اتنين اتنين. تتهنى قدامي قلوب.. وأنا قلبي مشقوق نُصين. هذا وهذا يحنّوا إليك. الله بيصبرني عنك، الله بيقدرني علىك.. يا آسر قلبي. وقد لحن الموسيقار الكبير هذه الكلمات بلحن بسيط وخال من التكلف والزخرفة ويشبه كلمات بيرم التلقائية، وما زلت أحب هذا اللحن وأطرب له كلما سمعته.

الأغنية الثانية هي «على باب الهوى» وهي أيضًا غنوة شديدة العذوبة كتبها الشاعر محمد علي أحمد بكلمات بسيطة وجميلة تقول: على باب الهوى دقيت.. وفتح لي الهوى مريت. جربت اللي كان مقسوم.. وبكيت للهوى وغنيت.

وفي الكوبليه الثاني تكمل: خدني الهوى لف بعودي، وقال لي ع الأشواق غنوة. وفات لي ورد على خدودي، وحيرة بين لأه وأيوه. وطاوعته يوم ورا يوم، مشّاني ف طريقه مشيت. جربت اللي كان مقسوم وبكيت للهوى وغنيت. وتمضي وردة: فات الهوى وشغلني عليه، كان وعد مكتوب ومخبي. سلمت قلبي بإيدي إليه، ورجعت أدوّر على قلبي. علمني العتاب واللوم، وعرفت السهر وقاسيت. جربت اللي كان مقسوم، وبكيت للهوى وغنيت.. على باب الهوى. ورغم أن فوزي اعتمد في تلحينه على تيمة رئيسية تتكرر في الكوبليهات الثلاثة إلا أن روعته تجعلني أرى هذا اللحن من أجمل ما غنت وردة في تاريخها كله، ولهذا أحتفظ به على الكمبيوتر، أسمعه وأدعو بالرحمة للشاعر المبدع والملحن العظيم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بوس الواوا.. يا مؤمن!

من مظاهر الشيزوفرينيا في حياتنا أن بلدانًا معروفة بتشددها في رفض الفن وتحريمه لدرجة أنها ترصد الملايين كما سمعنا من أجل حض الفنانات على التوبة والتطهر من الفن واعتزاله.. تقوم في الوقت ذاته بفتح قنوات فضائية تقدم الغناء الماجن والرقص الخليع ٢٤ ساعة في اليوم! صحيح أن التليفزيون الرسمي بهذه البلدان لا يقدم الرقص والغناء، لكن شيوخ الإعلام الذين يعملون في إطار منظومة شاملة ومخططة لخدمة بلادهم هم الذين يعملون كغطاء للدولة ويفتتحون المحطات الخاصة بالوكالة، ولا نظنهم كانوا يستطيعون هذا لو أن دولهم المتشددة في الظاهر كانت غير راضية عن قنوات الأنس والفرفشة خاصتهم.

والحقيقة أن مصر هي الهدف الحقيقي من كل هذا النشاط المحموم في الإعلام المرئي والمسموع والمكتوب، ولا نظن أن المليارات التي يتم إنفاقها موجهة من أجل غسل مخ المواطن الموريتاني أو الجيبوتي أو حتى الكويتي. المواطن المصري هو الهدف ومخه هو الجائزة المرتجاة. وقد عمل المخطط ليس فقط للسيطرة على الفضاء وإنما قد سبق هذا سيطرتهم على الصحف وتوجهوا بجهودهم نحو مصر فبدءوا منذ السبعينيات في افتتاح مكاتب لصحفهم بالقاهرة قامت بتشغيل واستكتاب معظم الصحفيين والكتاب المصريين وبعضهم كان يقبض دون أن يكتب أو مقابل ألا يكتب، فارتبطت لقمة عيشهم وبحبوحة حياتهم بالترويج لهذه البلدان وللفكر الصحراوي الذي يحرم الفنون ومع هذا ينشئ قناة جديدة للرقص والغناء كل يوم، وتم تحييد المعارضين ومنعهم من التصدي لهذا الفكر! الأمر نفسه حدث بالإذاعة والتليفزيون حيث تم شراء معظم القيادات إما بتشغيلهم أو تعيين أبنائهم، وتم دفع مبالغ باهظة للبعض مقابل أعمال تافهة أو سيناريوهات لا تساوي شيئًا، وقام البعض بمهمة توفيق الرؤوس بين أمراء الإعلام وبين بعض الحسناوات مقابل سيارات مرسيدس، وأصبح الرقيب الخليجي ومحاذيره نصب عين القائمين على الإنتاج الدرامي في مصر لدرجة أن كلمة «أمير» التي نستخدمها إشارة إلى الشخص الطيب أصبح استخدامها محرمًا بتعليمات الرقابة النفطية، وامتلأ الفضاء بعشرات القنوات الخليجية التي تقدم ألوانًا من الخلاعة جمعوا لها الشباب والفتيات المخنّثين ليصيروا نجومًا وقدوة للشباب. ومن عجب أنهم قاموا بشراء التراث الفني المصري وهم الذين لا توجد ببلادهم مسارح أو دور للعرض السينمائي!

والغريب أن نفس هؤلاء الأمراء الذين ينشرون المرح والصخب والمجون التليفزيوني يقدمون في الوقت ذاته عشرات القنوات الدينية جنبًا إلى جنب مع قنوات «بوس الواوا» حيث يمكن للمشاهد بعد أن يبوس الواوا أن يتوب إلى الله ويستغفره مع فضيلة الداعية في درس عن حرمة الفن، أو درس عن حرمة سرقة السلك والفرجة «البلوشي» على قنوات عم الشيخ التي تصل المشاهد على مدار الساعة بالسادة أصحاب الفضيلة والسادة أصحاب الرذيلة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

موهبة عالية.. وهمّة ليست كذلك

منذ الصغر وأنا مغرم بالغناء، وكنت أحب ترديد الأغاني التي تستحوذ على إعجابي دون أن أعرف من الذي ألّفها ومن الذي لحّنها.. المطرب فقط هو الذي كنت أعرفه. وعندما وعيت بعد ذلك لأهمية المؤلف والملحن اكتشفت أن جانبًا كبيرًا من الأغنيات التي تماست مع وجداني هي من تلحين رؤوف ذهني. وقد أدهشني أن يكون الرجل على هذه الدرجة من الموهبة وألحانه بهذا القدر من العذوبة والسلاسة، ولا تكون شهرته ذائعة مثل غيره من الملحنين الذين يفوقهم إبداعًا. ويبدو أن رؤوف ذهني على امتلاكه موهبة أصيلة لم تكن لديه همّة عالية فاكتفى بالنذر اليسير وانضوى تحت جناح عبد الوهاب فعمل سكرتيرًا له، وقد شاع أن بعض ألحان عبد الوهاب كانت لرؤوف ذهني. وفي الحقيقة أن هذا الرجل يذكرني بالسيناريست الراحل أحمد عبد الوهاب وقد كان موهوبًا لكنه لم يحظ بشهرة تذكر لأن أعماله السينمائية قد شاهدها الناس منسوبة لكاتب آخر كان يأخذ جواهره ويلقي له بالفتات.

وعلى قلة ألحان رؤوف ذهني فقد ترك علامات لكل من تعامل معهم، فعلى سبيل المثال غنت له صباح أغنية «أكتر من حياته» وأراها أجمل ما غنت، كذلك غنت له ليلى مراد أغنيتها الجميلة «سنتين وأنا أحايل فيك» وأغنية «كلمة.. هي كل آمالي» وهي أغنية عاطفية دافئة تحمل كثيرًا من الشجن والعذوبة، كما غنى له عبد الحليم حافظ أغنية «ثورتنا المصرية» من كلمات مأمون الشناوي. ونفس الشاعر الكبير كتب أغنية أخرى لعبد الحليم هي «إيه ذنبي إيه» وقام ذهني بتلحينها، وفيما يبدو أن اللحن لم يعجب عبد الحليم فطلب من عبد الوهاب تلحينها من جديد. لكن إعجاب رؤوف بلحنه جعله يطلب من مأمون الشناوي كلمات أخرى على نفس الوزن والقافية، فكتب له أغنية «سلم لي عليه» التي غنتها نجاة وكانت بحق أغنية بديعة تزداد حلاوة مع الزمن. وبرغم كل التقدير للفنان عبد الوهاب فإني متحيز للحن رؤوف ذهني وأرى أن عبد الحليم هو الخاسر عندما رفض اللحن، وأن نجاة قد فازت به.

قام أيضا بعمل ألحان متميزة لمحمد قنديل كما غنى من ألحانه كل من: كارم محمود وعادل مأمون ومها صبري وشريفة فاضل وفايزة أحمد وماهر العطار.

وبعد رحيله قامت زوجته برفع قضية ضد عبد الوهاب متهمة إياه بسرقة ٤٠ لحنًا من زوجها المرحوم رؤوف ذهني!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أغانيهم.. للأسف لا أعرفها!

يطربني صوت مدحت صالح وقدرته على أداء كل أشكال الغناء وتطويع أصعب الألحان، وتشجيني أنغام بحساسيتها وقدرتها التعبيرية وتمثلها للمعاني التي تغنيها، كما أحب الاستماع إلى غادة رجب بكل رقتها وحنوها وأدائها العاطفي الدافئ، وأهوى الاستماع إلى آمال ماهر الموهوبة صاحبة الصوت السليم القوي المعبر الذي يصل بسهولة إلى الوجدان.

ولا أكتمكم أنني أصبحتُ ضيفًا دائمًا على حفلات مدحت صالح التي يحييها بالأوبرا وتمتلئ بالآلاف من عشاق فنه وأدائه الجميل. ولا أنسى أن الأجيال الجديدة قد أحبت محمد قنديل الذي تعرفت إليه من خلال مدحت صالح وهو يشدو بأغنية «تلات سلامات» كلمات مرسي جميل عزيز وألحان محمود الشريف، كذلك أبدع مدحت صالح في أغنيات «طول عمري» لنجاة من كلمات أنور عبد الله ولحن كمال الطويل، و«العوازل» التي لحنها عبد الوهاب ولا أنسى شدوه الجميل بواحدة من أجمل أغاني محمد فوزي وأقربها إلى قلبي.. أغنية «تملّي ف قلبي» هذا غير براعته في أغنية سيرة الحب للسيدة أم كلثوم. أما أنغام فتأسرني عندما أسمعها تشدو برائعة محمد عبد الوهاب وأحمد شوقي «مضناك جفاه مرقده» ولا أجد حرجًا في إعلان أنني أحببت أنغام فيها أكثر مما أحببت الغنوة القديمة. والأمر نفسه ينطبق على أغنية عبد الحليم حافظ المعروفة «بيع قلبك» لقد تفوقت أنغام على نفسها وهي تعيد وتزيد وتطرب الجمهور المتمايل مع كلمات حسين السيد وألحان كمال الطويل: أنا يسعدني تبعد عني وتجرب غيري في هواك.. شوف مين حبه أكتر مني لو شاف اللي أنا شفته معاك، كذلك لا أنسى أداءها المتميز لأغنية أم كلثوم «بعيد عنك» لحن بليغ حمدي. أما الرقيقة غادة رجب فما زلت أحتفظ لها بشريط الحفلة التي أمتعتنا فيها بأغنية «أيظنُ» وكانت لا تقل روعة عن العظيمة نجاة وهي تعرض حيرتها للجمهور مع كلمات نزار قباني: «حمل الزهور إليّ كيف أرده.. وصبايا مرسوم على شفتيه» يالجمال أداء غادة لهذا المقطع من القصيدة، ويالخفتها وهي تؤدي أغنية ثومة «يا صباح الخير ياللي معانا».

وإذا ذكرت آمال ماهر لا أستطيع أن أنكر أني مدين لها بأحلى الأوقات التي قضيتها على ضفاف حنجرتها الذهبية وأغنيات أم كلثوم مثل الأطلال وفكروني وأروح لمين والثلاثية المقدسة، تلك الأغنيات التي شَدَت بها بإحساسها الخاص ولم تحاول تقليد سيدة الغناء العربي.

هذه هي بعض الأغنيات التي أحبها لهذه الأصوات المصرية الأصيلة. لكن المشكلة أن أغاني الغير فقط هي التي أحب سماعها منهم، أما أغانيهم الخاصة وألبوماتهم ففي الغالب لا أعرفها أو سمعت بعضها ولم أتحمس له.. ربما لو كانوا لم يقوموا بغناء الأغنيات التي أحبها، لأمكن أن يكون لأغنياتهم الخاصة حظٌ عندي، أما الآن.. فلا أمل!

بلاد طيبة

جمعني اللقاء بالفنانة أنوشكا مرتين خارج مصر. في المرة الأولى كانت تقوم بإحياء حفل بالكويت في أحد الفنادق الكبرى، ويبدو أن المتعهد لم يقم بالدعاية الكافية، وجعل الحفل الغنائي مشمولًا بالعشاء مما جعل سعر التذكرة مرتفعًا إلى حد كبير. وعند الموعد المرتقب أطلت أنوشكا على الصالة فوجدت معظم الموائد شاغرة مما أصابها بصدمة، فصعدت إلى غرفتها وقد قررت أن تعتذر عن الغناء وتعود فورًا إلى مصر. كنت أجلس مع جمع من أصدقائي نحتل مائدتين في انتظار أنوشكا،

ولما تخطت الساعة التاسعة ثم العاشرة شعرت بالقلق واستفسرت من المتعهد عما يحدث فأخبرني بحقيقة الموقف المحرج الذي يواجهه. اقترحت عليه أن يقوم بتخفيض سعر التذكرة ويلغي موضوع العشاء ويخرج إلى تجمعات المصريين يدعوهم للحضور. في الوقت نفسه صعدت إلى الفنانة أنوشكا وقلت لها: الحضور الموجودون بالصالة يحبونك وقد حضروا من أجل الاستماع إلىك، فلا تخذليهم واعتبري نفسك وسط مجموعة من أصدقائك وغني من أجلهم. أبدت أنوشكا تأثرًا وقررت أن تغني مهما كان الأمر. وكان أن بدأ الحفل بعد منتصف الليل بتأخير ثلاث ساعات. في هذه الليلة رأيت أنوشكا كما لم أرها من قبل، شديدة الحيوية والحضور والتألق، وقد غنت أغنية «بلاد طيبة» التي جمعتها بمحمد منير في دويتو بديع.. وبصراحة لقد كانت هذه الأغنية هي السبب الرئيسي الذي حداني على حضور الحفل، وبعد انتهاء الأغنية قمنا باستعادتها فغنتها مرة أخرى، وعند نهاية الحفل وهي تستعد لمغادرة المسرح أرسلت لها ورقة رجوتها فيها أن تغني بلاد طيبة مرة أخرى فاستجابت وغنتها للمرة الثالثة.

اللقاء الآخر الذي استمعت فيه إلى أنوشكا خارج مصر كان في مدينة أوتاوا الكندية وقت الدورة الرياضية الفرانكوفونية التي احتضنتها العاصمة السياسية لكندا. وكانت مصر قد شاركت بحضور رياضي وفني لافت إليه، على الرغم من أن مصر ليست إحدى الدول الناطقة بالفرنسية ولا هي إحدى مستعمرات فرنسا السابقة، وانتسابها للفرانكفونية هو أمر عجيب، لكن هذا موضوع آخر. في هذه المرة غنت أنوشكا على المسرح المفتوح المطل على النهر وكان الوقت صيفًا والحضور كثيفًا لدرجة أن معظم الجمهور ظل واقفًا طول الليل. وعندما غنت تجاوب معها المصريون والعرب بصورة لا توصف، وكانت «بلاد طيبة» كالعادة هي محركي الأساسي للحضور، فهذه الأغنية تمس قلبي وتحرك مشاعري كما لا تفعل أغنية أخرى. وعندما أعلنت أنوشكا أن أغنيتها التالية ستكون الأخيرة وشرعت في الغناء قمت بإرسال ورقة إليها على المسرح كتبت فيها كلمة السر التي ما إن قرأتها حتى تهلل وجهها ثم تكرمت وأعلنت أنها ستغني «بلاد طيبة» مرة أخرى إكرامًا لخاطر فلان.. وليلتها عاد فلان إلى الفندق وهو منتشٍ يردد: انتي بلاد طيبة، وقريبة وحبيبة.. انتي أمل وحنان. وقت الخطر أمي، بتحملي همي.. حضنك دفا وأمان. ليكي أنا غنيت، يا دنيتي وناسي.. إذا كنت مرة جنيت، حقك على راسي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فيلم مضحك.. مثل شر البلية!

لم يعد الذهاب للسينما جالبًا للسعادة أو البهجة هذه الأيام. ذهبت لمشاهدة فيلم تسبقه ماكينة إعلامية جبارة تتحدث عن روعته وريادته في التطرق إلى مناطق محرمة في حياتنا وهو فيلم حسن ومرقص. الفكرة تستحق عشرة على عشرة، لكن الفيلم قام بمسخ الفكرة وقدمها في صورة ساذجة وغير مقنعة، فأسخط المسلمين والمسيحيين والكونفوشيين والبوذيين من محبي السينما!

يتحدث الفيلم عن قس قبطي يواجه التطرف المسيحي ويعلن رفضه له في مواعظه، فيغضب منه المتطرفون، الأمر الذي يدفعهم إلى تفخيخ سيارته أثناء قيادته لها ومعه ابنه!.. المضحك في الموضوع أننا لم نسمع من قبل عن قس ثائر على الغاضبين من أبناء كنيسته، كما لم نسمع أبدًا عن مسيحيين يقومون بتفجير سيارة رجل مختلف معهم خصوصا وهو رجل دين. ولدينا في هذا الشأن مثال واضح هو ماكس ميشيل أو ماكسيموس الذي انشق على البابا وأعلن نفسه بابا موازيًا، ورغم هذا لم يخرج لقتاله أحد من الأقباط الرافضين له. وعلى الجانب الآخر يقدم الفيلم شخصية المسلم المعتدل الذي يتوجه إليه المتطرفون المسلمون لكي يبايعوه أميرًا للجماعة بعد وفاة أخيه الذي كان أميرًا لهم.. غرابة العرض تكمن في أن الرجل لم يكن يومًا عضوًا في الجماعة فكيف يستأمنونه على الإمارة؟ لا تسأل لأن عادل إمام عاوز كده! والأغرب أنه عندما يرفض العرض بالإمارة فإنهم لا يتركونه وينصرفون لحال سبيلهم ليختاروا من بينهم أميرًا جديدًا، وإنما يتوعدون الرجل الذي لا يعرفونه ولا يعرفهم لأنه لم يقبل أن يكون لهم زعيمًا! بعد هذا يتم تصاعد الهلس بوتيرة كبيرة فنرى الأمن يقوم بإخفاء القسيس عن طريق منحه اسم شيخ مسلم وإرساله إلى الريف.. ولا أدري ما كان ضرهم لو غيروا اسمه وتركوه مسيحيّا كما هو حتى تكون حياته سهلة؟ هل من أجل تفجر الكوميديا من خلال قسيس يتبرك به المسلمون؟ لم يحدث أن شاهدنا هذه الكوميديا المزعومة، فما الغرض إذن؟ علم ذلك عند عادل إمام. كما يقوم الأمن بمساعدة الشيخ المسلم في التخفي فيمنحونه اسمًا مسيحيّا ويضعونه بعمارة كلها مسيحيون! ومرة أخرى لماذا لم يمنحوه اسمًا مسلمًا إذا كانوا جادين في إخفائه؟ لن يخبرنا أحد بالطبع.

الخلاصة أن الفيلم رغم أن كاتبه هو السيناريست الموهوب يوسف معاطي إلا أن الحبكة قد أفلتت منه، ولا أبرئ عادل إمام الذي يتدخل في كل صغيرة وكبيرة وإليه وحده ينسب نجاح الأفلام، وأجد أنه هو الأب الشرعي لهذا الفيلم المضحك.. من باب شر البليّة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٠٥ بوسة.. والمؤلف الذي سخن!

ضحكت بشدة بعد أن قرأت تغطية الصحف للندوة التي أقيمت بعد عرض فيلم «قبلات مسروقة» بمهرجان الإسكندرية السينمائي. بداية أنا لا أحمل أي تقدير لهذا المهرجان الهزلي وأراه مجرد تجمُّع للحبايب من أجل التصييف المجاني على حساب صاحب المحل، ولهذا لا آخذ أخباره وفعالياته على محمل الجد أبدًا. ومع هذا فقد كانت جرعة الكوميديا فيما قرأته عن الندوة والفيلم أكثر من المعتاد. غاب عن الندوة كاتب السيناريو الأستاذ أحمد صالح، وقيل إنه غاضب بسبب العبث بالنص الذي كتبه وإضافة توابل من جانب المخرج جعلت منه فيلم بورنو. وقد برر الأستاذ ممدوح الليثي غياب المؤلف بأن عنده «شوية سخونية». قال الذين حضروا الندوة وشاهدوا الفيلم إن جرعة الجنس عالية جدّا وتفوق ما نراه في السينما الأمريكية، وهي تداعب غرائز الشباب الملتهبة أصلًا. وقد دافع أبطال الفيلم عما قدموه وقالوا في تبرير الجنس الكثيف بالفيلم نفس المقولة الخالدة التي نسمعها من أيام هند رستم وناهد شريف حتى أفلام دينا وأبو الفتوح عن الإغراء المبرر دراميّا ومشاهد الجنس التي تخدم العمل ولا تعتبر مقحمة عليه، وكل هذا الكلام الذي اعتدنا سماعه عن أن هذه الأشياء موجودة بالواقع ونحن ننقل الواقع ولا نخترعه إلخ. كان رد فعل النقاد الغاضب متوقعا، ودفاع أبطال الفيلم كذلك متوقعا ولا جديد فيه. لكن الجديد والمفتكس تمامًا هو ما صرح به مخرج الفيلم خالد الحجر عندما أبدى اندهاشه من الانتقادات التي سمعها وعلق قائلًا إن الفيلم عادي تمامًا وليس به سوى ١٠٥ بوسة فقط!!.. هنا تكمن الافتكاسة الظريفة من المخرج اللطيف الذي تحدث عن ١٠٥ بوسة كدليل على خلو الفيلم من الجنس والإثارة! وكأن ١٠٥ بوسة في الفيلم تقوم بدور زيت الكافور في طبق الفول. ويدهشني حقيقة أن الرجل أثناء التصوير كان يحمل عدادًا يقوم بإحصاء البوس، وأن هذا العداد قام بتنبيهه عند وصول الرقم إلى ١٠٥ وهو حد الأمان قبل أن تبدأ الإثارة. ونحمد الله أن المخرج لم يقم بتصنيف فيلمه على أنه فيلم ديني!. وأنا لا يسعني سوى تحية ذكاء المخرج الذي كان ينفي عن فيلمه الاتهام بأنه فيلم بورنو فقام بعمل دعاية كبيرة من خلال دفاع يؤكد الاتهام! فاستفاد من الندوة إلى أقصى حد وتصنّع البراءة وهو يرسل للجمهور رسالة مثيرة وموحية بأن فيلمه (المحافظ) لا يمتلئ بالمشهيات الجنسية.. هو يعرض ١٠٥ بوسة فقط.. وهلموا يا شباب!

ولهذا لم يدهشني تصريح رئيس جهاز السينما عندما برر غياب كاتب السيناريو بأن عنده شوية سخونية.. أكيد عنده سخونية بعد مشاهدة الفيلم.

إذا كنت أنا سخنت ع الريحة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قليل من الغناء.. كثير من الرغي!

عندما بدأت إذاعة الأغاني إرسالها منذ سنوات قليلة استبشرتُ بها خيرًا، وبخاصة أنها كانت ترفع شعارًا محببًا يقول: قليل من الكلام.. كثير من الغناء. فما الذي حدث لهذه الإذاعة التي كانت واعدة وجعل منها محطة للرغي واللغو واللت والعجن والثرثرة الفارغة التي تبعث على الضجر وتجعل الاستمرار في الاستماع عقوبة لا تحتمل؟ ولماذا أصبحت تقدم قليلًا من الغناء مع الكثير جدّا من التهريج والبرامج ومكالمات المستمعين الخالية من أي مضمون سوى امتداح المذيعين؟

في ظني أن السبب الرئيسي في هذا التحول في دور المحطة التي بدأت رصينة ومخصصة بشكل رئيسي للغناء التقليدي أو ما اصطلحوا على تسميته بأغاني الزمن الجميل هو أنها حاولت أن تقلد إذاعة نجوم إف إم دون داع فكانت النتيجة أنها لا احتفظت بكلاسيكيتها ورصانتها ولا هي امتلكت رشاقة وخفة دم المحطة الخاصة. وفي تصوري أيضًا أن الحالة التي وصلت لها إذاعة الأغاني كانت بسبب حشد كل هذا الكم من المذيعين في محطة لا تحتاج إلى مذيعين على الإطلاق!. هل عمركم رأيتم مذيعين يعملون بأية قناة تليفزيونية للأفلام؟ طبعًا لا يوجد ولا ضرورة لوجود من يبشر بالفيلم القادم.. عرض الفيلم يكفي. كذلك محطات الأغاني في التليفزيون أو الإذاعة آخر ما تحتاج إليه هو مذيع يقتحم الحيز ما بين الأغنية وبين المستمع ويحشر نفسه بدون ضرورة. ويا ليت الأمر اقتصر على إذاعة اسم الأغنية واسم المؤلف والملحن، لقد تمدد المذيعون في محطة لا تحتاج إلى مذيعين كما قلنا وأصبحوا يطالبون بمساحات للحضور تسمح لهم بالاستعراض والتجول داخل أذن المستمع المسكين. وهكذا تم اختراع برامج ركيكة ومكررة، المفروض أنها فقرات كلامية تمهد للغناء، لكنهم تاهوا ونسوا فيما يبدو الغرض من المحطة الغنائية وتصوروها إرثًا عن السيد الوالد وبدءوا يستضيفون فيها أصدقاءهم من أجل حوارات لا قيمة لها يتخللها مداخلات تليفونية مع مستمعين بعينهم، وتبدأ المكالمة بفاصل من النفاق المقيت لا بد أن يستهل به المستمع مكالمته وإلا قطعوا الخط وأغلقوا التليفون في وجهه، فتجد المسكين يمتدح المحطة وروعتها ويؤكد أنه لا يسمح لنفسه بالاستماع لمحطة أخرى (وكأن الاستماع إلى الإذاعات المختلفة جريمة) ثم يدخل على المذيع والمذيعة مشيدًا بالبرنامج وحلاوة الأداء ثم يعرج على المخرج ويوجه له التحية ويمتدح عبقريته، وبعد ذلك لا بد أن ينتقل إلى مهندس الصوت فيشيد بلمساته الفنية الساحرة دون أن يكون حتى يعي وظيفة المخرج أو دور فني الصوت الذي يسمونه مهندسًا حتى لو كان دبلوم تجارة!

أتمنى من الله ولا يكتر عليه أن تعود إذاعة الأغاني لتذيع أغاني فقط وتكف عن الرغي والاستظراف وتقوم بنقل المذيعين ليفترسوا أذن المستمعين في محطات أخرى!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الملايين في سوق الكانتو

هناك حالة لا تخطئها عين من الاختلال الرهيب في سوق الدراما في مصر. هذه الحالة هي التي دفعت الأستاذ أشرف زكي نقيب الممثلين إلى اتخاذ قراره العصبي بقصر اشتغال الفنانين العرب في مصر على عمل واحد سنويًا. ومن الطبيعي أن هذا القرار لم يكن ليتخذ لو كانت الآليات الطبيعية التي تحكم الدنيا كلها تفعل نفس الشيء في السوق المصري.. فما هي يا ترى هذه الآليات؟ أولها قانون العرض والطلب الذي بمقتضاه خرج من سوق السينما جيل بأكمله من النجوم الذين تربعوا على العرش لسنوات طويلة مثل محمود ياسين ونور الشريف وحسين فهمي وعزت العلايلي ونادية الجندي ونبيلة عبيد وميرفت أمين وسهير رمزي وإلهام شاهين. كل هؤلاء جلسوا في بيوتهم عاطلين عن العمل بعد أن ظهر محمد هنيدي وأحمد السقا ومحمد سعد وأحمد رزق وأحمد عيد وكريم عبد العزيز ومنى زكي وياسمين عبد العزيز وداليا البحيري، وفرضوا على نجوم الشاشة الفضية الاعتزال المبكر بعد أن أدار لهم الجمهور ظهره واتجه في حركة نزوح جماعي نحو الأبطال الجدد.
وكان المتوقع طبقًا لحالة الانكسار في شعبية النجوم وتراجع الطلب عليهم أن تنخفض أجورهم انخفاضًا حادًا، وكان طبيعيًا أن يفرض التليفزيون وشركات الإنتاج الدرامي شروطهم على النجوم، وهذا ما يحدث في كل أنحاء العالم، لكن بدلًا من هذا وجدنا نجومًا (سابقين) لم يعد لهم بريق يوقعون عقودًا لعمل مسلسلات يتقاضون عنها أجورًا بالملايين!! أي أنه في الوقت الذي كان يمكن للتليفزيون أن يُشغلهم بالمجان طبقًا للعرض والطلب، أو بأجور رمزية في أحسن الأحوال، إذا به يمنحهم أجورًا لم يحلموا بالحصول عليها وهم في ذروة أمجادهم سواء بالسينما أو بالتليفزيون. وهذا ما أقصده بالاختلال الرهيب، وهو الذي أدى إلى أن يطمع الفنانون الذين وجدوا مغارة علي بابا ـ حيث الزمرد والياقوت ـ تُفتح لهم بدون مناسبة فرفعوا أجورهم أكثر وأكثر. وهنا تنبهت جهات الإنتاج إلى حقيقة الأمر وحاولت أن تعيد التوازن إلى السوق المختل، فبدأت تستعين بالممثلين الجدد وشباب الخريجين من المعاهد الفنية، كذلك أدخلت الممثلين العرب في المعادلة.. وعندها بدأت الولولة، وأخذ الفنانون المصريون يلطمون الخدود ويشقون الجيوب ويستغيثون بالنقيب أن يحميهم من هجوم التتار، فأصدر قراره الغريب لحماية فنانين أدار لهم الجمهور ظهره، ومع هذا يصرون على الحصول على الملايين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الملعون.. ورجل قتله الهواء

كنت في مدينة نيويورك عندما فاجأني أحد الأصدقاء بالزيارة وبصحبته فنان محبوب كان نجمه في ارتفاع وينتظره مستقبل كبير. استقبلتهما بترحاب كبير وبعد السؤال عن الأحوال طلب مني الفنان كوب شاي صعيدي مغلي. قمت بإعداد الشاي وأحضرت معه طبقًا من البسكويت قدمته للضيفين. اقترب مني صاحبنا الفنان وهمس لي متسائلًا وهو يزيح طبق البسكويت بيده: لم تقل لي يا إكسلانس.. هل أنت هوائي أم مائي؟ قلت له مدهوشًا: ماذا؟ فبادر صديقنا المشترك متداركًا: مائي يعني من هواة المشروبات الروحية وهوائي يعني من مشجعي الأنفاس والدخان الأزرق. قلت لهما: آه فهمت.. لكن للأسف لست هوائيًا ولا مائيًا. يمكنك أن تقول إني رجل طواجني، صوائني، لفائفي.. من الطواجن والصواني والمحاشي، لكن الماء والهواء ليسا من هواياتي. بدا على الفنان أنه أحبط وخاب أمله فيّ وسأل صديقنا: طب وبعدين ماذا سنفعل؟ قال الصديق: أتصور أنني أعرف من لديه الحل.. هيا بنا.

نزلت معهما، وفي الطريق أخبرني الصديق أننا في طريقنا إلى «الملعون».. والملعون هو بائع هوت دوج مكسيكي، مضروب سكينة بمساحة ٣٠ غرزة في وجهه، يقف بالشارع السابع في مانهاتن ويعرفه كل عشاق «الهواء» بنيويورك لأمانته وجودة منتجاته ومهاودته في الأسعار. كنت أعرف مكان «الملعون» منذ فترة لأن عربة السندوتشات خاصته كانت تقف بجوار السينما التي كنت أؤمها كل يوم، وأحيانًا كنت أشتري منه بعض سندوتشات النقانق الحارة في طريقي إلى المنزل آخر النهار. كانت شهرة الرجل كبيرة وصيته ذائعًا وربما يكون هذا سبب حصوله على لقب الملعون من خصومه الذين لم يكونوا يجارونه في مكاسبه ولا عدد زبائنه. ويقال إن رجال الشرطة كانوا يعلمون بأمره، لكنهم تركوه يمارس نشاطه بحرية لأنه يمدهم بمعلومات عن تجار الصنف الكبار. المهم.. أخذ صاحبنا الفنان طلبه وانصرفنا، وعدت إلى البيت. في الصباح الباكر استيقظت على تليفون من الفنان يرجوني أن أنزل إليه وآخذه إلى الملعون مرة ثانية لأن تموين الأمس قد نفد والصنف كان «عالي» بصورة لا تصدق. رجاني الفنان ألا أتأخر عليه لأن صديقنا المشترك لا يرد على التليفون وبالتالي ليس أمامه غيري. انزعجت من فكرة أن يكون قد استهلك تموين الأمس كاملًا واعتذرت بأنني لا أستطيع أن أترك عملي لأذهب معه إلى تاجر الصنف، فطلبت منه أن يعاود الاتصال بصديقه وأنهيت المكالمة. بعد نصف ساعة كان يعاود الاتصال بي وكان قد فقد مرحه المعهود وحل محله جدية بالغة وطلب مني في رجاء أن أذهب إليه. وجدت نفسي في حيرة لأني لا أرغب أن يراني أحد بصحبة صاحب كِيف يشتري تموينه، وكنت قد ذهبت معهما بالأمس من باب التسلية والفضول. قلت له: أستطيع أن أشرح لك العنوان وهو بسيط، وما عليك سوى أن تطلب من سائق التاكسي الذهاب بك للشارع السابع بجوار السينما. أخذ مني الوصفة وأغلق التليفون في عصبية. في الليل حضر إليّ مع صديقنا وكانت السعادة بادية على وجهه، وأخبرني أنه اشترى كمية تكفيه أيام زيارته الباقية لأمريكا حتى لا يحوجه الزمن لأمثالي. كما قال ضاحكًا: إن هذا الرجل المكسيكي النبيل ـ على حد وصفه ـ لا يمكن أن يكون ملعونًا بل يجدر بزبائنه العارفين لقدره أن يسمّوه «المبروك» وأنه يفكر في المستقبل في تقديم عمل فني يتناول سيرة الرجل وقصة كفاحه!!

مما يؤسف له أن الفنان المحبوب لم يكتب له أن يقدم قصة حياة الملعون في عمل فني، ذلك أن خبر وفاته المفاجئ في مصر قد وضع نهاية لأحلامه.. ولا أبرئ أبدًا «الهواء» من جريمة قتله.

ممثلون لا يمثلون

في أفلامنا القديمة التي أنتجت في الأربعينيات والخمسينيات.. أفلام الأبيض والأسود التي قام ببطولتها أنور وجدي وليلى مراد وعماد حمدي وفاتن حمامة كنا نجد ممثلين يقومون بالأدوار الثانوية كأعضاء في العصابة (مثل فيلم عنبر) أو كأولاد البلد الذين يسكنون الحارة مع البطل أو البطلة ولا يكفّون عن إلقاء القفشات والدخول قافية لبعضهم البعض. هؤلاء الممثلون أعرف أشكالهم جيدًا وللأسف لا أعرف أسماءهم رغم حبي لهم ولخفة دمهم وتمثيلهم التلقائي. هؤلاء الفنانون يمكنني أن أزعم أنهم لم يكونوا يمثلون بقدر ما كانوا يؤدون جزءًا من أدوارهم الحقيقية في الحياة.. لا أقصد انتماءهم للعصابات وإنما أقصد أنهم فعلًا أولاد بلد وأنهم فعلًا من طبقات شعبية وأن نصيبهم من التعليم محدود إن لم يكن معدومًا، وأن خفة دمهم لا تعود إلى النص المكتوب وإنما إلى تصرفهم وتجاوزهم للنص وإلقائهم للإفيهات التي يرددونها على القهوة وهم خارج البلاتوه.

عندما ظهر محمد سعد في دور اللمبي للمرة الأولى في فيلم الناظر أعجبني أداؤه الرائع للشخصية وتقمصه لها إلى حد مذهل، ووجدت نفسي واقعًا في حب هذا الفنان الذي بهرني بأدائه المعجز وتحديت أي ممثل آخر يستطيع أن يلعب الدور بهذا الاقتدار والتمكن، لكني مع هذا تخوفت من أن يكون ما رأيته ليس تمثيلًا أسوة بالنموذج السابق الذي تحدثت عنه، وشككت في أن يكون محمد سعد ليس ممثلًا خارقًا كما يبدو وإنما هو ممثل تلقائي يشبه الفنانين الذين كانوا يعيشون بعضًا من حياتهم على الشاشة، لكني أقنعت نفسي بأن التجارب القادمة هي التي ستثبت هل هو ممثل كبير أم أنه ممثل الدور الواحد الذي لا يجد أدنى جهد في تمثيله.

توالت بعد ذلك أفلام محمد سعد.. كل صيف فيلم جديد، اللي بالي بالك ثم عوكل وبوحة وكتكوت وكركر وصولًا إلى فيلمه الأخير بوشكاش. ومع كل فيلم كان حماسي له يقل وتشككي فيه يزيد، لكني مع هذا كنت ألمح شبح ممثل يحتاج لمن ينصحه ويأخذ بيده ليظهر للناس غول تمثيل ليس له مثيل لو فقط تخلى عن اللمبي وتذكر أنه محمد سعد.

بعد أن شاهدت فيلم بوشكاش كان الرصيد قد نفد والوهم قد زال وأدركت أنني تعرضت للخديعة لعدة سنوات لأن من حسبته فنانا مذهلًا لم يكن أكثر من شاب طيب من أولاد البلد الذين نراهم كل يوم.. هو يتميز عنهم بأنه لا يرهب الكاميرا ولا يخشى من المخرج ويراكم الملايين من جيوب المغفلين أمثالي الذين يظنونه يمثل ولا يعرفون الحقيقة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أنا بحبك خالص يا أستاذ محسن!

آلو.. أستاذ محسن؟ أيوه يا أفندم أنا محسن. مش معقول يا أستاذ محسن، أنا مش مصدقة نفسي.. حقيقي أنا معاك على الهوا؟ فيه إيه بس يا أفندم، مين معايا؟ مين معاك؟ معقولة مش عارفني؟ أنا مدام عفاف من إسكندرية يا أستاذ محسن. أهلًا وسهلًا يا مدام عفاف.. تحبي تشتركي معانا في الحلقة علشان تكسبي أغاني؟ أحب؟.. دانا أحب وأعشق وأدوب كمان يا أستاذ محسن، ما تتصورش أنت غالي علينا قد إيه يا أستاذ محسن. وانتي كمان غالية علينا يا مدام عفاف. لأ يا أستاذ محسن، مش قد غلاوتك، أنا لحد دلوقتي مش قادرة أتلم على روحي.. أنا بمجرد ما أسمع صوتك في الراديو روحي بتروح يا أستاذ محسن. ميرسي خالص يا عفاف.. ثانية واحدة، معانا مكالمة، مين معايا؟ إخص عليك يا أستاذ محسن، قوام نسيت صوتي؟ مين يا أفندم؟ أنا عفاف من الجيزة. يا أهلًا وسهلًا يا عفاف من الجيزة.. معانا دلوقتي أيها السادة مستمعي إذاعة الأغاني عفاف من إسكندرية وعفاف من الجيزة. واحشني يا أستاذ محسن. انتي مين فيهم؟ أنا عفاف جيزة يا أستاذ محسن ياللي ما بتفكرش غير في عفاف بتاعة إسكندرية! لا والله يا عفاف أنتوا كلكم على بالي. صحيح بتفكر فيّا يا أستاذ محسن؟ طبعًا وبافكر في كل المستمعين اللي بيكلمونا... ثانية واحدة يا عفاف معانا اتصال جديد. آلو.. أيوه يا أفندم. أكلم الأستاذ محسن. معاكي محسن ذات نفسه يا أفندم مين معايا؟ يا خبر أبيض يا أستاذ محسن مش عارف صوتي؟ صوتك جميل يا أفندم بس فكريني. أنا مدام عفاف من حلايب يا أستاذ محسن، سامع دقات قلبي؟ يا أستاذ محسن إنت مش أي أي ولا زي زي، أنا ساعات باسورأ من «وأنت جي» يا أستاذ محسن، وأحب أحيي حبيبتي عفاف بتاعة إسكندرية وروح قلبي عفاف بتاعة الجيزة. أهلًا يا حبيبتي أنا عفاف إسكندرية وعلى فكرة سميرة بتسلم عليكي وبتقول لك عجبك الفطير؟ الفطير كان يجنن يا عفاف يا روحي، قولي لها تسلم إيدك. آلو.. إزيك يا عفاف حلايب أنا عفاف جيزة.. واخده بالك إن الأستاذ محسن مركّز طول الوقت مع عفاف إسكندرية وما عادش مهتم بينا زي زمان؟ واخده بالي يا حبيبتي بس مستعبطة علشان المركب تمشي. يا جماعة، يا جماعة أنا محسن وباقول بعلو صوتي إني باحبكم كلكم وبافكر فيكم قد بعض بالضبط، وباحلم باليوم اللي يجمعني بيكم حفل غنائي كبير.

الثلاثة في صوت واحد: وأنا كمان بحبك وباموت فيك خالص يا حبيبي يا أستاذ محسن.

(طبق الأصل من إذاعة الأغاني).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كلمات نزار قباني

كثيرة هي الأغنيات التي قامت على أشعار نزار قباني وتغنّى بها المطربون العرب. بدأها محمد عبد الوهاب بأغنية «أيظن» التي غنتها نجاة، ثم تلته فيروز عندما لحن لها الأخوان رحباني «لا تسألوني ما اسمه حبيبي» ثم عاد عبد الوهاب ولحّن من أشعار نزار لنجاة أيضًا قصيدة «ماذا أقول له». وقد شجّع النجاح الذي لاقته قصائد نزار عبد الحليم حافظ على أن ينتقي منها «رسالة من تحت الماء» وبعدها «قارئة الفنجان». كذلك قام الملحن محمد سلطان باختيار إحدى قصائد نزار ليلحنها لفايزة أحمد. وكانت أم كلثوم قد تغنت أيضًا من أشعاره بقصيدة «أصبح عندي الآن بندقية» ثم صار نزار بعد ذلك نبعًا أخذ الملحنون والمطربون العرب يغترفون منه ليصوغوا أعذب الألحان وأجمل الأغاني حتى إن كاظم الساهر قدم وحده أكثر من عشر قصائد لنزار.

الملحوظة الجديرة بالتأمل هي أن كاظم الساهر قدم كلمات نزار كما هي دون أن يتدخل بالتعديل لكلمة أو شطر، على العكس مما فعل عبد الوهاب والموجي وعبد الحليم ومعهم فايزة ومحمد سلطان الذين كانت رؤيتهم أن بعض الكلمات لا يصح تقديمها كما هي، وذلك لتعارضها مع الذوق العام أو لصدمها لمعتقدات الناس، فقام عبد الوهاب في أغنية نجاة: متى ستعرف كم أهواك يا رجل.. أبيع من أجله الدنيا وما فيها.. قام بتغيير كلمة يا رجل ووضع بدلًا منها يا أمل. كذلك قام عبد الحليم في رسالة من تحت الماء بتعديل: الموج الأزرق في عينيك.. يجرجرني نحو الأعمق.. فجعلها يناديني بدلًا من يجرجرني، وفي نفس القصيدة طلب من نزار أن يبدّل الشطرة التي تقول: علمني كيف أثور عليك وأنجو من سيف الأشواق، فقام نزار بتغييرها فصارت كما نعرفها في الأغنية: علمني كيف يموت الحب وتنتحر الأشواق. وطبعًا كان لا بد من تعديل الجملة التي تقول: إن كنت أعز عليك فخذ بيديّ.. فأنا عاشقة من رأسي حتى قدميّ، فصارت: فأنا مفتون من رأسي حتى قدمي. وفي أغنية قارئة الفنجان طلب حليم والموجي تغيير: يا ولدي قد مات شهيدًا.. من مات على دين المحبوب، فصارت: من مات فداء للمحبوب. هذا بخلاف: ضحكتها موسيقى وورود.. التي صارت أنغامًا وورود، وكذلك: فحبيبة قلبك يا ولدي نائمة في قصر مرصود.. والقصر كبير يا ولدي وكلاب تحرسه وجنود، تم حذف البيت الأخير بأكمله من الأغنية. وبعدها قام محمد سلطان عند تلحينه لقصيدة «رسالة من امرأة حاقدة» بجعلها «رسالة من امرأة» واستبعد كلمة حاقدة، وفي داخل القصيدة يقول نزار: لا تعتذر يا نذل لا تتأسف، فصارت بعد التعديل: لا تعتذر أبدًا وحُذفت كلمة يا نذل.

وعلى الناحية الأخرى وجدنا كاظم الساهر يقدم كلمات نزار كما هي دون حساسية ومن ضمنها ما نعتقد أن عبد الوهاب وعبد الحليم لم يكن أحدهما ليقوم أبدًا بغنائها مثل: أشهد أن لا امرأة إلا أنت، ومثل: علمني كيف ينام الحزن كغلام مقطوع القدمين.

وهنا يحق للمرء أن يتساءل هل كان الفنانون المصريون مبالغين في حساسيتهم أكثر من اللازم تجاه بعض الكلمات أم أن كاظم الساهر هو المبالغ في جرأته، أم أن المجتمع هو الذي تغير؟

أغان خالدة.. كلماتها ركيكة

تكتب الصحف دائما وهي تتناول سيرة عبد الحليم حافظ عن دقته الشديدة في اختيار كلمات أغانيه وحساسيته المفرطة للكلمة والمعنى، وكيف أنه كان يتدخل أحيانًا بتعديل لفظ أو تبديل حرف. ويروي المؤلفون أنفسهم حواديت كثيرة في هذا الشأن تتحدث عن سعادتهم وترحيبهم بتدخلات حليم في

كلماتهم!! ويحكون القصص الطريفة التي دارت في كواليس الأغنية الفلانية والعلانية، ومعاناة حليم الذي لم يكن يرتاح ولا يهدأ له بال حتى تنضبط الغنوة تمامًا وتصير على قد الشوق!

الغريب أنني عندما أقوم بإخضاع هذا الكلام للعقل أجده في كثير من الأحيان مناف للحقيقة. فحليم على قدر موهبته وجمال صوته وروعة أدائه لم يكن يمتلك هذا الإحساس بالكلمة الحلوة، يشاركه في هذا الأمر الملحن المبدع بليغ حمدي رفيق جانب كبير من رحلة حليم. عبد الحليم حافظ بدأ مشواره مع الشهرة ومعرفة الجمهور به من خلال أغنية صافيني مرة. وكانت للحق متميزة جدا في لحن محمد الموجي غير التقليدي وغير المألوف. لكن الكلمات كانت نقطة ضعف ظاهرة في الأغنية، فحكاية صافيني مرة وجافيني مرة ولا تنسانيش كده بالمرة ليست جديدة وقد سبقه إليها سيد درويش في رائعته زوروني كل سنة مرة حرام تنسوني بالمرة.. أما بقية كلمات الأغنية فشديدة الركاكة والتواضع. ومن الواضح أن حليم قد فطن إلى هذه الحقيقة سريعًا فامتنع بعد ذلك تماما عن التعامل مع سمير محبوب الذي لمع على ضفاف حنجرة حليم ثم خفت صوته عندما استغنى حليم عن كلماته.

الأمر الغريب أن السنوات الأخيرة لحليم تشابهت مع بداياته من حيث سوء اختيار الكلمات، وذلك عندما خاصم محمد الموجي وكمال الطويل ومن ارتبط بهما من مؤلفين موهوبين مثل مرسي جميل عزيز وصلاح جاهين.. في هذا الوقت انفرد به محمد حمزة وبليغ حمدي في أغنيات شهيرة مثل موعود وقدك المياس وأي دمعة حزن وزي الهوا، والحقيقة أن هذه الأغنيات قد حققت نجاحا كبيرا على الرغم من ضعف كلماتها وافتقادها للوهج الشعري، لكن من الواضح أن حب الجمهور لحليم وحلاوة ألحان بليغ حمدي جعلته لا يهتم كثيرًا بالكلمات قدر اهتمامه باللحن والأداء. ومن الواضح أيضًا أن بليغ كان يشارك حليم الإعجاب بكلمات لا تصلح للغناء، ومع هذا فعبقرية الاثنين حولت كلامًا عاديّا إلى أغان خالدة. ومثلما انزوى سمير محبوب بعد إعراض حليم عنه، ابتعد محمد حمزة واختفى بعد وفاة حليم ومن بعده بليغ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فنان الشعب أم فنان السلطة؟

من المعروف أن الفنان محمد عبد الوهاب قد منع ميادة الحناوي من دخول مصر لسنوات طويلة في قصة معروفة وسبق نشر تفصيلاتها أكثر من مرة.
الأمر الذي ما زال يحيّرني حتى الآن في هذا الموضوع هو: هل يملك الفنان سلطة تجاوز القانون وقمع الناس والتعدي على الحقوق الدستورية للبشر استنادًا إلى مكانته الأدبية وشهرته الفنية وحب الناس له؟ هذا هو ما حدث فعلًا وقد نشر تفصيلاته الناقد الكبير الأستاذ طارق الشناوي عندما روى أن الفنانة ميادة الحناوي قامت بنشر أقاويل حول جلسات وتسجيلات جمعتها بالموسيقار الكبير، ويبدو فيها أن الموسيقار قد استخفه الطرب فعبّر دون تحفظات عن إعجابه بصوتها وأشياء أخرى. وقد تسبب هذا في حرج كبير لعبد الوهاب ومشاكل مع زوجته السيدة نهلة القدسي التي هددت بترك البيت إذا أتت ميادة إلى مصر. فما كان من الأستاذ سوى أن استنجد بصديقه اللواء حسن أبو باشا (وكان عبد الوهاب أيضًا يحمل رتبة اللواء من خلال مكرمة سلطانية) وطلب منه أن يستخدم سلطاته كوزير للداخلية في منع دخول ميادة الحناوي للأراضي المصرية. والباقي معروف.. قام اللواء أبو باشا بالاستجابة لمطلب اللواء عبد الوهاب وتم المنع الذي استمر سنوات طويلة.
سبق هذه القصة بعشرين سنة قصة أخرى معروفة بحكاية «كلب الست» وقد كتبها الشاعر أحمد فؤاد نجم في قصيدة شهيرة، وتتمثل بأن شابّا صغيرًا كان يمر من أمام فيلا أم كلثوم على النيل بالزمالك عندما قفز كلب السيدة ثومة من السور وأمسك بالفتى وأشبعه عضّا ومزق ملابسه وأثخنه بالجراح، وعندما حضرت الشرطة وأرادت القبض على صاحب الكلب واتخاذ الإجراءات القانونية ضده فاجأهم أن كوكب الشرق أم كلثوم هي صاحبة الكلب فما كان منهم إلا اصطحاب الشاب إلى المخفر وإلقاؤه في الحجز عدة أيام حتى استجار الولد وطلب الصفح والسماح وعرض عليهم الخروج للاطمئنان على الأخ فوكس خشية أن يكون قد ناله التسمم عندما غرس أنيابه في جسم الشاب الفقير!
وهنا السؤال مرة أخرى هل يملك الفنان حصانة تجعله يعلو فوق الناس والقانون؟ وكيف يكون فنانًا للشعب وهو يستطيع إذا غضب على أحد من هذا الشعب أن ينكل به ويرميه في السجن؟ وهل يمكن أن نرى في الغرب هذه الأشكال القمعية من العلاقة بين الفنان وجمهوره، أو بين السلطة المتحيزة للفنان على حساب القانون وبين الشعب الغلبان. وألا يجدر والحال هكذا أن نطلق على فنانينا الكبار مهما بلغت موهبتهم وقدراتهم الفنية «فنان السلطة» وليس أبدًا فنان الشعب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صفعات عادل إمام

للصفعات في السينما المصرية تاريخ يستحق أن يروى نذكر منه الصفعة الهائلة التي تلقاها عبد الحليم حافظ من عماد حمدي في فيلم «الخطايا»، والصفعة التي نالتها نادية لطفي من أحمد مظهر في فيلم «النظارة السوداء». فإن ابتعدنا عن الصفعات الدرامية في الأفلام التراجيدية وانتقلنا إلى الكوميديا لاختلف الحديث واختلفت التسميات. في الأفلام الكوميدية لا يمكن أن نتحدث عن الصفعات وكفى. بل لا بد أن تكتمل المنظومة بإضافة الركلات والشلاليت وصك الأقفية ولسع المؤخرات وغيرها.

ولعل أحدًا في تاريخ السينما لم ينل قدرًا محترمًا من كل ما سبق من ضرب وركل وصفع قدر ما نال عادل إمام في مقتبل حياته، في مرحلة الأدوار الثانية ثم في أدوار البطولة المبكرة. مثال لهذا دوره الخفيف الذي لا ينسى في فيلم «نص ساعة جواز» مع ماجدة الخطيب ورشدي أباظة وشادية. في هذا الفيلم كان يقوم بدور صديق ماجدة الخطيب التي تكره الكذب والكذابين، ولا تدري أن جارها وصديقها الذي يعمل بالسينما هو أكبر كذاب. لقد أوهمها بقيامه ببطولات سينمائية مع أجمل جميلات الشاشة وأنه ينعم معهن بمشاهد مليئة بالقبلات الساخنة حتى أنه قد ملّ من «البوس».. هذا في الوقت الذي كانت شغلته الحقيقية كدوبلير للبطل يتلقى الضرب والصفع والركل بدلًا منه. وقد استعرض المخرج فطين عبد الوهاب مشاهد كثيرة لعادل إمام وهو يفتدي البطل بوجهه وجسمه ويخرج من المشهد لا يقوى على الوقوف من كثرة ما تلقّى من الضرب. ولا ننسى أيضًا عادل إمام في «البحث عن فضيحة» مع سمير صبري وميرفت أمين عندما أخذ لأجل خاطر حبيبته أكثر من علقة ساخنة على يد أبطال في كمال الأجسام حتى تورم وجهه وخرج محمولًا على الأعناق.

لقد ذكرت هذه الأمثلة قبل أن أتطرق لهواية عادل إمام الواضحة للجميع والتي ظهرت منذ سنوات بعد أن صار نجمًا كبيرًا تُكتب الأفلام من أجله ويشرف عليها مشهدًا بمشهد. هذه الهواية تتمثل في رغبته الشديدة في كل فيلم أن يوجه لزملائه أكبر قدر من الصفعات على الوجه والقفا والمؤخرة دون داع درامي، ولكن هكذا.. بسبب أن الزعيم عاوز كده. ويلاحظ أن هذه الرغبة الحارقة في صفع الزملاء لم تستثن حتى النساء. أما إذا كانت الضرورة الدرامية تقتضي أن يتلقى هو بعض الصفعات مثال فيلم «التجربة الدانماركية» عندما قُبض عليه على سبيل الاشتباه، ووقف في طابور العرض وسط المشبوهين، والظابط (طلعت زكريا) يمر عليهم ويصفعهم واحدًا بعد الآخر حتى يصل إلى عادل إمام فإذا به يمسكه من حزام البنطلون بدلًا من أن يهوي بكفه على صدغه كالآخرين في انتهاك صارخ لأصول الدراما الكوميدية التي يتم لَيّ عنقها من أجل هدف واحد هو أن يضرب الزعيم زملاءه لكن لا يضربه أحد، وكأن العُلق الساخنة التي نالها زمان في التمثيل كانت حقيقية وليست تمثيلًا، ولذا فهو يعتبرها جزءًا من هوان وكفاح البدايات الذي يستحق التعويض عنه الآن... وهو الأمر الذي إن صح لكان هو الكوميديا التي تفوق كل ما قدم عادل إمام!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام إلى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

اهداء..

مقدمة..
كابورياتي
الكباب هوّ اللي خلّى العُمر غالي
سيدات مرحات.. جدًا
كابورياتي ومعالي كيس الرمل
عازف الجيتار.. منجّد أفرنجي
البكاء بين يدي جمالات القرد
سامانتا القبيسي وعدنان ألونزو
البهجة في صباح.. بايخ
شوميونجو
أفضل من البقرة
صديقي.. والدكتور نابلسي
أصبح عندي الآن بندقية وفزدقية.. وملبن
القراءة للجميع.. والكتابة أيضًا
أسئلة شهر رمضان وإجاباتها النموذجية
فروق ثقافية
الوزير المصري والوزير الشوميونجي
القرد المصري والقرد الشوميونجي
فوق جهل الجاهلينا
رجال وكسكسي
حسن وك وك وعرضه الكريم
يا ولدي هذا عمك رشاد كسكسي
موسم تكاثر الأنطاع
حاجات محشية.. حاجات
عن النفسنة.. أتحدث
كيف يصبح الإنسان خرتيتًا؟
محافظ الإسكندرية.. هل يقبل التحدي؟
قناة «أو تي □ي» ومستويات اللغة العربية
بل نستطيع أن نعايرك!
هجايص
البرمجة الذهنية في التبول اللاإرادي

الكيلو أربعة ونص والكيلو ثمانية وربع
المذيع السكافوللي.. والعديد والعديد
هل صحيح أن النيل.. بدراوي؟
أوتوبيس الفن وتُكتُكهُ
العولمة ووثيقة الحقوق الدينية
صحافة قنصل الوز
قرارات عنترية.. في الهجايص
وطن على كبالن
حوار خارج عنبر العيش
مدد يا شمبليون.. مدد
مصر الحلوة.. أوي!
المواطن النعجة والمواطن الذئب
بنوك الابتسامات الساحرة
حكومة وأهالي دون المستوى
مجدي مهنا.. وكل هذا الحب
هونجـا
أقسى من جحيم دانتي
المواطنة.. الكذبة التي انكشفت
على جثة الوطن
هونجا.. حتى الموت
نضال شريف من أجل علف ملوث
حادثة على الطريق
الحكومة وتكتيك إنهاك العدو!
أدب
تغريدة البجعة.. نهاية الرغبات المجنونة
جلال أمين.. ذلك الرجل المدهش
فيرتيجو.. رواية سينمائية جميلة
«عبارة غزل» لا تحتاج لمقدمة
آلام الحب المرفوض
مش فارقة معاي
مش فارقة معاي
ليلة الميت فُل
خواجات طيبون.. ولكن!
بكائية.. احتفالًا بالربيع!
على باب الهوى
بوس الواوا.. يا مؤمن!

موهبة عالية.. وهمّة ليست كذلك
أغانيهم.. للأسف لا أعرفها!
فيلم مضحك.. مثل شر البلية!
١٠٥ بوسة.. والمؤلف الذي سخن!
قليل من الغناء.. كثير من الرغي!
الملايين في سوق الكانتو
الملعون.. ورجل قتله الهواء
أنا بحبك خالص يا أستاذ محسن!
كلمات نزار قباني
فنان الشعب أم فنان السلطة؟
صفعات عادل إمام